حنّا مينه

الذئب الأسود

رواية

دار الآداب

حنا مينة

الذئب الأسود

رواية

دار الآداب - بيروت

الذئب الأسود
حنا مينة/روائي سوريّ
الطبعة الأولى عام 2005
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

- ١ -

جلس دغمش الصيّاد في فيء صنوبرة هرمة، مسندًا ظهره شبه المقوّس على جذعها الثخين، ممدّدًا رجليه على طولهما فوق العشب اليابس من إبر الصنوبر، الممسّدة كأنّما بيد صانع ماهر، من ريح رهوة أسقطتها من غصون الصنوبرة، وسفتها بتأن عجيب، فجاءت منسّقة: الإبرة إلى جانب الأخرى، منداحة طبقة فوق طبقة، في اصطفافها الذي لا خلل فيه، وفي استقامة عيدانها الناعمة التي لا تقصّف فيها، ممّا يدلّ على أنّ قدم إنسان، أو حيوان، لم تطأها، مصادفة لا قصدًا، كي تبقى، ثمّة، مفروشة على الأديم، مغرية كلّ من يراها على الاستلقاء عليها، طلبًا للراحة أو النوم، في قيلولة ما بعد الظهر، أو في رقدة الكرى ليلاً، حيث الصمت يرين بمهابته القدسيّة، والنسمات المنعشة بطراوتها، تحمل إليه موسيقى أرغن ابتهاليّة، من معبد ما، قريب وبعيد في آن، قريب لأنّه موجود، وبعيد لأنّه غير موجود، فلا تملك النفس المضنّاة بالفكر إلاّ السجود لله في ورع شديد، بينما المغيب يقترب بكلّ جلاله الفتّان، والشمس تسحب بقايا ابتساماتها الذهبيّة عن الربى، وهامات الأشجار تودعها بشجن المساء، الذي يأتي متّئدًا ليخيّم على الكون.

«أيّها المتعبون تعالوا إليّ وأنا أريحكم» ودغمش الصيّاد

متعب، يلتمس الراحة في غابة الله البكر، وبندقيّته في حضنه، تحوطها ذراعاه كما الطفل المدلّل، مستشعرًا أنّه في بيت أبيه، فلا هو بالمستأجر ولا هو بالعابر، كونه رائدًا ومقيمًا، وفي ريادته جسارة، وإقامته إناخة، بعد تجوال طويل، انتقل خلاله من غابة إلى غابة، حتى أوفى، في تطوافه، على الغابات الاثنتين والعشرين، ما بين كبيرة ضخمة، تزدحم فيها الأشجار ازدحامًا، ومتوسّطة واسعة الرقعة، قليلة الأشجار، متفرّقة الينابيع، وصغيرة يجتازها المرء ماشيًا، في نصف النهار، متلظّيًا في سيره بحرارة القيظ، لندرة الشجر والثمر، وشحوب الكائنات المتناثرة فيها!

متعب دغمش إلاّ أنّه مصمّم: لابدّ من قتل الذئب الأسود، الذي يعيث فسادًا، بل هو الفساد انتشر واستشرى، وصارت له جراء سود لا يُعرف عددها، موجودة، على نحو كثير أو قليل، في الغابات الاثنتين والعشرين التي مرّ فيها. بحث، بدأب لا يعرف الكلل، بين أجماتها، عن عدوّه وعدوّ الناس، خارجًا من بحثه بيقين، إنّها تتوالد في القصور، وتغير على الأكواخ، ناهبة، على جشع لا يعرف الشبع، حتى كسرات الخبز التي يقتات بها الفقراء. وقد التقى، في كلّ غابة، صيّادًا يبحث مثله عن هذا الذئب ليقتله، وبعد ذلك تجري تصفية الجراء، واحدًا بعد الآخر.

دغمش تقدّم به العمر، لكنّه، من الداخل، يمتلك عزيمة الشباب وقوّتهم. وبهذه العزيمة والقوّة، صمّم، نهائيًّا، على قتل الذئب الأسود، وتصفية الجراء مع الأيّام. وعزاؤه، وأيضًا أمله، في الصيّادين أمثاله، الذين يكافحون الذئاب

السود، كل في غابته، بنفس العزيمة والقوّة، وبنفس التصميم على الخلاص من هذا الوباء الحيواني الضاري، ممّا يجعل المهمّة مشتركة، لا ينقصها سوى التوحيد؛ وقد قال له صيّاد هرم، أبيض شعر الرأس واللحية، أحمر العينين من غضب وحقد:

ـ عبثًا، يا زميلي، السعيُ الفردي للقضاء على ذئاب غاباتنا، فهي تتناسل في الظلام، وعلينا، إذا ما أردنا النجاح في سعينا، أن نتوحّد أوّلاً، وأن نستنفر سكّان الأكواخ لمعاونتنا ثانيًا، وأن نطلق على الظلام ثالثًا.

فكّر دغمش وقال:

ـ أَن نتوحّد فهذا مفهوم، ومفهوم أيضًا أن نستنفر الفقراء لمساعدتنا، ولكن أَن نطلق على الظلام فهذا غير مفهوم، ماذا في الظلام؟

ـ كل سوءة!

ـ السيِّئات الكثيرة ترتكب في اللّيل والنهار، والإطلاق على الظلام، لاستهلال الضوء، أمر بدهي. ففي الضوء ينكشف كل شيء ويظهر المخبوء، وكذلك المسكوت عنه. إنّما الظلام نسيج هباء، فكيف لنا، مهما تكن براعتنا في التصويب، أَن نقتل الهباء؟

قال الصيّاد:

ـ في هباء الظلام أوجار الذئاب السود، ومكانها معروف إذا ما كانت لنا عيون تخترق الظلام مهما يدلهمّ.

ـ لم أفهم!

ـ وأنا لا أستطيع الإفصاح.

ـ خوفًا؟

ـ تقيّةً!

ـ وما الفرق؟ التقيّة تستُّرٌ على الخوف!

قال الصيّاد لدغمش:

ـ اسمع يا صاحبي! الغطاء لا ينكشف عن الطنجرة إلاّ عندما يغلي الماء الذي فيها، وعلينا ألاّ نكشف أغطية طناجرنا قبل أن يصير الماء بخارًا، أَيْ قبل أَن نتّحد نحن جماعة الصيّادين، الذين يتعقّبون الذئاب السود لقتلها في الغابات الاثنتين والعشرين.. فالذين يسمّنون الذئاب السود متّحدون، فكيف نقابلهم متفرّقين!؟ هذا مستحيل. لكن بعد اتّحادنا، يأتي دور استنفار الذين هزلوا، الذين لم يبق منهم سوى العظام المكسوّة بغشاوة من اللحم، الذين اصفرّت جلودهم من الجوع، ويموت أطفالهم من قلّة التغذية وانعدام الدواء.. إنّنا، مهما نجيد الإطلاق على الذئاب السود، لا نستطيع قتلها والانتهاء منها، كلّ ما نستطيعه، أمام تناسلها، أن نكشف أمرها، أن نجعل الناس يعون خطرها، يعرفون أصحابها، بانتظار ذلك اليوم البعيد، الذي يُقضى فيه عليها.

قال دغمش:

ـ مهمّتنا، إذن، طويلة!

ـ وتظنّها منجزة قبل عيد الأضحى المبارك؟

ـ لكنّنا نكون، عندئذ، قد متنا!

ـ ويكون أولادنا، ثمّ أحفادنا، قد كبروا.

ـ يا للنَفَس الطويل يا صاحبي!

ـ ودونه لا فائدة تُرجى!

أضاف الصيّاد:

ـ أنت تعب يا دغمش، أرى هذا على وجهك، وغيرك تعب أيضًا، وهذا واضح. . ولك، ولهم، ولكلّ الصيّادين الذين يكافحون الذئاب السود، أقول هذه الكلمات: إنّنا نعذر من تعب منهم وندعوه إلى الراحة، ونعذر الذين أصيبوا بالإحباط، ما دام استشراء خطر الذئاب السود يدعو إلى الإحباط، كما نعذر الذين يئسوا، والذين يرغبون في العودة إلى بيوتهم وأولادهم، والذين أرهقتهم مطاردة هذه الذئاب، ولا نطلب منهم، مقابل ذلك، سوى أن يعذرونا إذا لم نيأس ولن نيأس!

قال دغمش:

ـ ما أوضح ما قلت يا صاحبي، وما أقوى منطقك وأمتن حجّتك. . نعم! أنا تعب، وبعض الصيّادين الآخرين تعب أيضًا. وعلينا، كواجب، أن نحذر من التعب، وأَن نشدّ الهمم. .

قاطعه الصيّاد:

ـ لا! ليس هذا، فأن نشدّ الهمم أمر جيّد، وأن نبحث عن الصيّادين الشباب لينضمّوا إلينا أمر آخر جيّد، ولكن أن نلوم المتعبين فشيء لا فائدة فيه، ولا جنى يرتجى منه. . دعهم يستريحوا، ودعنا نستفد من حكمتهم، من تجاربهم، من خبراتهم، وبعد ذلك نرحّب بعودة المستريحين من الراحة، فإذا لم يعودوا فلا لوم عليهم، لأنّهم، في تقديري، لن يستكينوا، لن ينسوا، وهم جياع، أن يضعوا بنادقهم في

أيدي أبنائهم. والأبناء، بدورهم، يضعونها في أيدي ذراريهم.. وهكذا يتواصل تعقّب الذئاب السود، إلى أن يأتي الفجر الذي أراه..

قال دغمش ساخرًا:

ـ ذات يوم!؟

قال الصيّاد جادًّا:

ـ نعم. ذات يوم!

في هذه اللّحظة أنشد هدهد يقف على شجرة مجاورة:

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري فدرهم الصبر يسوى ألفَ دينار

أجابه هدهد آخر، يقف على شجرة مقابلة:

للدهر يوم علينا، كما يوم لنا، لم يدم أبدًا في حكمه الجاري!

رفرف هدهد ثالث، على شجرة أخرى وأنشد:

وما عشت من بعد الأحبّة سلوة لكنّني للنائبات حمولُ!

زعق هدهد رابع، بصوت كالنفير:

«للظلم يوم، وللمظلوم يومان!»

على الأثر راحت الغابة، بكلّ ما فيها من أشجار وكائنات، تردّد بصوتٍ كالنذير:

«للظلم يوم، وللمظلوم يومان!».

وأرعدت الغابات الاثنتان والعشرون، على نحو ما يكون الصدى بين الجبال والوديان:

«للظلم يوم وللمظلوم يومان!» «للظلم يوم وللمظلوم يومان!» «للظلم يوم وللمظلوم يومان!»

وعلى الأرض، أمام دغمش وصاحبه الصيّاد الهرم، درجت حمامة بيضاء في منقارها غصن زيتون، وظلّت تدرج أمام الاثنين، في حركة لافتة، دون أن تقول كلمة واحدة، بينما إِرعاد الغابات يتخافت تدريجيًا، والسكينة الموحية، الجليلة في صمتها والإيحاء، تتسيّد، كأنّما الاحتفاليّة قد تمّت، وأنّ كلّ شيء قد عاد إلى طبيعته، إلاّ دغمش الذي تملّكته ارتعاشة لما تزل، والصيّاد الهرم يرى إليه مبتسمًا مشفقًا حدبًا، سائلاً:

ـ ماذا اعتراك يا دغمش؟

قال دغمش:

ـ لا أدري! إِنّني في حالة بين العقل والجنون، يبدو أَنّني أَغفيت ورأَيت في نومي رؤيا، هل سمعت أنت يا . .

ـ بشير.

ـ هل سمعت، أنت يا بشير ما سمعت؟

قال بشير:

ـ ورأيت الحمامة التي رأيت، وفي منقارها غصن الزيتون!

ـ ما تفسير ذلك؟

ـ سل الغابة!

ـ وهل تتكلّم الغابة؟

ـ علم هذا عند ربّي. . إلاّ أنّني، يا دغمش، متفائل بما سمعت. . اليوم البعيد، الذي قلت لك إنّه في البعيد، هو

يوم للحقيقة والإيمان، رغم بعده والصعاب، الطيور لا تعرف الكذب كالناس، فحين لا نصدّق بسرعة، نرى الكذّابين في كلّ مكان: أمّا الطيور، بحسب اعتقادي، فإنّها لم تبتلِ بهذه الآفة، فـ «الكذب رأس المعاصي» ولنا أن نصدّقها بسرعة. لقد صدّقتها الغابة قبلنا، وردّدت معها بدويّ كالرّعد: «للظلم يوم وللمظلوم يومان!»... فما بالك تتشكّك كالذين لا رجاء لهم!؟

قال دغمش:

ـ أنت حكيم يا صاحبي، وتتجلّى الحكمة على لسانك، كما تتجلّى السحب الأرجوانيّة على أطراف الأفق عند الغروب، غير أنّ اليوم البعيد الذي تتحدّث عنه، يوم للصبر، وقد قال الهدهد الأوّل: «يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري»، فكيف السبيل لشراء الصبر مع عدم الإشفاق في البيع؟ إنّني، لكثرة ما صبرت، ألعن الصبر، وفي هذا نفترق نحن الاثنين.. إصبر أنت، إصبر، ودعني أطارد الذئب الأسود حتى أظفر به، وأقضي على نسله!

قال الصيّاد الحكيم بشير:

ـ إذا كنت، يا دغمش، لا تستطيع الصبر، فلا تلعنه، فقد يأتي حين، وهو آت لا ريب فيه، تندم على ما قلت، فالصبر مع الكبرياء، الصبر مع السعي، الصبر مع الكفاح، هو مفتاح الفرج.. أنت تريد قتل الذئب الأسود، وأنا مثلك أريد قتله، لكن ما النفع إذا قتلناه، فقام من نسله ذئب وذئب وذئب!؟

قال دغمش:

ـ نقتل الذئب والذئب والذئب!

ـ وحدك؟

ـ وماذا في ذلك؟ ألم يقل الهدهد: «لكنّني للنائبات حمولُ»؟

ـ وأيّ نائبة حملت حتى الآن؟

ـ الفقر!

ـ إذن كن مع الفقراء إلى أن يأتي ذلك اليوم.

ـ أكون معهم ونحن قعود؟

ـ لا تفهمني خطأ!

ـ أنا أفهمك صحّ.. أنت تدعو، بانتظار يومك اللعين ذاك، إلى الصبر، وتزيد فتدعوني كي أكون مع الفقراء قعودًا، وأنا لا أطيق ذلك، إنّني معهم قيامًا، وكلامي واضح كما أظنّ.

ـ وكيف تكون مع الفقراء قيامًا، إذا لم تعدّهم بصبر لهذا القيام؟ اذهب إليهم وقل لهم: «هيّا قوموا!» وسترى أنّهم لن يقوموا إذا لم يفهموا.. قد يقوم معك واحد منهم، أو اثنان، أو ثلاثة، وأنت، مع هؤلاء فقط، لن تبلغ أن تصنع شيئًا، فالزهرة الواحدة لا تشكّل ربيعًا، الربيع أن يكون الزهر كلّه قد تفتّحت براعمه.. اذهب إلى الفقراء وكن معهم، امكث بينهم، اشرح لهم خطر الذئب الأسود عليهم، افعل ذلك بصبر وأناة. وعندما يعي الفقراء هذا الخطر، ينهضون معك لمكافحته، ويكون لكل منهم بندقيّته، أو سيفه، أو خنجره، أو منجله، أو مقلاعه، أو عصاه.. قدْهُم، عندئذ، إلى قتل الذئاب السود وأنسالها.. امش

أمامهم غير بعيد عنهم، ودعهم يمشوا وراءك غير بعيدين عنك، هذا ما يسمّونه فنّ القيادة.

قال دغمش:

ـ قيادة؟ مرحبًا قيادة! أنا يا صاحبي لا أقود أحدًا، وأرفض أن يقودني أحد، إنّني وحدي، فرد، وهذا يكفيني!

قال الصيّاد الحكيم بشير:

ـ علّة هذا الشرق، يا دغمش، الفرديّة! ماذا تستطيع وحدك، كفرد، أن تفعل؟

ـ وهل يتطلّب قتل الذئب الأسود جماعة؟

ـ لم تعِ، إذن، كلّ ما قلته لك قبل قليل!

ـ وعيت أم لم أعِ، هذا لا يهمّ! قلت لك إنّني وحدي سأقتل الذئب الأسود، وسأقتله دون مساعدة من أحد.

ـ هذا قرارك الأخير؟

ـ نعم!

ـ في هذه الحال تذكّر كلامي، وإلى اللّقاء.

قال بشير ذلك وغادر المكان، سار بين الأشجار والأدغال حتى اختفى.. لفّ دغمش سيكارة، أشعلها، سحب منها أنفاسًا عميقة، فكّر بهدوء، تداخلت أفكاره مع دخان سيكارته، ارتفع هذا المزيج الرماديّ حلقات في الهواء، علق بأوراق الأشجار، اصفرّت الأوراق، تساقطت، اقتربت ورقة صفراء منه، خاطبته قائلة:

ـ أنت على حقّ يا دغمش! أنت وفيٌّ لآبائك وأجدادك، كانوا مثلك أفرادًا، كانوا شجعانًا وأفرادًا، وفي سلوكهم،

من المهد إلى اللّحد، حافظوا على فرديّتهم، وهذا سبب نجاحهم!

انحنى، في حركة مباغتة، غصن شجرة إلى جواره، اهتزّت أوراقه الخضراء واضطربت! دهش لهذه الظاهرة، وجم من شدّة الدهش، تجمّعت أوراق الغصن الخضراء حتّى صارت ورقة واحدة، قالت له الورقة:

ـ أنت مع الموت أم مع الحياة؟ أجب على السؤال دون مراوغة.

أجاب مرتبكًا:

ـ أنا مع الحياة طبعًا!

أجابت الورقة:

ـ الذي يكون مع الحياة لا يكون مع الصفرة.. أنت صدّقت الورقة الصفراء، ورقة الموت هذه!

ـ سمعت ما قالته ولم أنطق بكلمة!

ـ لكنّك، في سريرتك، نطقت.. الشفاه لا تهمّ بل السرائر، سريرتك اسودّت من كذبك، من تناقضك، من احتيالك على نفسك. الشرّ.. يا دغمش، لا يتآخى مع الخير، والخير لا بدّ أن ينتصر على الشرّ، وأنت، في العلن، تزعم أنّك تسعى للقضاء على الذئب الأسود، وفي الخفاء تنهج نهج آبائك وأجدادك، وهم، رغم شجاعتهم، لم يقتلوا الذئاب السود في زمنهم. كانوا فرديين، كانوا خارج التاريخ، وحتّى الرأسماليّة الزراعيّة لم ينتبهوا إلى أهمّيّتها!

قاطعها دغمش:

ـ الذئاب السود لم تكن زمن آبائي وأجدادي!

قالت الورقة الخضراء:

ـ بلى! كانت، بأشكال أخرى.. ولأنّهم لم يتعاونوا عليها، أخفقوا في قتلها، الشرور التي يعاني منها البشر اليوم، هي الورثة التي أورثهم إيّاها الأجداد والآباء، وتأتي الورقة الصفراء، الآن، لتزعم أنّهم انتصروا عليها.. الدنيا تبدّلت، التبدّل سنّة الكون، ولن تجد لسنّة التبديل تبديلاً.. هل تفهم؟

«سَكَت دهشًا، تراقصتْ الورقة الخضراء، تفرّقت إلى أوراق خضر، اكتسى الغصن، ارتفع مع الشجرة إلى أعلى، تجمّد دغمش في مكانه منبهتًا، مجذوبًا، متأرجحًا، محتارًا بين أن يكون نائمًا أو يقظًا.. ومن جديد لجأ إلى التدخين، وراح يتأمّل، بغير رضى، حلقات الدخان الأزرق وهي ترتفع، وتنفلش، وتتلاشى في الفضاء رويدًا رويدًا».

في ذلك اليوم، لم يخطر على باله أنّه سيجنّ، وأنّ الصيّادة رئيفة ستكون سبب جنونه.. من يكشف الستر عن الغيب؟ رئيفة كانت في الغيب، والمنجّمون كذّابون ولو صدقوا، وبشير الحكيم يدعو إلى الصبر، وهو لا صبر له، فماذا سيكون مصيره؟ «مصيري «الهول الأعظم» قال في نفسه. ومثلي، أنا دغمش، مَنْ يستخف بالأهوال ولو كانت عظيمة! هذا هو أنا!».

ـ ٢ ـ

كان الصيّاد الحكيم بشير، يعرف الغابات الاثنتين والعشرين كما يعرف كفّه، وقد لاقى في كلّ واحدة منها، ما لاقاه في غيرها: الذئاب السود التي ترتع على هواها، وتتناسل بغير توقّف، ورأى الصيّادين الذين يحاولون، دون جدوى، القضاء عليها، وكلّ منهم يطارد الذئب في غابته بمفرده، ويصرّ، شأن دغمش، على فرديّته، اعتقادًا منه أنّ ذلك ممكن، وأنّ قتل الذئب الأسود الكبير هو الذي يعنيه، فما إن يقتله حتى يكون قد بلغ ما يريد، لأنّ قتل الجراء الذئبيّة يغدو سهلاً وميسورًا عندئذ.

وخلال تجواله في الغابات، قال للصيّادين الذين صادفهم، ما قاله للصيّاد دغمش، حول استحالة القضاء على الذئاب السود دون اتّحادهم عليها، وتعاونهم لاستئصال نسلها، وإنّ العمل الفردي يذهب سدى، ويذهب سدى اتّحادهم، حتى لو تمّ، دون أن يعي المتضرّرون من الذئاب خطرها عليهم، ودون أن ينهضوا هبّة واحدة لمكافحتها، بالتعاون مع الصيّادين، وأن تكون لهم، كما للصيّادين، وسائل هذه المكافحة.. لكنّه، في كلّ غابة، كان يصطدم بالعقليّة الفرديّة، وبأجوبة مختلفة

لفظًا، متشابهة جوهرًا، فحواها أنّهم، فرادى، يستطيعون قتل الذئب الأسود!

هذه المرّة كان لديه جديد يقوله، وهذا الجديد ما سمعه من الهداهد، التي، في هذه الغابات، تنوّعت مهمّتها، فإضافة إلى قدرتها، وهي تحلّق في الجوّ، على اكتشاف منابع الماء في الأرض وإرشاد العطاش إليها، كانت تقف على أغصان الأشجار، وتنطق بلسان عربي مبين مبشّرة بإمكان الخلاص، مادام «للظلم يوم وللمظلوم يومان» ومادام الإنسان «للنائبات حمولُ»، وأن للدهر «يوم لنا كما يوم علينا»، وأنّ هذا اليوم الذي هو علينا «لن يدوم في حكمه الجاري» وكلّ ما في الأمر هو الاتحاد، والصبر بكبرياء، وبثّ الوعي، واستنهاض همم القَعَدَة، الذين، في قعودهم عن حقّهم، اغروا الذين استباحوا هذا الحقّ بالتمادي. فالقصور استباحت الناس، والناس استباح بعضهم بعضًا؛ والقلاع التي من وراء هذه القصور، استكانت للواقع، فلا يتحرّك في أصحابها سوى ألسنتهم في المناسبات، وحين يجدون ضرورة ما، للتصريحات التي تدين أو تستنكر، مدركين سلفًا أنّ تصريحاتهم للاستهلاك الداخلي أو العربي، فلا الإدانة تنفع ولا الاستنكار يفيد، بينما النار تشتعل في بقعة عربيّة مجاورة.

لذلك قال الصيّاد أكرم، والحكيم بشير يفصح له عن بعض من مكنونات صدره:

ـ هذه منفستو سياسيّة يا حكيم!

قال الحكيم:

ـ صدقت يا أكرم، هذه منفستو سياسيّة مكانها ليس هنا.. إنّي أنسى نفسي أحيانًا، فأحسب أنّني أخطب في مظاهرة، تحتاج إلى القول المباشر، دون لفّ أو دوران.

ـ هو ما تقول تمامًا يا حكيم، فقد دخنا جميعًا من اللّفّ والدوران، وبتنا بحاجة إلى قول غير مألوف، إلى قول يخترق المألوف، فالنار المشتعلة في البقعة المجاورة يُراد لها، إذا لم تحاصر، أن تمتدّ إلى كلّ البقع المجاورة، وهذا هو الخطر الكبير..

قال الحكيم:

ـ الخطر قادم، بأسرع ممّا تظنّ..

أضاف:

ـ إنّي، أحيانًا، أكرّر نفسي! أكتبها مرّة ومرّة، عارفًا أنّ هذا مملّ غير لائق، لا ينفع في شيء.. لكنّني لا ألبث أن أسرّ «وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين».

سأل أكرم:

ـ تنفعهم بماذا؟

ـ بأنّ الأفعى لا تعضّ ذنبها! أميركا التي يأملون نفعها لن تنفعهم بشيء.. إنّها الأفعى وذنبها إسرائيل، والشعب العربي كلّه يعرف هذه الحقيقة، ويجهر بها، لكن بعض الذين بيدهم الحلّ والربط، في آذانهم وقر، أو يتصنّعون ذلك، وهم في الحقيقة يسمعون.. إنّ ثمّة شراكة! شراكة من نوع خبيث، بين بعض هؤلاء وبين البيت الأسود. إنّني لا أتّهم الجميع، مع أنّنا لو بحثنا في العمق، لوجدنا أنّ

سرّة كلّ واحد منهم لم تقطع مشيمتها العالقة، على نحو ما، بالنتوءات المعيبة لتمثال «الحرِّيَّة»، رمز الأخضر الذي يستعبد الكون، لأنّه المعيار المصرفيّ لكلّ نقود العالم ومعادنها وحجارتها الكريمة. والمصيبة أنّ هذا «الأخضر» يواصل زحفه لزرع مصارفه، شركاته متعدّدة الجنسيّات، بضائعه، سلعه المادِّيَّة وغير المادِّيَّة، ثقافته الشقيّة بكلّ تفرّعاتها، في بلاد الدنيا كلّها، تحت لافتة لها اسم حديث هو العولمة.. هل سمعت بالعولمة؟ لا!؟ لم تسمع!؟ «سيأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ». انتظر تسمع، انظر تر، اكشف الغطاء عن طناجر من الطبخات السامّة، مثل طبخة «الغات»، واقتصاد السوق، وحرِّيَّة التبادل السلعي، والاستثمارات غير المقيّدة، والاستثمارات المموّهة، والبنوك الأجنبيّة، والجامعات الخاصّة، والشراكات غير المتكافئة، المتوسّطيّة، والشرق أوسطيّة وغيرها.. اكشف الأغطية تجد القدور، التي يتمّ إنضاجها على نار هادئة، ملأى بوجبات دسمة، سامّة، محلاّة بطبقة من الكريما المزوّقة، الملوّنة، المغرية، الشبيهة بالجبنة البيضاء، المعدّة لاصطياد الجرذان وقتلها بالماء المغلي!

قال الصيّاد أكرم مع صفير الدهشة:

ـ فظيع كلّ هذا! لكنّه يبقى منفستو! وعليك يا حكيم، إذا أردت إيصاله للناس، أن تقوله بشكل أبسط.. أن تصارحهم به دون فلسفة!

قال الصيّاد بشير:

ـ أنت على حقّ يا أكرم، لكن ما قلته ليس إلاّ الجزء.

ـ والذئب الأسود الذي نطارده، يدخل في الكلّ أم في الجزء؟

ـ إنّه نتاج الاثنين معًا. . وهو معَوْلم، تجده في القارات الستّ، هناك كما هنا، يسرح، يمرح، يأتي على الأخضر واليابس، ويتناسل بكثرة، مع فارق بسيط وخطير معًا، هو أنّ الذئب الأسود ونسله، يجري الكلام عليهما علنًا في بلاد العالم، أمّا عندنا، في بعض البلاد العربيّة، فالكلام حولهما يدور سرًّا، وهناك، في الدنيا، يفضحانهما، يشهّران بهما، يُحاكمان، يُحكمان، أمّا عندنا، في بلاد الرعيّة، فإنّ أحدًا لا يجرؤ على ذلك. ومن هنا فإنّ مهمّتنا، نحن الصيّادين، تبدو صعبة إلى أقصى الحدود، ضروريّة إلى أقصى الحدود، لأنّنا لو ضُبطنا ونحن نطارد الذئاب السود، فسنساءل، ونُستجوب، ويُحقّق معنا، لمعرفة مَن دفعنا إلى هذه المطاردة، ومَن حرّضنا عليها، ومَن وضع البنادق، والعياذ بالله، في أيدينا، ومَن سمح لنا بدخول الغابات، وبأيّ حقّ نجتاز الحدود بينها، وكيف نستبيح محميّات هذه الذئاب، التي لها أصحابها وحماتها، والمنتفعون بها.

ـ رهيب! قال أكرم، هذا تقرير سياسي كامل، تقرير فظيع يا بشير، يا صاحب المنفستو!

قال بشير:

ـ هناك ما هو أفظع: الاختزال! نحن مختزلون، فكلّ قلعة، تختزل النمل الذي في غابتها إلى نملة واحدة، تمثّل ذاتها. لذلك عددنا قليل بعدد غاباتنا، إنّنا اثنتان وعشرون نملة فقط لا غير!

ـ نملة واحدة في الغابة الواحدة؟ هذا غير ممكن، غاباتنا تعجّ بالنمل، فكيفَ تقول إنّ عددنا قليل؟ ثمّ ما الذي تقصده بهذه التورية؟ الإنسان نملة؟ النمل، إذن، كثير جدًّا!

ـ وما نفع كثرة النمل، إذا كانت هذه الكثرة لا تُستشار في أمر، ولا تُشارك في اتخاذ قرار؟

ـ بعض النمل يُستشار، ويُشارك في اتخاذ القرار.

ـ هذا البعض استثناء، والاستثناء يثبت القاعدة التي أتحدّث عنها.. ثمّ إنّ هذا النمل من الحاشية، وهذه، أو بعضها، تنافق لأجل مصالحها!

قال الصيّاد أكرم:

ـ عجيب ما أسمع!

قال الحكيم بشير:

ـ العجيب هو الذي لم تسمع به بعد.. قلت لك هناك استثناء في النمل، وأضيف: هناك استثناء في الغابات أيضًا.

ـ هل أنا نملة؟

ـ وأنا مثلك!

ـ وهل للنمل مجالس وحكومات.

ـ لها!

ـ وماذا تفعل؟

ـ أغلبها يبصم، وهنا أيضًا، استثناء آخر.. بعض النمل، الذي في هذه المجالس، يرفع الصوت، ومع رفع

صوت واحد، ترتفع أصوات عديدة، وهذه الأصوات العديدة ستصبح كثيرة في المستقبل.

ـ وتتناول الأصوات في ارتفاعها ما يجري في البقعة الملتهبة قربنا؟

ـ تتناولها بصدق وحماسة، لأنّ النار، في هذه البقعة، يُراد لها ألاّ تبقى محصورة في بقعتها. . النار إذا لم تطفأ سرت، وفي سريانها تجتاز التخوم، حاملة الخطر إلى كلّ الغابات، والنمل كلّه في هذه الغابات، ممّا يُوجب اليقظة والحذر الشديدين، وقد أبدى بعض الغابات المجاورة، إدراكًا لعواقب هذا الخطر، وبادر، بشكل أو بآخر، لدعم النمل العملاق المنتفض، منذ مدّة طويلة، على النمل الشرّير الذي يحتلّ غابته، ولا يزال النمل الشقيق، القوي، المصمّم والقادر، في حالة انتفاض مستمرّة، مقدّمًا كلّ يوم الضحايا الشهداء، مُنْزِلاً بعدوّه ضربات موجعة، طالبًا، بإلحاح، أن يتحرّك قادة النمل العربي، في كلّ غاباتهم، ويفعلوا شيئًا لأجلهم، إلاّ أنّ بعض هؤلاء القادة مرتبط بمعاهدات واتفاقات، لذلك لا يقدّم سوى التحذير والاحتجاج والشجب. وهذه خيبات في المسمّيات، يتندّر بها العالم الخارجي، ويتألّم لها ومنها النمل العربي المنتفض في أرضه المشتعلة. إنّ هذه الجعجعة لا توفّر طحينًا، وأَنّ النمل العدوّ، المحتلّ، ملمّ بخفايا اللعبة وما فيها من عجز مشين، وهذا ما يدفعه إلى مزيد من الصلف، ومزيد من القتل، ومزيد من هدم البيوت على رؤوس النمل العربي.

أطلق الصيّاد أكرم آهة مرّة وقال:

ـ لماذا، يا حكيمنا الصيّاد بشير، لا تكتب هذه الحقائق الرهيبة على الورق؟

قال بشير في شجن بالغ:

ـ وتظنّ أنّها غير مكتوبة!؟

ـ في الصحف؟

ـ وفي الكتب أيضًا!

ـ والنتيجة؟

ـ بعضهم يقرأ ويغضب، وبعضهم يقرأ ويصرخ، وبعضهم يقرأ ويردّد المثل القائل: «لا أسخف من الورق إلاّ الحبر!». وفي هذا تعلّة للقاعدين والساكتين على السواء!

ـ وأنت!؟

ـ أنا صيّاد ولست بكاتب، لكنّني أؤمن بالكتابة وجدواها، فالكلمات، مكتوبة ومنطوقة، ذات تأثير في صياغة الوجدان، سواء وجدان المقاوم، أم وجدان الذي صنع أداة المقاومة، وهذا هو السبب الأساس، في أنّ القضيّة النمليّة، المسمّاة فلسطينيّة لم تستطع الإمبرياليّة أو الصهيونيّة العالميّة أن تميتها طوال خمسة وخمسين عامًا تقريبًا.. هل تدخّن؟ نعم؟ إليك بسيكارة إذن، دخّنها ولنصمت قليلاً.. الصمت، في الغابة، كلام، إنّه حوار الصمت مع الصمت، في كلام دون كلام. وأنت صيّاد وتعرف.

ـ نعم أعرف، قال الصيّاد أكرم وهو يتناول سيكارة ويشعلها، لكنّه لم يلبث أن سأل:

ـ من أين لك، يا حكيمنا، كلّ هذه المعرفة؟

ـ من الكتب. والأهمّ من الناس. المعرفة من الناس تبقى الأرسخ، وليس في هذا أيّما تقليل من شأن الكتب. . أقول لك ذلك لتعلم، وكي تعلّم غيرك.

قاطعه الصيّاد أكرم:

ـ كما تفعل أنت؟

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ تقريبًا!

ـ كيف تقريبًا ولك كلّ هذا العلم؟

ـ أقول لك تقريبًا يعني تقريبًا، ليس في الأمر تواضع. . ليذهب التواضع والغرور، كلاهما، إلى بئس المصير. . لقد أفدتك بأشياء، واستفدت منك بأشياء، في رأسها حسن الإصغاء. . تعرف البوذيّة؟ لا. . ولا أنا! غير أنّ صيّادًا قال لي: «بوذا كان كبير الأذنين» ماذا يعني هذا؟ يعني أنّه مثلك، يجيد الإصغاء! هذا استنتاج، قريب جدًّا من الصحّة. . انظر إلى أذني: إنّهما صغيرتان، وانظر إلى فمي: إنّه كبير، ما الخلاصة؟ إنّني أتكلّم أكثر ممّا أصغي، وهذا عيب فيّ، لشدّما أرغب في التخلّص منه.

صاح أكرم:

ـ عيب!؟ وتقول عيب! إنّه حكمة، وكم نحن، معشر الصيّادين، بحاجة إلى هذه الحكمة!

قال الصيّاد الحكيم بشير:

ـ لا تجامل يا صاحبي، المجاملة عيب من العيوب، ولعلّها أكثر العيوب انتشارًا. الحديث الشريف يقول: «كن

عالمًا أو متعلِّمًا، ولا تكن الثالثة فتجهل». ما هي الثالثة؟ أن تعتقد، خطأً، إنّك عالم، فتنبري لتعليم غيرك. وقد راودني مثل هذا الإثم، إلى أن حضرت مسرحيّة كاتبها ذَكَرُ نملٍ مبدع، جريء، شفّاف، مات الآن واأسفاه! إنّه من غابتنا، وله فضل على غابتنا، واسم مسرحيّته: «رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة» استمتعت جدًّا برؤيتها، في مسرح غابيّ صغير من مسارحنا، وعدت لمشاهدتها مرّة ومرّة، وفي كلّ مرّة أتعلّم جديدًا مفيدًا. فحنظلة هو أنا، وأنت، والآخر، والآخرون، كلّنا، يا صاحبي، حناظل، وكلّنا، في هذه الحياة، حنظلة في رحلته من الغفلة إلى اليقظة.. هل رأيت الرسوم الكاريكاتوريّة للرسّام ناجي العلي؟ لا؟ لا بأس، أنا رأيتها، وأعجبت جدًّا بها، وشخصيّة حنظلة، ابن البلد الفقير، الذي يعلّق على أحداث الرسوم، هو الذي اخترعها إذا لم تخني الذاكرة. وكانت تعليقات حنظلة قاسية، مُرّة في قساوتها، لكنّها كانت صحيحة، مصيبة، كالسهم في نقطة الدائرة تمامًا. لم يحتمل بعضهم، الذين كانت تعنيهم الرسوم، وتدمي أفئدتهم التعليقات معها، فاغتالوا، بأيدي مجرمين مأجورين، الرسّام ناجي العلي، إلاّ أنّ رسومه بقيت، وتعليقات حنظلة عليها بقيت، وسنموت نحن، أنا وأنت والجميع، وتبقى رسوم هذا الرسّام العبقري. العبقريّة لا تموت، ولا سبيل للفناء إليها، وكم كنا، في هذه الأيّام، بحاجة إلى رسومه، وبحاجة إلى تعليقات حنظلة.. فهمت الآن القصديّة الملعونة، قصديّة مَثَل الذين اغتالوه، وفيه يسخّفون الورق والحبر؟ هذا المَثَل ليس من قينهم، فهم أضأل وأعجز من أن يبلغوا درجة

ابتداع الأمثال، بل هو، المَثَل، من بدع الذين جاؤوا في عصور الانحطاط! وتناقلته الأجيال من بعدهم.. الورق ليس سخيفًا، والحبر ليس سخيفًا.

في هذه اللّحظة، رفرف هدهد على غصن شجرة مقابلة وأنشد:

إذا الضمير ونى عن ردع منكرة فاصبر لها، فهناك الحبر والورق

قال بشير لأكرم متهلّلاً:

ـ هل سمعت؟

أجاب أكرم:

ـ سمعت!

ـ ووعيت؟

ـ إلى حدّ ما..

ـ أرهف السمع، إِذن، لهداهد الغابات. ففي تحليقها، كما سبق وقلت، لا تكتشف منابع الماء وحدها، وإنّما منابع الحكمة معها.. ماذا تنتظر هنا يا أكرم؟ الذئب الأسود؟ وهل تظنّ هذا المراوغ الشيطاني يأتي إليك لتصطاده؟ تدعوني حكيمًا؟ لا! أنا لست بحكيم بعد، الحكمة كالسياسة، تحتاج إلى معرفة، زائد دهاء، أو بعض الدهاء على الأقلّ، وتحتاج إلى التأنّي مع الصبر، في شموخ الصابر الثائر.

قال أكرم:

ـ إنّني لا أنتظر الذئب الأسود، كي يأتي إليّ لأصطاده.

هذا محال، عليّ أن أبحث عنه لأقتله؛ ولكن لا بدّ، بين جولة من البحث وأخرى، أن أستريح، وبعد الراحة أعاود البحث بنشاط أكبر.

ـ تبحث أين؟

ـ في الغابة طبعًا، وحول منابع الماء وسواقيه خصوصًا، هناك أكمن، فإذا جاء ليشرب أراه من الكمين الذي نصبته له، فأسدّد جيّدًا وأطلق!

ـ طلقة واحدة؟

ـ عدّة طلقات عند اللّزوم، وفي المقتل من جسمه.

ـ الذئب الأسود بسبع أرواح، وفي ذات المقتل الواحد الذي تظنّ، وحتى مع الإصابة، فإنّك تقتل روحًا واحدة، فماذا تفعل بالأرواح الست الباقية؟

انتصب أكرم في جلسته، عند جذع شجرة الصنوبر الضخمة، تناول عودًا يابسًا ونكت الأرض بحركة عصبيّة، بحنق. . كان مستفزًّا، استفزّه بشير، أوحى إليه، بتلميح خفي. إنّه عاجز عن قتل الذئب الأسود، وهكذا رماه بالإحباط. . وبردّة فعل سئمة متبرّمة، قال:

ـ أنت لا تريد إيصالي إلى اليأس من قدرتي على قتل هذا الذئب، أليس كذلك؟

أجاب بشير:

ـ تيئيس الناس، والصيّادين بخاصّة، ليس من شأني، لأنّه عمل خسيس، وفي ضميري من اليقظة ما يكفي لردعي عن اقتراف هذا الإثم الشنيع. . دع عنك، إذن، هذا الحنق

غير المبرّر. الذئب الأسود، حسبما أرى، بين جلود أصحابه وأجسامهم، فقد دخل النسيج الحيّ لهذه الأجسام، ومن المستحيل أن تخلعه كالضرس المسوّس. إنّه مندسّ في اللّحم، وقد صار، في أيّامنا هذه، لحمًا من اللّحم، وقتلُ اللّحم الإنسانيّ جريمة يعاقب عليها القانون، وفوق ذلك، وحتى لو تمرّدنا على القانون، فإنّ الذئب الأسود في لحوم كثيرة، وليس من المعقول، أو من الممكن، أن نطلق عليها كلّها... هذا رأيي!

وقف الصيّاد أكرم وهو يرتجف، صاح بغضب يفوق التصوّر:

ـ أنا أختلف معك في هذا الرأي، وأشكّ فيك وفيه، نحن معشر الصيّادين قرّرنا قتل كلّ الذئاب السود، وسنقتلها بغير رحمة، سواء كانت مختبئة بين أشجار الغابات، أو مندسّة في لحوم المستفيدين منها، والذين يستغلّونها في كسبهم غير المشروع! وإذا كان الذئب الأسود بسبع أرواح، فإنّنا سنقضي عليها روحًا بعد روح!

قال الحكيم، الصيّاد بشير، بهدوء يفوق ما عرف عنه من هدوء:

ـ بارك الله بالشباب يا أكرم، فلولاه ما كان المستقبل مستقبلاً، أنتم العدّة والأمل، وأنتم، بمثل الجرأة التي تحدّثت بها، مَن يقدر على صنع المعجزات.. سوء الظنّ من حسن الفطن، ومن حقّ فطنتك عليك ألاّ تصدّق كلّ ما تسمع، وأن تشكّ، كما قلت، فيّ وفي رأيي، إنّما عليّ أن ألفتك إلى نقطة صغيرة، تعتبر جوهر القضيّة، وهذه النقطة

الصغيرة، البسيطة، ألاّ تحاول وحدك قتل الذئب الأسود، لأنّك لا تستطيع..

ـ أستطيع!

ـ حسنًا! سأنتظر لأرى كيف تستطيع، سأصبر..

رفرفت الهدائد. استقرّت، بأرجلها الناعمة، على الأغصان. هتف أحدها:

ـ يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري،

أكمل آخر:

ـ فدرهم الصبر يسوى ألف دينارِ.

صاح ثالث:

ـ للدهر يوم لنا كما يوم علينا!

أضاف رابع:

ـ لم يدم في حكمه الجاري.

رفع أكرم بندقيّته وأطلق، مرّة ومرّة، ثمّ ثالثة ورابعة، فقهقهت الهدائد كلّها ساخرة من فعلته، وقال بشير بهدوئه المعتاد:

ـ هذا درس جيّد يا أكرم، أنت، يا بني، لم تستطع أن تقتل هدهدًا، فكيف تقتل ذئبًا؟

ردّ أكرم:

ـ هذه هداهد خرافيّة يا حكيم!

قال الحكيم:

ـ والذئاب السود خرافيّة أيضًا!

ـ والصبر مستحيل، أما سمعت ما قاله الهدهد؟

ـ الصبر غير مستحيل، لكن ثمنه غالٍ! هذا ما قاله الهدهد.

ـ واليوم الذي علينا؟

ـ هو يومنا هذا!

ـ واليوم الذي لنا؟

ـ آتٍ لا ريب فيه.. «الزمن دولاب لا عمّك ولا خالك» كما يقول المثل.

فكّر الصيّاد أكرم قليلاً، تأمّل بشير الحكيم، استعاد في ومضة استرجاع بعض ما سمع، تساءل في نفسه: «أليس هذا كلّه منفستو؟»

أضاف وهو ينهض لينصرف:

«حكيمنا صيّاد مثلي، لكنّه يعرف أكثر منّي. ما قاله لي عن البقعة الملتهبة خطير، إلاّ أنّه صحيح، أمّا ما قاله عن عجزي فإنّه يدعو إلى الحيرة. إنّه، عامدًا، رماني بالحيرة، فلماذا؟ وهل أنا عاجز فعلاً، وبمفردي، عن قتل الذئب الأسود؟ وهل أنا، بعد هذا العمر، مجرّد نملة؟ ولماذا التشبيه بالنمل، في اختزال الذين يتسيّدون على هذه الغابات؟ وما علاقة الخرافة بالحقيقة؟ وهل الإنسان حقيقة أم خرافة؟ لا! الإنسان حقيقة، بل وحده الحقيقة، وكل ما عداه خرافة، وحتى الهداهد خرافة، وقد يكون الذئب الأسود نفسه خرافة كما قال، إلاّ أنّ عليّ ألاّ أصدّق كل ما قال».

التفت أكرم إلى الحكيم بشير، وقال:

ـ أنا ذاهب، لكنّني غير مقتنع بكلّ ما قلته لي. . إنّني أشكّ!

قال الحكيم بشير:

ـ الشكّ، يا بني، باب الحقيقة، وكلّنا نقف أمام هذا الباب! لكن من سيفتحه؟ دغمش؟ رئيفة؟ أنت؟ أنا؟. . «مَن يقرع الباب يُفتح له»، لكن علينا أن نقرع طويلاً، دون يأسٍ أو ملل!

- ٣ -

«الذئب الأسود خرافة، حقيقة، خرافة، حقيقة! ورئيفة، حقيقة أم خرافة!؟ حوّاء وحدها، في هذا الكون، حقيقة الحقيقة، فاعتبر أيّها المنذور للجنون والموت معًا!» انتفض دغمش رعبًا.. كانت الغابة، حيث يقبع هذا الصيّاد عند جذع صنوبرة، أصغر الغابات الاثنتين والعشرين مساحة، أقلّها في السكّان، لكنّها أرقى الغابات الأخرى حضارة ومدنيّة، وأوفرها حرّيّات فرديّة وجماعيّة، وأشهرها في الجامعات وخرّيجيها، وأكثرها طوائف ومذاهب، وأغزرها وسائل إعلام مقروءة، ومسموعة ومرئيّة، وسكّانها يتكلّمون، إلى جانب اللغة العربيّة، اللّغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، إضافة إلى اللغات الأخرى، ويطلقون على عاصمتها لقب أميرة العواصم، وقد اعتبر شاعرها الكبير، أنّ جبلها: «كلام بين الأرض والسماء».

دغمش، ابنها الفارّ، كان فخورًا بغابته، رغم الحرب الأهليّة التي نشبت فيها ودامت طويلاً، مفرّخة الشبّيحة والقنّاصين. بل إنّ دغمش نفسه كان قنّاصًا خلال هذه الحرب، لا يخطئ في التصويب والقتل، وكان يرغب، صادقًا، في استخدام مهارته هذه في قتل الذئاب الكثيرة، المنتشرة في هذه

الغابة، غير أنّه، لسبب خاصّ ووجيه جدًّا، كان مسكونًا برجوة في أن يقتل الذئب الأسود في غابته هذه وحدها، اعتقادًا منه أنّ هذا الذئب هو الأخطر بين ذئابها، وأنّه إذا قضى عليه قضى على كلّ الشرور التي تسبّب بها، وزاده يقينًا بذلك أنّ كلّ الصيّادين، في كلّ الغابات التي طوّف فيها أو قرأ عنها، كانوا مثله تمامًا، يردّون الشرور والآثام التي تُرتكب في غاباتها إلى عدوّ بعينه، هو الذئب الأسود، هذا الذي يطارده، وسيظلّ يتربّص به إلى أن ينال منه مقتلاً!

الصعوبة في هذه المطاردة أنّ الذئاب السود تنتقل من غابة إلى غابة، بطريقة ماكرة لا يستطيعها الصيّادون، فلكي تظلّ هذه الغابات متفرّقة، متنافرة، مختلفة على الحدود في ما بينها، متحاربة أحيانًا، من أجل ذلك أنشأ المستعمرون، قبل أن تستقلّ الغابات، خنادق عريضة، عميقة، ملأى بالماء، كما كان يفعل بناة القلاع قديمًا لتسوير قلاعهم، ولا يمكن القفز فوق هذه الخنادق أو السباحة لاجتيازها، لأنّ على طرفي كلّ خندق مخافر وحرّاسًا، يضبطون من يحاول ذلك، وبعد التحقيق والسجن، يردّونه على أعقابه، إذا لم يكن حاملاً جواز مرور، موقّعًا، بحسب الأصول، من دوائر النمل وأجهزتها، وهي كثيرة. . وعبثًا عُقدت المؤتمرات، وتتابعت الاجتماعات، بين رؤساء النمل، لردم هذه الخنادق وإلغائها، ما دام إبليس، المقيم وراء البحار، لا يوافق، ولو بطريقة غير مباشرة على هذا الإلغاء، المضرّ بمصالحه، ولا يوافق عليه أيضًا المنتفعون من التجزئة، الخائفون من وحدة هذه الغابات.

مع ذلك، ومادام هناك مسارب للذئاب السود، فلابدّ أن

تكون هناك مسارب للصيّادين، وإلاّ لما قال الصيّاد بشير، صاحب الحكمة والخبرة، «على جميع الصيّادين أن يتّحدوا» معيبًا الفرديّة التي كان دغمش، كغيره، يؤمن بها، جاعلاً منها السبب الأساس في الإخفاق المشين، العاجز عن قتل ذئب أسود واحد. «أن نتّحد على الذئاب، كما تتّحد الذئاب علينا، فذلك هو عين الصواب، وأن نبحث عنها، دون أن ننتظر أن تأتي هي إلينا، فذلك هو الصواب أيضًا!». الصيّاد أكرم، في الغابة المجاورة، سمع هذا الكلام من الصيّاد بشير، فأيقن أنّه يدعونا إلى ما ينفعنا، وأنّ دعوته التي سيوصلها إلى كلّ الصيّادين ستؤدّي إلى اتحادهم، وعندئذ يكون الكفاء في المعركة.. «ما هذا؟ إطلاق نار!؟ ومَن يطلق النار إلاّ على ذئب أو هدهد؟ بشير يحبّ الهداهد، يقول «إنّها معنا وترشدنا، وإنّ في ما تقوله نصائح لنا، نحسن صنعًا إذا أصغينا إليها وعملنا بها، وفي رأسها نصيحة الصبر، فلا نتعجّل الأمور، وإلاّ أصابنا اليأس واليأس حفرة، والحفرة قبر، ومَن ييأس يصير إليه».. لكن هذا الذي أطلق النار قريب من هنا، وإطلاقه على الأرجح في فراغ، فلو أصاب ذئبًا لعوى الذئب، ولو أصاب هدهدًا لسمع الجميع ضحكة الهدهد عليه».

نهض دغمش وبارودته في يده. أمسك بها في حالة إطلاق. كان واثقًا من مهارته في القنص، لكنّه بدلاً من قنْص ذئب قَنَص حجلاً على مقربة من نبع ماء؛ وسمع، غير مصدّق، حركة اغتسال مخلوق في الماء، باغته، ربّما، إطلاق النار على الحجل، فتوقّف عن الحركة، مبادرًا إلى

ستر صدره بقميص تناوله من على حافة النبع، صائحًا بصوت أنثوي:

ـ لا تقترب أكثر وإلاّ أرديتك قتيلاً!

سأل من وراء دغل:

ـ ولكن من أنتِ؟

أجابه الصوت الأنثوي:

ـ صيّادة ذئاب.. يا صيّاد الحجل!

ـ زميلة!

ـ ابتعد، إذن، بحقّ الزمالة، ريثما أرتدي ثيابي.

تظاهر دغمش بالابتعاد، لكنّه دار ووقف وراء دغل، يتنازعه شعوران: أن يكفّ عن التطلّع إلى حوض النبع كزميل، وأن يرى إليها عارية كرجل. كانت غاطسة في الماء، لا يدري أهي جالسة أو واقفة، وكانت ثيابها على صخرة، ينبع منها الماء صافيًا، ككل ينابيع الغابات، ويتدفّق إلى الحوض الذي تسبح فيه. دغمش كهل، تسرّب إلى جسمه بعض الونى، لكنّه ارتعش، انتفض، ما إن سمع صوت أنثى في هذه الغابة.. أحسّ بفحولته تستيقظ، وبإحساسه الجنسيّ يتفتّح، سائلاً بشبق يختلط مع الدم في عروقه كلّها! ماذا يفعل بهذا الشبق ذي الدبيب العذب والمعذِّب في آن؟ كيف يتصرّف وقد انشلّت قدرته على الحركة؟ هي امرأة، وهو رجل، وربّما كانت، كما راح يفكّر، ترغب في رجل كما يرغب الرّجل في امرأة. وفي مثل هذه الغابة، يتشهّى الجسد في رغبته لدى الاثنين،

يمّحي فارق العمر حتى ولو كان، تصبح العسيلة الظمأى، في الصلب المحروم، نداءً إلى المغامرة، مهما يكن الثمن! الخنى دعوة شهاء، دفعت ابنتي لوط إلى النوم مع أبيهما، مارستا الحبّ معه بعد السكر، كان هذا حرامًا في عرف الأرض والسماء، رغم ذلك صار، وجد العقل له تبريرًا في استمرار النسل، قَبِلَ الطرفان هذه التعلّة، استطاع لوط، وهو شيخ عجوز، أن يضاجع ابنتيه، أن يشبع رغبتهما إلى حدّ الارتواء. ومع الارتواء كان الحمْل. ابنتا لوط حملتا من أبيهما كما تقول الأسطورة.. الموقف هنا يختلف، الحرام ينتفي. لا هو أب لهذه الأنثى ولا هذه الأنثى ابنة له، فلماذا الحرج إذن؟

وسْوَسة الشيطان هذه انتصرت على نهي الملاك. دغمش لم يفكّر بشيطان أو ملاك، كان بعيدًا، في ذهنه، عن مثل هذا التفكير.. الشهوة أعمته وربّما، قال في تفكير رغبي: «أعمتها هي أيضًا». صيّاد وفريسة، صيّادة وقنّاص، ما تبقّى هراء. كلاهما، في هذه الغابة، من نسل بشري: ذكر وأنثى! الذكر خلق للأنثى، الأنثى خلقت للذكر، هذا قانون! الطبيعة البشريّة أوجدت هذا القانون، فعلام الارتفاع عليه؟ علام مخالفته بدافع الخوف؟ هل يليق بالصيّاد أن يخاف؟ هل يليق بالصيّادة أن تخاف؟ محال! الخوف هنا من الحرام، من عدم وجود عقد للنكاح، لكنّه لن ينكحها إذا هي عارضت، هذا يسمّى اغتصابًا، فعلاً لا يقوم على الرضى. فإذا كانت راضية، كما هو راضٍ، كان الرضى المتبادل بمثابة عقد بينهما، عقد بغير طقوس، لظروف اضطراريّة، والاضطرار

ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات. لذلك فإنّ دغمش، في وطئه هذه الأنثى التي لا يعرف اسمها بعد، لا يرتكب فريّة، يقوم بعمل شرعي، وبكلّ المقاييس. . والتردّد، بعد هذا كلّه، لم يبق له مجال، والزمالة التي بينهما مرعيّة الاحترام، موفورة الكرامة!

رئيفة، من الجهة الأخرى، كانت تبترد بماء النبع. تجلس، تقف، تحرّك أطرافها، تشعر بسعادة غامرة. فأن تكون في هذه الغابة، وفي هذا النبع، يلفّها صمت مهيب، ساحر، وسط طبيعة خلاّبة، تعزف، بطريقتها الفاتنة، موسيقى مهدهدة للحواسّ إلى درجة الخدر، فإنّه شيء رائع! فوق هذا كانت تمرّر، بين فينة وأخرى، راحتيها على جسمها البضّ، الأملس، وبأصابعها تداعب، بعفويّة، هذا المكمن للذّة أو ذاك، أو تضع كفّيها تحت ثدييها، فترفعهما إلى أعلى، إلى ما فوق الماء، ناظرة إليهما بإعجاب، متشوّفة لأنّهما كاعبان، متكوّران، على غير ضخامة وغير ضمور أيضًا، كلّ منهما يملأ الكفّ ولا يزيد، وحلْمتاها بلونهما الوردي يبرزان كمنقاري حجلين برّيين!

ولم يكن دغمش، من مكمنه وراء الدغل، يرى إلى هذا كلّه، كان يرى الجزء، والجزء لا يغني عن الكلّ، وبانتظار أن تخرج من الماء، أو أن يمسح جسمها كلّه بنظراته النهمة، راحت غلمته تأتلق بتواتر متصاعد، ناسيًا الذئب الأسود وسلالته، منصرفًا بكلّ حواسّه إلى هذا الذئب الأبيض، المورّد الساعدين، حين ترفعهما فوق الماء، فيرى إلى بضّة الزندين، استدارتهما، طولهما المتناسق، ويجنّ من

شوق إلى الاندفاع، خارجًا من مكمنه ومن أفكاره، ومن كلّ الاحتراز الذي يلجم صبره عن النفاد، راغبًا، بضراوة، أن يلحق بها قبل أن ترتدي ثيابها، كيلا يضطر إذا لبستها إلى تمزيقها، إلى تعريتها وافتراعها عنوة إذا قاومت!

خوفه الوحيد، اللاجم لحركته، كان مصدره الصيّاد بشير، هذا الذي يطوّف في الغابات، مطاردًا الذئاب السود، ساعيًا إلى توحيد الصيّادين الذين يطاردونها معه، فلو علم بشير بفعلته، وأنّه اعتدى على امرأة خرجت لتصطاد الذئب الأسود مثله، لكان جزاؤه الموت، كي يكون عبرة لغيره. وكي يتفادى هذا المصير البائس، المخجل إلى درجة الهلاك، فإن دغمش تعقّل، لاذ بالوقوف مكانه، آثر أن يكتفي، دونما حركة، بالنظر إلى الجسم العاري حين تخرج من الماء، ضاغطًا على مشاعره التي تعوي، مستجلبًا بفعل التجربة خاطرًا تاه عنه، مؤدّاه أنّ المرأة لا تنال بالقوّة وحدها، وإنّما بالمكايسة معها. فإن يكن قويًّا، فالقوّة تولد العنف، والعنف يولد الطيش، وهذا قد يدفع هذه الأنثى إلى المقاومة، وإلى إطلاق النار، أو تتبادل الإطلاق معه إذا تمادى، وعندئذ يخسرها ويخسر نفسه، يموت ميتة الكلاب، أو يجعلها، هي أيضًا، تموت على هذا النحو، يدخل سلك الجريمة، من الباب الواسع عند الدخول، الضيّق كخرم الإبرة عند الخروج! «لا، فكّر، عليّ ألاّ أكون أرعن، وإلاّ أضعت كلّ شيء!».

انتظر.. انتظر.. طال انتظاره. نبتت للانتظار أظافر مسنّنة. أدمت جسمه الأظافر المسنّنة. كاد ييأس، يقوم بحركة تجعلها تجفل فتخرج من الماء. استغرب أن تكون

لماء النبع هذه العذوبة، أن يكون جسمها قد استسلم لهذه العذوبة، أن تكون قد نسيت أنّها في مهمّة، ندبت نفسها، متطوّعة، لها، في مطاردة الذئب الأسود وقتله، ألاّ تخاف، وهي وحيدة في هذه الغابة، من ورود أيّما وحش مفترس ليشرب، فتعاوده طبيعته الافتراسيّة وينقضّ عليها! في هذه الحال، يكون عليه أن يقتل هذا الوحش، لكنّ الوحش، إذا رأى هذا الجسد الآدميّ العاري، قد تفارقه وحشيّته، يصبح أنيسًا، لطيفًا، مدجّنًا بمفاتن ما يرى، مثله هو بالذات، بعد أن انقلب من رجل تهيّجه الشهوة، إلى شبه رجل فارقته الشهوة، إلى إنسان يكتفي، بعد أن أصابه «الإخصاء» بالاستمتاع بالرؤية وحدها، موقنًا، في تحوّله، أنّ المرأة وحدها، مَن في وسعه، أن يحوّل وحشيّة السلوك إلى إنسانيّته، أن يلجم اندفاعة الناب عن النشوب في اللّحم الحيّ، المشتهى جدًّا، لاويًا هذا الناب ليًّا عجيبًا!

فجأة حدثت المعجزة، التمعت الجوهرة في وهج الشمس المتبقّعة، المتساقطة من بين أوراق الشجر، دوائر غير ثابتة على الأرض، حدثت الرؤيا الموعودة، المتجسّدة قوامًا أنثويًّا حقيقيًّا أمام ناظريه.. لبث دغمش حيث هو، وراء الدغل، بغير حراك، متمليًّا بنظرة شاملة كلّ هذا البهاء النضر، المنضّر بالتناسق العجيب، كأنّما نحت بإزميل نحّات ماهر، فلا نتوء فيه ولا عوج. كانت رئيفة تدير ظهرها له، تمسح الماء عن صدرها وساعديها بغير تسرّع ولا إبطاء، ترد شعرها إلى وراء وهي تعرض جسدها للشمس في وقفة متأنّية، كأنّما تستثير الشمس كي تسطع أكثر لتنسكب أشعّتها عليها، فتلحس، كما

في الخيال، البلل وتجفّفه، بينما دغمش يثبّت نظره على الرابيتين، المدوّرتين، المكتنزتين بلحم فتيّ أبيض، مورّد، المرتكزتين على ساقين مسكوبين بقالب أناقة مثلى، مبرومين بإتقان، ينحدران إلى الركبتين انحدارًا فيه انسجام، فيه حياة جنسيّة ثرّة، كامنة في داخل الركبتين، مع انسياب محسوب بالبيكار إلى ما تحت، إلى حدود القدمين الحلوتين اللتين تمشيان على روح الرائي، والشعر الذي جفّ مسترسلاً على الظهر، يغري باللّمس، بالتمسيد، بالمداعبة. . ومن كل هذا المنظر ثمّة استدلال على أنّ صاحبته، تعدّ نفسها جيّدًا للذهاب إلى فراش الرّجل الذي مهّد مضجعه، وبات في لهفة إلى اللحظة التي تقبل فيها، مدلّة مغناجًا، لتستلقي على الفراش الممهّد، حيث ترنّ الضحكات الصغيرة، وبعدها تنطلق الصرخات المتأوّهة، من حلاوة الروح واللّذّة!

دغمش، كرجل شرقي، فقد السيطرة على أعصابه. انهار مشلول القدرة على أيّما فعل. إنّه قاتل، ضُبط بالجرم المشهود في مكان القتل ذاته، فلا مهرب له ولا هو بمستطيعه. أغمض عينيه مفكّرًا، محتارًا، متأرجحًا بين أن يهاجم، وليكن ما يكون، أو يتمهّل ريثما يجد المخرج الأنسب في الوصول إليها. . ودون إرادة منه، أطلق عيارًا في الفراغ، فأجفلت رئيفة، صاحت وهي تختفي وراء دغل وارف الخضرة، وثيابها بيدها:

ـ ليس هذا من الشهامة إن كنت رجلاً!

ـ . . .

ـ أطلقتَ على ذئب أم حجل!؟

ـ . . .

ـ أَنهيت لبس ثيابي فابرز إليّ إن كنت شجاعًا!

تردّد دغمش في البروز، زعم، في المرّة الأولى، أنّه أطلق على حجل، فهل يزعم، في هذه المرّة أيضًا، أنّه أطلق على حجل؟ وماذا بشأن الذئب الأسود إذن؟ قالت له إنّني زميلة، فابتعد بحقّ الزمالة. خان الزمالة ولم يبتعد. لم يكن في وسعه أن يبتعد. رجل شرقي هو، وفي الشرق قلّما تتاح لرجل أن يرى امرأة عارية غير زوجته، وهذا مفهوم وغير مفهوم في آن. وقد حدث ما حدث، إصبعه هي التي ضغطت على الزناد، إصبعه هي التي عابت، فهل يقطعها؟ يرتكب، بذريعة الغيرة على الشرف، ما يرتكبه، ولو على الظنّ، مدَّعو الغيرة على الشرف؟ يضيف إلى رخاوته، أمام جسد امرأة، رخاوة في حقّ الزمالة؟ يدّعي أنّه ابتعد فيكذب، أم يصارحها بأنّه لم يبتعد فيصدق؟ وإذا كذب، فهل تصدّق كذبته؟ لن تصدّقها! المرأة حسّاسة جدًّا، وبحساسيّتها تعرف، والويل له من بشير، إذا عرف بشير أنّه خان حقّ الزمالة! قتْلُ الذئب الأسود يحتاج إلى اتحاد الصيّادين، فماذا بشأن الصيّادات؟ لا بدّ من وجودهنّ، لا بدّ من مساعدتهنّ، ولا بدّ من اتحاد الجميع، رجالاً ونساءً. فماذا فعل هو، مع أوّل امرأة زميلة التقاها؟ كان عليه أن يظلّ قدوة حقّ، فإذا هو قدوة باطل. ولا بدّ من الاعتراف والاعتذار، وطلب الصفح.

صاح من مكمنه وراء الدغل:

ـ لقد أخطأت، ومنك العفو. إنّني أدعى دغمش.

أجابه صوت:

ـ وأنا أدعى رئيفة.. فاقترب من النبع لأراك.

ـ سأقترب على شرط.. أن تطلقي عليّ النار.

ـ لتنتحر على يدي!؟

ـ لأكفّر عن خطيئتي!

ـ الناس يخطئون.. نحن، بعد كلّ شيء، بشر. وسأفترض أنّك رأيتني في الماء، وأنّك، كالرّجل الشريف، ابتعدت عندما رأيتني أبترد في الماء، وبدل اصطياد الذئاب السود رحت تصطاد الحجل، يعني نسيت واجبك!

قال دغمش:

ـ أعترف!

ـ نحن لسنا في كنيسة، وأنا لست بكاهن حتى تعترف لي وترتاح.. لماذا أنت ضعيف إلى هذا الحدّ؟

ـ لأنّني.. كيف أقول؟ الأفضل ألاّ أقول..

ـ أعرف ما تريد أن تقوله.. أنت رخو كالخرقة المبلّلة. لماذا أنت رخو كالخرقة المبلّلة؟

ـ لأنّني.. لأنّني.. والباقي تعرفينه!

أضاف دغمش بعد إطراقة:

ـ إنّني نادم.. نادم بأكثر ممّا تتصوّرين.

قالت رئيفة بتقريع:

ـ كان عليك ألاّ تخطئ حتى لا تندم.. الإنسان العاقل

لا يضع نفسه في مأزق يدفع ثمن الخروج منه. هذا من البدهيّات التي كان عليك ألاّ تغفل عنها.

ـ نعم! هذا من البدهيّات، ولكنّ الحقّ على مَنِ؟ عليّ أم على النبع؟

ـ عليكَ!

ـ على النبع!

فكّرت رئيفة بخبث وقالت:

ـ هذه مغالطة، هذا كلام خبيئ.. النبع ماء، وماذا ارتكب النبع من إثم، حتى تحمّله الوزر؟ أنت، يا دغمش، جبان، كن جريئًا وقل «الحقّ عليكِ أنتِ»، وعندئذ أفهمك، وقد أعذرك، ونتكلّم على ما هو أهمّ، على الذئب الأسود الذي نطارده.

ـ نعم! الحقّ عليكِ، وأنت تفهمين، لماذا كنت عارية في ماء النبع؟

ـ كي أبترد!

ـ وإذا كان ابترادك، على هذا النحو من العريّ وهذا النحو من الجمالِ، يلحق الضرر بالآخرين!؟ ستقولين الضرر يأتي من النظر، لماذا نظرتَ إليّ وأنا في الماء؟

لماذا اختسلتَ رؤيتي كلصّ وأنا عارية؟ وجواب هذا بسيط: لأنّك فاتنة مكتسية، فكيف وأنت دون كساء؟ أنا لست لصًّا، لم أقترف السرقة في حياتي، لكنّني اليوم فعلتها، إذا كنت تعتبرين النظر إليك في ماء النبع، وفي هذه الغابة، وفي مثل هذا الصمت الشاعري، سرقة، فقد سرقت.. فعاقبيني،

وليكن عقابك قاسيًا، متكافئًا ونذالتي، ليكن الموت، لأنّني، ما دمت حيًّا، سأظلّ أنظر إليك، وهذا قدري!

ـ والزمالة التي بيننا؟

ـ ستبقى زمالة كريمة.. أنا لن أغتصبك، وبرهاني أنّني لو شئت ذلك لفعلت!

ـ وتستطيع!؟

حدّق دُغمش بها مستثارًا، وقال:

ـ كفّي عن حرق دمي!

ضحكت وقالت:

ـ وإذا لم أكف!

ـ يكون بيننا موت.

سألت مغناجًا:

ـ من أيّ نوع؟

تمتم بغير إرادة:

ـ أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق.. أعوذ بالله منك، وأعوذ به من فتنتك، اغربي عن وجهي!

ضحكت مقهقهة، ردّت شعرها إلى وراء، مسّدت بنطلون الجنز الذي تلبسه، أصلحت من فتحة بلوزتها ناصعة البياض، تناولت بندقيّتها وقالت:

ـ ما أرعن الرّجل حين يوشك أن يفقد أعصابه.. أين الحجل الذي اصطدته؟ كن عاقلاً وفكّر بهدوء: مهمّتنا، أنت وأنا، أن نقتل الذئب الأسود، وإلى أن نظفر به لا بدّ

من الطعام، هل لديك طعام؟ لا؟ لديّ منه ما يكفي، هيّا نعدّ طعامنا، لنشوِ الحجل وبعض الطيور التي اصطدتها، ونأكل هنا قرب النبع.

قال دغمش بجزم:

ـ لا! ليس قرب النبع!

ـ وبماذا أساء إليك النبع؟

ـ ليس قرب النبع، ودونما شرح.

ـ تخاف أن ترى صورتك في مائه؟

ـ قلت دونما شرح!

ـ كما تريد، ولكن.. أنا لست أمام مجنون، أليس كذلك؟

ـ طبعًا لستِ أمام مجنون، غير أنّك أمام إنسان نسي كلّ شيء إلاّكِ.. جمالك أنساني حتّى قضيّتي الكبرى: ما يجري من هول في البقعة المجاورة!

قالت رئيفة:

ـ تقصد ما قاله الصيّاد بشير لأكرم؟

أضافت:

ـ قصّ عليّ أكرم كلّ شيء.. إنّه تقرير سياسي مرعب، فيه كلّ التفصيلات عمّا يجري في البقعة المجاورة.. هل تعرف ما قاله المتنبّي؟ لا؟ إذن أنا أقوله لك:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسَرّهم وأتيناه على الهرمِ

تقلّدتني الليالي وهي مدبرةٌ كأنّني صارم في كفّ منهزمِ

أضافت:

نعم! صارمٌ في كفّ منهزم، هذه حالنا في القلاع والغابات معًا.. نحن، أنتَ وأنَا والآخرون، نطارد الذئب الأسود، لماذا؟ لأنّه أصل البلاء! وقد اختزلونا كما قال الحكيم بشير.. نحن مختزلون، هل تفهم!؟

ـ أفهم! قال دغمش وهو يقترب، هناك اثنتان وعشرون غابة، وهناك اثنتان وعشرون نملة، فقط لا غير، كما بلغني.. ماذا بيدنا مع هذا الاختزال؟ لا شيء.. لنتعلّم أن ننسى.. هذا هو، أن ننسى!

ـ لا! ردّت رئيفة، أن نتذكّر.. إنّنا لا نستطيع إلاّ أن نتذكّر، هذا قدرنا.. ولكن «لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر»، الآن، يا دغمش، وقت إعداد الطعام.. أشعل النار، أشعل النار، وبقوّة، حتى لو احترقت الغابة!

- ٤ -

كان اسمه فجر دغمش، واختصارًا كانوا ينادونه دغمش، وكان صيّادًا ماهرًا قد جرّب القنص وأتقنه، واحترفه لفترة، وخرج مع مَن خرجوا لمطاردة الذئاب السود وقتلها. كان في بداية الستينات من عمره، ولايزال يملك عزم الشباب وهمّته، لكن أصدقاءه ومعارفه يعتبرونه كهلاً، ولم يجد ضيرًا في ذلك، مصمّمًا، في سريرته، على أن يكون أوّل مَن يصطاد الذئب الأسود.. وفي هذا إثبات على احتفاظه بقوّته، وردّ مفحم على الصيّادين الآخرين الذين يمازحونه قائلين: «راحت عليك يا دغمش، عد إلى بيتك واسترح، مادام قتل الذئب الأسود يحتاج إلى فتوّة الشباب!»، فيسمع ويبتسم بإشفاق على أولئك الذين يجهلون ما يعرف من طرق مطاردة الوحوش الكاسرة واصطيادها.. «إنّها الخبرة!» كان دغمش خبيرًا، مجرّبًا، جريئًا، محكم التصويب، بينما الآخرون، الشباب خصوصًا، تنقصهم هذه الخبرة، ويُشكّ في إحكامهم التصويب. هذا بالنسبة للرّجال، فكيف الأمر إذن مع النساء؟ ثم مَن هو الذي استنفر النساء للمشاركة في الحملة على الذئب الأسود؟ الصيّاد بشير كان محقًّا في الدعوة إلى استنفار الفقراء.. هؤلاء أصحاب مصلحة في قتل الذئب الأسود الذي يأكل رغيفهم؛ لكنّ المقصود

بذلك، كما يرى دغمش، الرجال فقط، إلاّ إذا كان للصيّاد بشير رأي آخر، توصّل إليه في جولاته على الغابات، لذلك استدعى النساء للمشاركة وزوّدهنّ بالبنادق والرصاص؛ وفي هذه الحال، يكون في دعوته لهنّ حكمة ما، وحكمة ما في تقريره السياسي عن «البقعة الملتهبة».

هتف هدهد من فوق غصنٍ وراءه:

ـ نعم يا دغمش، هناك حكمة ما، لا يدركها عقلك القاصر، حكمة في القول إذا ما اقترن بفعل.

أضاف هدهد آخر:

ـ الطير لا يحلّق إلاّ بجناحين.

تابع ثالث:

ـ بجناحين متساويين، وهذه حقيقة. ولكن ماذا تعني هذه الحقيقة؟ أن تكفّ عن اعتبار المرأة جسدًا ليس إلاّ.. أن تغيّر نظرتك إلى رئيفة، كما يغيّر، وجوبًا، جميع الرّجال نظرتهنّ إلى كلّ الرئيفات مثلها.. التعاون في مطاردة الذئب الأسود، ومحاصرته، وقتله، هو الهدف، ولا شيء غيره! هذا ما يبشّر به الحكيم بشير، ويصرُّ عليه مدركًا العلاقة بين ما يجري في «البقعة الملتهبة» وبين الذئاب السود التي يطاردها.

ـ والحبّ؟ سأل دغمش.

ردّ الهدهد:

ـ لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر. هذا ما قلناه، وما كان يجب أن تحفظه أنت!

ـ لم أفهم!

ـ ستفهم مع الأيّام.

ـ الحبّ غير ممنوع، في أيّ مكان، ولا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا من الحبّ. . هذه شريعة الكون! الحبّ شريعة الكون، كما قرأنا في القصص والروايات.

ـ إنّما بالرضى المتبادل!

ـ هذا صحيح. . بالرضى المتبادل تمامًا.

ـ وأن يكون الحبّ حبًّا وليس شهوة.

ـ وما الفرق؟

ـ ستعرف ذلك لاحقًا.

ـ الحبّ لا ينفصل عن الشهوة. .

ـ يأتي تاليًا ما تسمّيه شهوة. .

ـ أنا لست مجنون ليلى!

ـ انتظر وستكونه، ستُجنّ بدورك يا دغمش.

ـ أنا واثق من عقلي.

ـ كلّ المحبّين الذين جنّوا كانوا واثقين من عقولهم قبل الجنون.

ـ ولكنّ الأمر لم يكن بيدهم. . الحبّ ضربة قدر!

ـ وهل تظنّ أنّها أصابتك؟

ـ منذ رأيت رئيفة عارية في النبع!

ـ ورئيفة قالت لك: «أنظر إلى صورتك في النبع!»

ـ القبح لا علاقة له بالحبّ!

ـ تعرف، إذن، أنّك قبيح؟

ـ أعرف أنّني رجل!

ـ نصيحة! لا تعتدّ كثيرًا برجولتك وحدها، لئلاّ تندم.. إلى اللّقاء!

طارت الهداهد.. طارت بعد أن حذّرته من الندم. الاعتداد بالرجولة وحدها، حتّى في زمن الشباب، غير مستحسن. فكيف ودغمش في الكهولة؟ عليه أن يعقل، أن يفهم أنَّ رئيفة زميلة، صيّادة مثله، وأنّ هدفها من الخروج إلى الصيد مطاردة الذئب الأسود، لا الغزل ولا الحبّ، ولا الاستجابة إلى ما يفسد عليها هدفها، ويفسده على دغمش نفسه. وهذه الحال تنطبق على جميع الصيّادين والصيّادات، في الغابات الاثنتين والعشرين، وسيكون موضع مساءلة وملامة وعقاب إذا تمادى، إذا لم يرعوِ ويكفّ عن جنونه المثار بالشهوة وحدها، لأنّه أبصرها عارية، تستحمّ في النبع الذي هو ملك الغابة لا ملكه، وقد فعل ذلك متلصّصًا، من وراء دغل، رغم تحذيرها له، ونهره بقوّة كي ينصرف بعيدًا عن المكان الذي هي فيه! إنّ فعلتك حماقة يا دغمش، أيّها البائس!

فكّر دغمش بعد أن طارت الهداهد: «ماذا أفعل الآن؟ أقتفي أثرها أم أدعها تذهب وشأنها؟ أُظهر لها، بأكثر ممّا فعلت، انجذابي نحوها؟ رغبتي في البقاء إلى جانبها أو قريبًا منها؟ أقوم أدور في هذه الغابة بحثًا عنها؟ أمكث إلى جانب النبع حتّى تعود إليه؟ وهل تعود؟ وإذا لم تعد؟ إذا وجدت نبعًا آخر للابتراد من الحرّ؟ أتعلّل بالأمل، أم أيأس فأستريح؟ هي، رئيفة، أبدت رضى وأنا أمتدح جمالها، أبدت ما هو أكثر حتى من الرضى، فماذا يعني هذا؟ غنج

أنثى؟ غنج لوجه الغنج؟ سبر طاقتي على الاحتمال؟ اللعب بي؟ الضحك عليَّ؟ اللامبالاة حيالي؟ عدم الخوف منّي؟ استدراجي للتعلّق بها، ثمّ البعد عنّي؟ إبداء القبول، وبعد القبول الصدّ؟ كلّ شيء جائز لولا فارق العمر. كلّ شيء محتمل لو لم أكن قبيحًا وهي على هذا البهاء. يا إلٰهي! لماذا خلقتني قبيحًا؟ وخلقتها على مثل هذا الجمال؟»

كان دغمش يخشى أن ينظر في ماء النبع، أن يرى صورته فيه، ولأنّ هذه الخشية تحوّلت إلى عقدة نفسيّة، قرّر أن يحلّها خلاصًا منها. ذهب إلى النبع، حدّق في مائه، رأى صورته التي يعرفها جيّدًا. لم يكن على ما تصوّر من قبح، إنّه ليس بمليح، إلاّ أنّ الرّجل لا يحتاج إلى الملاحة كالمرأة. اطمأنّ دغمش قليلاً، تبدّدت وساوسه، ومعها همومه، تعزّى قليلاً، تطلّع حواليه في الغابة، لم يكن ثمّة أحد. . السكون مرين بشكل مهيب، ومن حين إلى حين يحرّك طائر أوراق الشجر، أو يسقط كوز صنوبر يابس على الأرض، وبفعل الحرارة ينتشر عطر الصنوبر فيفعم الجوّ، أمّا الوحوش فلا أثر لها حتّى الآن. . هذه تتجوّل في الشتاء، إبان الثلوج، بحثًا عن طعام، فإذا لم تجد فريسة وتضوّرت جوعًا، تهاجم القرى، تقتحم أسيجة الحدائق وأبواب البيوت، يدفعها حسّ الشميم إلى تتبّع آثار الإنسان، الأطفال خصوصًا، من دون ارتداع سوى بإطلاق النار عليها، من قِبَل الرجال المسلّحين الذين يقتلونها، أو يجعلونها تفرّ عائدة إلى الغابة، وهي تعوي ألمًا من أثر جرح، أو ترسل العواء نداء إلى أبناء جنسها، وأشرس هذه الوحوش وأشدّها اقتحامًا الذئاب. ودغمش يعرف هذا، وقد

هاجمته الذئاب ذات شتاء، لكنّه ردّها عنه بإطلاق النار عليها. ويحدث، من شتاء لآخر، أن يقتل ذئبًا، فيذبحه ويسلخ جلده بتأنٍّ، حَذَرَ أن يتمزّق بحدّ السكّين الرهيف، وبعد تمليح هذا الجلد وتجفيفه جيّدًا، يبيعه في المدينة، لأنّه مطلوب كفراء، مطلوب مثل جلد الثعلب أو السمّور أو النمس، لزينة النساء أو بيوت الأغنياء. ويُعدُّ هذا الصّيد مهنة بالنسبة للصيّادين المحترفين، وقد عجب دغمش لأنّ الذئاب كلّها، أو كلّ التي رآها أو اصطادها، صهباء اللون، ولم يصادف، حياته كلّها، ذئبًا أسود بينها، الذئب الأسود نادر غالبًا، أو غير موجود أصْلاً، إنّه وهم، إنّه رمز لشيء ما سينكشف يومًا، بحسب التلميحات التي سمعها من الحكيم.

خلع دغمش ثيابه، وضعها على مقربة، فوق الصخرة التي يجري من تحتها ماء النبع، وضع البندقيّة والرصاص عند حافة الحوض الذي نزل إليه، غاطسًا في مائه العذب الصافي، مرّة ومرّة، قبل أن يسبح واقفًا، محرّكًا رجليه ويديه فقط. فجأة تعالى هسيس بين أوراق الدغل القريب، أنصت، حدّق جيّدًا، داوم الإنصات والتحديق، لم ير في الدغل إنسانًا أو حيوانًا، غاضت الفرحة التي طفت على السطح من داخله، كان يأمل أن تكون رئيفة تتلصّص عليه، كما فعل هو عندما كمن وراء الدغل، لكنّها لم تكن هي، أو أنّها تتخفّى جيّدًا كي لا يراها، رغم أنّ بينهما صداقة، وأنّها تلذّذت بلحم الحجل الذي اصطاده.

من جديد عاوده التفكير فيها، وشيئًا فشيئًا صار تفكيره أشبه بالعصاب، على انزياح قليل من نقطة الحبّ أو الشهوة

«إنّها زميلة فقط، زميلة لا غير!» وقد عاملها على هذا الأساس، منذ وافقت أن يأكلا معًا، وساعدته في شيّ الحجل الذي اصطاده، والطيور التي اصطادتها هي، وتذوّق بشهيّة ما معها من طعام، صار بينهما خبز وملح، وهو لا يخون الخبز والملح، محال أن يفعل ذلك الآن أو في المستقبل، أمّا بعد اصطياد الذئب الأسود، إذا ما كان هناك ذئب أسود حقيقة، فسيكون لكلّ حادث حديث.. وهذه الكياسة التي أظهرها، خلال الطعام وبعده، عند تبادل الكلام في شتّى الأمور، وجدت فيها رئيفة ارتياحًا، طمأنينة، نوعًا من ثقة في احترام الزمالة التي تجمعهما، وقد أخبرته، في جملة ما أخبرته، أنّها تعرف الصيّاد بشير، وهي معجبة شديد الإعجاب بحكمته، برصانته، بتصميمه على قتل الذئب الأسود، بدعوته إلى اتحاد الصيّادين، وضرورة وجود صيّادات في هذا الاتحاد.. وهي معجبة بفهمه الجيّد لما تقوله الهداهد، وبقولها «للظلم يوم وللمظلوم يومان» خصوصًا، كما ترامى إليه أنّ الهدهد طير مبارك، وأنّه تقدّم قافلة سليمان الحكيم في مسيرتها نحو سدّ مأرب في اليمن، حيث كانت تحكم الملكة بلقيس، وأنّ الهدهد هو الذي كان يكتشف، بحاسّة غريزيّة، منابع الماء ويدلّ القافلة عليها، وفق رواية رئيفة. ولأنّه يصدّق روايتها كلمة كلمة، فقد اعترف بها، مع ندم حقيقيّ، بأنّه أطلق النار أكثر من مرّة على هذه الهداهد ليقتلها، لأسباب عديدة، منها دعوتها إلى الصبر، لأنّه هو، دغمش، يكره الصبر ولا يطيقه! «نعم! إنّني أكره الصبر يا رئيفة».

سألته رئيفة:

ـ هل أنت جادّ، يا دغمش، بأنّك أطلقت النار على الهداهد، وأنّك نادم على ذلك؟

ـ كلّ الجدّ يا رئيفة، وقد أعاود، رغم ندمي الآن، إطلاق النار عليها.

ـ وتحسب أنّك تستطيع قتلها؟

ـ بالبارود وليس بالرصاص.. سأحضر جفتًا محشوًّا بالبارود لهذه الغاية.

ضحكت رئيفة وقالت:

ـ هذا هبل يا دغمش، الهدهد غير عصفور الدوري.

احتجّ دغمش:

ـ هبل! تقولين: «هبل»!؟ تظنّين أنّني لا أفرّق بين الهدهد والدّوري؟ أنت لا تعرفين مهارتي في التصويب، وفي القنص أيضًا.. كنت قنّاصًا محترفًا!

ـ في تلك الحرب الأهليّة القذرة؟

ـ نعم فيها!

ـ ولا تخجل من المجاهرة بذلك.

ـ ولماذا أخجل؟ كان القتل شغّالاً، ودون تمييز.. إنّها الحرب، وماذا يفعلون في الحرب؟ يتصافحون؟ يقبّل الأعداء بعضهم بعضًا؟

اربدّ وجه رئيفة من غضب، حين استعادت أحداث تلك الأيّام الدامية، الأيّام التي قتل فيها الناس بعضهم بعضًا على

الهويّة، الأيّام الملعونة التي طالت وطالت، وباضت وفرّخت مجرمين، والتي بَعُدَتْ الآن، إلاّ أنّها خلّفت وراءها الذئاب السود. . ترى يعرف الصيّاد بشير قصّة دغمش هذا؟ اعترف له بما ارتكب؟ قال له إنّه جاء يطارد الذئب الأسود تكفيرًا عمّا ارتكب من جرائم؟ غبي دغمش هذا، كلّ الذين كانوا على شاكلته أغبياء مثله، دفعهم الآخرون فاندفعوا، قَتلوا وقُتلوا نيابة عن الآخرين، هناك، في غابات أخرى، جرى، ويجري حتى الآن، ما هو أفظع، وبأسماء ولأسباب أخرى، إنّه التعصّب الأعمى، إنّها الفتنة الكبرى، وهذه ذيولها: ذئاب سود!

قال دغمش في شبه أسف:

ـ ما جرى قد جرى يا رئيفة. . إنّني لا أفاخر بما صنعت، بل بما أفدت من حرفة، أضعها الآن في خدمة قضيّة شريفة: قتل الذئاب السود التي أوجدناها بأنفسنا. . إنّني مذنب، وأعرف ذنبي، لذلك طلبت منك، عند نبع الماء، أن تطلقي النار عليّ. . اطلقيها الآن قبل أن يفوت الأوان!

قالت رئيفة بأسى:

ـ وماذا ينفع حذف قنّاص، إذا كانت الدنيا ملأى بالقنّاصين!؟ الوضع، يا دغمش، أعقد وأسوأ ممّا تظنّ. . هذا ما سمعته من رجل شريف! هناك أعداء كثر: في الداخل، في الخارج، وفي كلّ مكان، وهناك أنذال بمثل عددهم وأكثر، فما العمل؟ كيف نطهّر غاباتنا؟ كيف نحرّك وجدانات القابعين في قلاعنا؟ بعضهم أصنام، عميٌ لا يرون، صمٌّ لا يسمعون، بكمٌ لا ينطقون، والقلّة منهم، التي

ترى، تسمع، تنطق، لا تقوى بمفردها على صنع ما يحتاج إلى إجماع. وهنا المشكلة، هنا العقدة، هنا البليّة الكبرى.. هل تفهم ما أقول؟

قال دغمش حزينًا:

ـ فهمت بعض ما قلت..

ـ وماذا فهمت من هذا البعض؟

ـ إنّني مذنب، وقد تبت على يدي بشير توبة نصوحًا.. فماذا بقي؟ أن أقتل الذئب الأسود؟ ثقي أنّني سأقتله.. صحيح أنّني بليد.. لكنّني..

قاطعته رئيفة:

ـ عند النبع، حين كنت ترى بعض أطرافي العارية، لم تكن بليدًا.. كنت متنبّهًا، نشيطًا، مدفوعًا بغريزتك المجنونة. غريزة الذكر حين يرى أنثى كما رأيتني.

اعترف دغمش:

ـ نعم! كان الأمر كذلك.. الغريزة أقوى ممّا تتصوّرين، وأين، بين الغرائز كلّها، غريزة أقوى من غريزة الجنس؟ إذا قدّرتِ هذا عذرتِ. إنّني أعرف، أنا أيضًا، بعض الطبائع.

ـ وبعد الذي سمعته منك.. قل أنتَ، بعد الذي سمعتُ وعرفتُ، كيف أقدّر وكيف أعذر!؟

ـ والتوبة النصوح يا رئيفة؟ ألا تشفع لي عندك؟

ـ لا تشفع!

ـ حتّى بعد أن شَفعتْ لي عند الصيّاد بشير؟

ـ ليس لي، ما للصيّاد بشير، من حكمة!

ـ لا علاقة للحكمة بالحبّ، بل إنّ الحكمة تقتل الحبّ.. إنّني أحبّك يا رئيفة، أحبّك حتى لو كنت على يقين أنّك لا تحبّينني..

ـ الحبّ، من طرف واحد، لا يكون.

ـ يكون يا رئيفة يكون.. إنّه ضربة قدر كما قلتُ شاكيًا للهدهد.

ـ وبماذا أجابك؟

ـ سألني «هل تظنّ أنّ ضربة القدر هذه قد أصابتك»؟

أجبته:

ـ وهل تسأل بعد كلّ ما أعاني؟

ـ واقتنع بجوابك؟ كن صادقًا وصريحًا يا دغمش.

ـ اقتنع بأنّني أشتهيكِ.

ـ وأنا مقتنعة بأنّك تشتهينني لا أكثر، وهناك فرق بين الحبّ والشهوة، فرق بين اشتهاء الجسد، وبين حبّ الرّوح.. لنغلق هذا الحديث، إنّني ذاهبة.

قالت رئيفة ذلك وذهبت. لم يعترض دغمش طريقها. تركها تذهب. بقي في مكانه ساكنًا. أراد أن يثبت لها حسن نواياه. الحبّ، كما قال الهدهد، بالتراضي يكون، بموافقة الطرفين يكون، وبانجذاب الطرفين، أحدهما نحو الآخر، يكون، وإلاّ لا فائدة.. القوّة تصنع اغتصابًا لا حبًّا. دغمش فكّر باغتصاب رئيفة، لكنّها أدركت ذلك بسرعة. حذّرته قائلة: «أنت لا تريد أن تموت، أليس

كذلك؟» وها هو، دون أن يغتصبها، يموت!

خرج دغمش من ماء النبع. نظر حواليه من جديد. الغابة ساكنة. سكون الغابة ملأَه. دخل جسده من أذنيه وعينيه وفمه وكلّ مسامّه. الغابة كلّها دخلت فيه، أحسّ بها، عاشها، أحبّها، كرهها، خافها، خاف الوحدة فيها، ارتدى ثيابه، سار نحو الدغل، الريبة في أنّ إنسانًا ما كان يختبئ فيه مجرّد ريبة. لا أحد في الدغل، خاب أمله لأنّه لم يجد أحدًا، جلس على صخرة النبع، وضع يده على خدّه من كدر وتفكير، احتار في أن يبقى مكانه، أو يطوّف في الغابة بحثًا عن الذئب الأسود، الذئب الأسود!؟ نعم الذئب الأسود، لا ليس الذئب الأسود. هناك ما هو أخطر: الذئب الأبيض! ذئبة رئيفة هذه وليست ذئبًا.. لكنّه، بدونها، وبغيرها، لن يصطاد شيئًا. لكي يكون الصيد، لا بدّ أن تكون هي، وهي لن تكون، وحتى لو كانت فما النفع؟ ماذا يقول لها.. بأيّة كلمات يعبّر عمّا به نحوها؟ يركع أمامها؟ يبكي؟ يتوسّل؟ يقبّل يديها؟ يقبّل قدميها؟ يعتذر لأنّه تلصّص عليها؟ يبدي ندمه لأنّه رآها عارية؟ ليته لم يرها عارية! «مصيبتك، يا دغمش، أنّك رأيتها عارية!».

ندمُ دغمش على ما رأى، جعله يعيش ما رأى ثانية. الندم لذّة! نندم على ما وقع، كي نستعيد ما وقع. أحبولة! نحن لا نستطيع إلاّ أن نندم، وعندما نندم نجد أنفسنا نفكّر بالذي نندم عليه، ولأنّ دغمش نادم فإنّه مستعيد، ومع الاستعادة ذهان، عدم قدرة على النسيان، على محو ما كان، وكل ما يتبقّى أن يستسلم للتفكير، والتفكير وقود الذاكرة، كلّ ومضة منه حطبة

جديدة في الموقد، ومع الحطبة الجديدة حرارة جديدة، نُحَرُّ، نُصاب بالحمّى، نهذي، نقوم بدفع نفسي، وننطلق.. نمشي ببطء، ببطء أقلّ، نحثّ الخطا، نحثّها أكثر، نسرع، نركض، يركض معنا الذي في داخلنا، نركض بقوّة أكبر، تركض نفسنا معنا بالقوّة نفسها. أين الخلاص؟ لا خلاص! نُجنّ؟ نقترب من الجنون، يأتي الجنون إلينا، يسكننا، ينام ويصحو معنا، يأكل من الصحن الذي نأكل، يشرب من الكأس الذي نشرب، لا مناص! المنعكس العقلي لا تأثير له في المنعكس العصبيّ، تتخرّب جملتنا العصبيّة، تتهرّأ أعصابنا، نفقد إمكانيّة السيطرة عليها، ندخل الحلقة المفرغة، ندور فيها، ومعها، كما يدور الراكب في دولاب كبير بمدينة للملاهي!

هكذا انسلّ إلى عقل دغمش مسّ شيطانيّ، يُعتبر الأقوى إذا ما قورن بالخيط الرفيع الباقي من انسلال القدرة على رباطة الجأش في النفس. ما به حبٌّ، حبٌّ حقيقيّ وليس شهوة، وضدّ هذا الحبّ عليه أن يكافح نفسيًا، فهل يستطيع؟ أين نقطة الضعف، وأين نقطة القوّة؟ وهل في وسع القوّة أن تنبثق ثانية من الضعف؟ وما دور الإرادة الواعية، حتّى لو كانت؟ حتى لو استعيدت؟ حتى لو كانت القدرة على صراع إرادة لاواعية ممكنة، وكان التغلّب عليها ممكنًا؟ الحبّ قضيّة، ولا انتصار على هذه القضيّة إلاّ بقضيّة مماثلة.. ودغمش نسي، في انسياقه بتيّار الحبّ الجارف، أنّ هناك قضيّة أخرى، هي الأصل وما عداها فرع، وأنّها السبب الذي من أجله وُجد في هذه الغابة، وإليها الرجعى، وإلاّ ظلّ يدور في دوّامة المسّ الشيطاني.. كان عليه، على دغمش، أن

يسأل نفسه: لماذا أنا هنا؟ وهذا السؤال، بقدر ما هو بسيط فإنّه معقّد، وقد حسب أنّه تحصيل حاصل، ولم يكن كذلك أبدًا.. إنّه الأساس!

نهض عن صخرة النبع، جال ببصره في الجهات الأربع، تناول بندقيّته، ذهب باحثًا عن رئيفة. انطلق من الحبّ في طلب الحبّ. ظلّ، على هذا النحو، في دائرة جنونه، بينما كان يحسب أنّه في تمام عقله، والعقل المرن، سارع في تبرير الفعل، صوّر لهذا الإنسان الضائع أنّ فعله هو الصواب، وأنّ عليه أن يبحث، في متاهة الخطأ، عن الخطأ نفسه، دون أن يفطن إليه، أو يعي أنّه خطأ ينبغي، إذا ما أراد الخلاص منه، أن يكفّ عن الإيغال فيه!

وبينما كان دغمش يمشي ويفكّر، أنشد هدهد من على غصن شجرة:

إنّ في الحسن، يا دليلةُ، أفعى كم سمعنا فحيحها في سريرِ

وهتف هدهد آخر:

والبصير البصير تضعفه أنثى فينقاد كالضرير الضريرِ

توقّف دغمش، صوّب بندقيّته وأطلق.. طارت الهداهد. قال في نفسه: «محال! هذا محال، رئيفة ليست دليلة، وأنا بصير بصير»، وللحال تشكّلت جوقة هداهد وهي تردّد:

ـ أيّها «البصير البصير» يا دغمش، إنّما أنت ضرير ضرير، لكنّك، مع الأسف لا تدري! نعم.. لا تدري!

رفض دغمش منطق الهداهد، سار وهو يصرخ بصوت عالٍ: «أنا أدري، وأدري، وأدري! رئيفة غير دليلة، هذا ما

أنا واثق منه، مؤمن كلّ الإيمان بصحّته!».

جاءته فجأة، من وراء دغل، قهقهة، فصاح:

ـ مَن هناك؟

برز بشير الصيّاد والضحكة لا تفارقه. اقترب من دغمش، غرز بصره في بصره، بنظرة ثاقبة سابرة، لكنّها غير مؤنّبة أو عاتبة، وضع كفّه ذات الأصابع الخشنة الطويلة القويّة على كتفه، وسأله:

ـ ما هذا الذي «أنت تدري» «أنت تدري!؟».

قال دغمش وقد استعاد رباطة جأشه أمام المفاجأة:

ـ رئيفة غير دليلة!

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ وأنت، يا دغمش، غير شمشون.. رئيفة لم تملّقك، لم تجتز شعرة الجبروت من رأسك، لم يربطك أعداؤك إلى عمود الهيكل، وتاليًا لم تصرخ مثل شمشون الجبّار «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ!» فيتقوّض الهيكل عليك وعلى أعدائك.. أنت قنّاص، ثمّ صيّاد، ثمّ عاشق.. ولكن من طرف واحد حتى الآن. أنت مخبّل، والخبل باب الجنون، وأنت متردّد، بين صحو وغَفَل. أنت يا دغمش مريض، ومرضك لذيذ، لكنّه أكثر من اللازم، لذلك أنت أضعف من اللازم، وحين تشفى من مرض الحبّ ستندم عليه، لا تستعجل الانتصار كيلا تقتله. هذه حكمة! والحكمة الأخرى أن تكون لك قضيّة، تؤمن بها وتكافح لأجلها. فالمرأة، صدّقني، تستهويها في الرّجل رجولته، ولكن أن تكون

الرجولة للخير لا للشرّ، أن تكون رجولته في شمائله، أي في أريحيّته، شجاعته، كفاحه لأجل قضيّة ما، لخيره وخير البشريّة. . هذه حكمتي ونصيحتي، فخذ بهما تفلح.

قال دغمش على استحياء:

ـ وتحبّني رئيفة؟

قال بشير:

ـ هذا متروك للأيّام. افعل أنت ما هو صواب، ودع الباقي للزمن.

- ٥ -

وعى دغمش النصيحة جيّدًا: العمل من أجل ما هو صواب، وترك حبّ رئيفة للزمن! إنّه مع الآخرين في الغابات، وقد امتلأت هذه بالصيّادين والصيّادات.. نجح بشير، الصيّاد الحكيم، في استنفار الناس المصابين بالفقر إلى حدّ الجوع، لمطاردة الذئب الأسود وقتله، وبذلك وحده يسلم رغيف الفقراء من الأذى الشديد الذي لحق به، حتى كاد، في بعض الغابات، يقضي على الناس جوعًا! «أنا لست بكافر، الجوع كافر» هذه العبارة البسيطة عميقة الدلالة، كان بشير قد التقطها، لا يذكر من أيّ فم أو أيّ كتاب، لكنّه كان يردّدها استنهاضًا لهمم المتقاعسين عن القيام، في كلّ غابة، لاصطياد الذئب الأسود.. الذئب المفرد والمتعدّد، الموجود في كلّ مكان، والعائث، في كلّ مكان من أرضنا، فسادًا! إنّه وفق تعبير أحدهم مفرد بصيغة الجمع، وجمع بصيغة المفرد، كثير وقليل، يقع ضرره على الناس، دون أن يراه الناس، حتى أصبحت حكايته أشبه بالأحجية!

لقد صارت الغابات الاثنتان والعشرون مرتعًا لهذا الذئب، وصارت، تاليًا، ميدان معركة ضدّ عدوّ معلوم مجهول. كان اختلاط الصيّادين والصيّادات يشكّل في ذاته

مجتمعًا غريبًا، ولكن فيه كلّ مقوّمات المجتمع البشري المألوف، من حيث بدء الصلات وتناميها، تطوّرها، تشابكها، بين الذين يجمعهم هدف واحد، وتفرّقهم أمزجة وعادات مختلفة: فيها التنافس والتباغض، فيها الألفة والمودّة، وفيها أيضًا حرمة الخبز والملح، وتقاسم الطعام، وتبادل الزيارات، وما يخلق كلّ ذلك من رغبات في التواصل، وفي تبادل الأحاديث والحكايات، واستلطاف هذا الصيّاد لتلك الصيّادة، أو تعلّق هذه الصيّادة بذلك الصيّاد، في جوّ خال من الإكراه، الذي عقابه، في عرف الصيّاد بشير الواعي الحكيم، شديد جدًّا. فالإكراه، في قدسيّة الغابة، يسيء إلى هذه القدسيّة، لأنّه، إذا لم يردع يؤدّي إلى العنف، وكلّ من يرتكبه يُدان بتهمة محاولة الاغتصاب بالقوّة، وتكفي تهمة كهذه لإخراجه من الغابة، بعد إنزال العقاب المناسب به.

إلاّ أنّ البَشَر هُمْ بشر، في كلّ مكان وزمان، ولأنّهم بشر كانوا يلوبون، بدافع من الحرمان، متضوّرين جوعًا، ناشدين إشباع غرائزهم، بعد إشباع بطونهم، وقد اصطحب هذا الصيّاد، أو ذاك، زوجته، إذا كانت قادرة على الصيد، واصطحب آخرون خطيباتهم، أو حبيباتهم، على نيّة الزواج في الغابة. ومع معرفة أكثر الصيّادين أنّ الناس، خارج الغابات، قد وضعوا الشرف على الرفّ، وأنّ الدعارة المحميّة من بعض المتنفّذين قد انتشرت كالجائحة الوبائيّة، فإنّ هؤلاء الصيّادين حرصوا على طهارة الغابة، وعلى إبقاء أجوائها نقيّة، عسى أن يساعد ذلك على قتل الذئاب السود

التي يطاردونها. وأصبح مألوفًا أن تقام الأكواخ، وأن تُصان الأعراف، وتنشأ جمعيّات ومؤسّسات صغيرة، تجعل مجتمع الغابة مجتمعًا مدنيًا، ينعم بالديموقراطيّة وحرِّيَّة الكلام في كلّ الشؤون المتعلّقة بحياة الغابة، ويجري الفصل فيها بعدل ونزاهة تامّين.. وكان الحكيم بشير يعرف أنّ ثمّة مَن دفعوا، للوصول إلى هذا المجتمع، ثمنًا غاليًا.

دغمش احترم كلّ هذه الترتيبات، لأنّها ضروريّة ومريحة، ولأنّ احترامها فيه تكفير عن بعض آثامه السابقة، حين كان قنّاصًا في الحرب الأهليّة، واستفاد من جوّ الحرِّيَّات المضمونة للجميع، كي يجهر بأنّ الحبّ غير ممنوع، ودون هذا الحبّ لا تحلو الحياة ولا تصفو، وإنّه، هو الكهل، يحبّ، ويبحث عن حبيبته التي تكتّم جيّدًا حول اسمها وصفاتها، وأين تعرّف عليها، وماذا يأمل منها. ولم يطلب منه أكثر الصيّادين والصيّادات أن يفشي سرّه، الذي كانت تعرفه الهداهد، ويعرفه، عن طريقها، بشير، العارف والحكيم، الذي نصحه أن يأتي بزوجته، فأجاب بأنّه وحيد، لا زوج له ولا ولد، وأنّه يتعذّب عذابًا أليمًا بسبب حبّه، وقد تعب في البحث عن التي يحبّ إلى درجة التلف، دون أن يراها، أو يسمع بأيّما خبر عنها، ولا يعرف أهي من الإنس أم من الجنّ! فذكّره بشير الحكيم باللقاء بينهما قبل حين، وبالنصيحة التي أسداها إليه بترك أمر رئيفة للزمن.

وكانت رئيفة تعجب من حبّ دغمش لها، وترى إليه من بعد، في حزنه وشقائه، دون أن تدعه يراها. إنّها تشفق عليه، إلاّ أنّ الشفقة لا تصنع حبًّا، وقد أيقنت مع الأيّام أنّه

لا يشتهيها فقط، بل يحبّها أيضًا، يحبّها حبًّا حقيقيًّا، بدليل نحول جسمه، وطول تفكيره، كأنّما أصبح هذا الحبّ كلّ قضيّته، مع أنّ شفاءه لن يكون إلاّ برجوعه إلى قضيّته التي جاء إلى الغابة لأجلها، ومن العبث أن تقول له، هي، هذا الكلام، لأنّه لن يفهمه بشكل صحّ أبدًا، وسيردّه حتمًا إلى محاولتها التهرّب منه!

كان يدور في الغابة ويدور، ثمّ يعود، من تطوافه بحثًا عنها، خائبًا، فيذهب إلى جذع السنديانة، حيث مكمنه للذئب الأسود، من غير أن يفكّر بالذئب الأسود. وفجأة يهبّ واقفًا، مشتعلاً من الداخل، قاصدًا النبع عسى أن تعود إليه يومًا، فما إن يجلس على صخرة النبع محدّقًا في مائه، مستذكرًا كيف رآها عارية تبترد فيه، حتّى يُجنّ من شوق مبرح، تلهبه الهداهد على الأشجار من حوله، حين يهتف أحدها:

وعذلت أهل العشق حتّى ذقته.

ويجيب آخر:

فعجبت كيف يموت من لا يعشق!

وعندئذ يفكّر في الموت، الذي وحده يضع حدًّا لعذابه، إلاّ أنّه يخجل أن يذهب هو إلى الموت انتحارًا، متمنّيًا أن يأتي الموت إليه، وهذا لا يأتي عندما نريده. إنّه يأتي على هواه، في الوقت الذي يشاء، وحين لا نكون في انتظاره. ولأنّ العشّاق ينتظرونه، فإنّه لا يأتي إليهم متلذّذًا بإطالة عذابهم!

ماذا يفعل دغمش؟ يدع نفسه لمصيره؟ يصنع هذا المصير بنفسه؟ كيف؟ إنّه عاجز عن اتخاذ قرار. وفجأة، ذات يوم

عند الظهر، حطّ هدهد على ماء النبع ليشرب، وبعد أن ارتوى رفرف وطار، ثمّ حطّ على غصن شجرة قريبة قائلاً:

ـ ما بك يا دغمش؟

رفع دغمش بندقيّته وأطلق على الهدهد. طار الهدهد بعيدًا، قام بجولة ثمّ حطّ على الغصن نفسه، سائلاً دغمش السؤال نفسه:

ـ ما بك؟

تنهّد دغمش ملتاعًا ولم يجب. كان من العبث أن يطلق النار ثانية، ومن العبث أن يشكو ما به. عندئذ تولّى الهدهد شرح ما به قائلاً:

ـ أنت عاشق يا دغمش، ومعشوقتك موجودة في هذه الغابة.

تنبّه دغمش كأنّما مسّه تيّار كهربائي.. وعاد الهدهد يقول:

ـ رئيفة موجودة في هذه الغابة، وهي تراك دون أن تراها.

هتف دغمش:

ـ أين؟

ردّ الهدهد:

ـ في ذاتك التي بين الرّأس والقدم.

ـ وكيف أراها؟

ـ حين ترى ذاتك!

ـ وكيف السبيل إلى رؤية ذاتي؟ هل تسخر منّي؟

قالها ورفع بندقيّته، فقهقه الهدهد وقال:

ـ لا تكن معتوهًا يا دغمش. دع البندقيّة واسمع.. شفاؤك سهل ممتنع! ورئيفة تعرفه، لأنّها أكثر وعيًا منك.. أنت مريض يا دغمش ورئيفة متعافية، وهذا هو الفارق بينكما!

ـ أنا لست مريضًا.

ـ بلى! أنت مريض جسدًا ونفسًا، وقد حذّرناك من عاقبة الجنون، لكنّك جننت دون أن تدري أنّك جننت، وهنا البليّة!

ـ والدواء؟

ـ رئيفة تقول دواؤك في قضيّتك.. أنت الآن بلا قضيّة. وأنا أعرف أنّك بلا قضيّة، لأنّك أضعتها..

ـ والحبّ! أليس قضيّة؟

ـ لا! ليس قضيّة، أو ليس القضيّة التي جئت من أجلها إلى الغابة.. هناك استبدال! أنت وضعت قضيّة مكان قضيّة.

سأل دغمش:

ـ ألا يمكن الجمع بين القضيّتين؟

أجاب الهدهد:

ـ يمكن يا دغمش، إذا راعينا الأولويّة. قضيّتك الأولى، يا صاح، هي قتل الذئب الأسود، وأنت نسيتها.

ـ ألْهتني عنها القضيّة الأولى، وهي في المتناول، بينما قضيّة الذئب الأسود في غير المتناول، وهنا الإشكال!

ـ صحيح تمامًا، هنا الإشكال! ولكي تفوز بالحبّ عليك أن تفوز بما يتكافأ معه، ودون ذلك لا فائدة. اقتل الذئب الأسود تنل قلب رئيفة، هل فاتتك هذه البدهيّة؟

ـ لم تفتني لحظة، أنا دائم التفكير فيها.. إنّني أفكّر بقتل الذئب الأسود، وأفكّر ببدهيّتك الملعونة معًا!

ـ فاتتك هذه البدهيّة دون التفكير فيها، أو أنّك فكّرت بقلبك لا بعقلك، لذلك أصبحت بلا قضيّة.

ـ والعمل؟

ـ أن تكون لك قضيّة!

سمع دغمش، في اللّحظة نفسها، صوتًا هادئًا، عميقًا، وقورًا، حازمًا من ورائه:

ـ لتكن لك قضيّة لا تخصّ ذاتك وحدها، بل تتعدّاها إلى الآخرين، إلى الناس جميعًا.

كان هذا صوت الحكيم بشير، وكان على قدر من المهابة أخافت دغمش، أرعبته، جعلته يقف وقفة المذنب أمام قاضٍ عادل، أربكته حتى لا يدري ما يفعل، ولا بماذا يجيب. ولم يزايله ارتباكه حتى رأى بشير يبتسم، يجلس على طرف صخرة النبع، داعيًا دغمش إلى الجلوس بجانبه، وهو يسأله:

ـ ماذا تفعل هنا؟

أجاب دغمش بنبرة وجلة:

ـ في الحقيقة أدري ولا أدري. كنت، إذا صدّقتني، أستروح برؤية هذا النبع.

ـ هذا جيّد، الذئاب تأتي لتشرب أيضًا!

ـ لكنّني لم أكن أترصّدها.

ـ وعلى مَن أطلقت النار إذن؟

ـ على الهدهد الذي تدخّل في ما لا يعنيه.

ـ وقتلته لا شكّ، أنت القنّاص الماهر!

فكّر دغمش وأجاب:

ـ لا! لم أقتله، حتى مع كوني ماهرًا في القنص، وأنت تعلم أنّني تبت، على يديك، توبة نصوحًا.. إنّني، الآن، كالصيّادين الآخرين، أكرّس نفسي لقنص الذئب الأسود.

رازه بشير وقال:

ـ والذئب الأبيض؟

ـ هل هناك ذئب أبيض أيضًا؟

ـ ويستحمّ بماء هذا النبع!

ـ بماء هذا النبع؟ أنت لا تستخفّ بعقلي، أليس كذلك؟

ـ وأنت لا تستغبيني، أليس كذلك أيضًا؟

وقف دغمش نزقًا وقال:

ـ إلى أين تريد أن تصل؟

أضاف:

ـ أنت رجل وتعرف.. حوّاء فتنت آدم نفسه، أوقعته في الخطيئة، ونحن، بعده، كلّنا خطاة، حتى أنت نفسك خاطئ. من هذه الناحية على الأقلّ، فإلامَ هذا الترميز؟ قل ما تريد قوله بصراحة..

ـ ما أريد قوله معروف، قاله الهدهد نفسه دون الوصول إلى نتيجة، إنّما، أستغفر الله، كانت هناك نتيجة، وكانت هناك كلمة: النتيجة أنّك أطلقت عليه النار، والكلمة أنّك أضعت قضيّتك، وكنت الخاسر في الحالين.. لماذا تلصّصت على رئيفة وهي في ماء النبع كما ولدتها أمّها؟ وأين التوبة النصوح التي تتشدّق بها؟ وهل تحسب أنّ قنص امرأة بسهولة قنص مخلوق يمرّ في الشارع!؟ المرأة، يا دغمش، لا تقنص إذا لم تشأ أن تُقنص، فعلام مطاردتها والبحث عنها؟

قال دغمش بجرأة:

ـ لم أسمع ما قلت.. أنت تخاطب عقلي، بينما أنا أسمعك بقلبي، ومن هنا يأتي الصمم! الذي يحبّ، يا حكيمي، يكافح في سبيل حبّه، وهذا ما أفعله أنا.. أين الغرابة إذن؟

وبعد وقفة:

ـ سأقول لك شيئًا يا صديقي.. الهداهد حذّرتني من الجنون في حبّي، لكنّني جننت من جرّاء هذا الحبّ، جننت وانتهى الأمر، فكيف تخاطب مجنونًا بصفته عاقلاً؟ الزجر، هنا، لا يفيد..

هتف هدهد:

ـ نعم، لا يفيد! ابن زريق السمّاك قال:

«لا تعذليه فإنّ العذل يولعه»

هتف هدهد آخر:

«قد قلت حقًا، لكن ليس يسمعه»

هتف هدهد ثالث:

«جاوزت في نصحه حدًّا أضرّ به»

هتف هدهد رابع:

«من حيث قدرت أنّ النصح ينفعه»!

قال دغمش:

ـ هذا هو الواقع! كفّ يا حكيم عن لومي وإلاّ أشعلتني أكثر.. إنّني أحترق.. ألا ترى النار في ثيابي؟

قال بشير:

ـ إنّني، يا بني، أرى النار في رأسك وليس في ثيابك!

صاح دغمش:

ـ وتأتي لتنفخ فيها؟

ردّ بشير:

ـ أخطأت، فاعذرني.

ـ تقتلني وتعتذر عن قتلي؟

ـ وأين الدماء على يدي؟

هتف هدهد:

لا دماء على يديك، لأنّ هناك قتلاً ماديًّا وقتلاً معنويًّا.. أنت قتلت دغمش معنويًّا.

قال بشير:

ـ أعتذر ثانية.

هتف الهدهد:

ـ اعتذارك مقبول لأنّك أردت الإصلاح. . أمّا الدماء على اليدين فإنّها مسألة أخرى.

هتف هدهد ثانٍ:

ـ هناك قتلى كثيرون ولا دماء على أيدي قاتليهم. . الفقير مقتول ولا دماء على أيدي قاتله، المريض الذي لا يملك ثمن الدواء، فيموت بعلّته، قتيل ولا دماء على أيدي قاتله، العاطل عن العمل وعائلته جائعة، قتيل ولا دماء على أيدي قاتله، الجائع، المحروم، وكذلك المستلب، كلّهم قتلى ولا دماء على أيدي قاتليهم. . والقائمة طويلة!

قال بشير:

ـ كلّ هذا صحيح، ومن أجل ذلك نطارد، في غاباتنا، الذئاب السّود، لأنّها أصل البلاء. . الفساد ـ أيّتها الهداهد ـ أصل البلاء، ومكافحته قضيّتنا، ودغمش هذا نسي قضيّته، أضاعها، ومن أجل ذلك أعنّفه. .

ردّ الهدهد:

ـ دغمش له، الآن، قضيّة أخرى، لا يردعه عنها التعنيف. ثم مَن قال لك إنّ قضيّته في الحبّ أقلّ شأنًا من قضيّته في قتل الذئب الأسود!؟

ـ ولكنّه، في الغابة، لقتل الذئب الأسود!

ـ والذئب الأبيض كما أسميته؟ أليس موجودًا في الغابة أيضًا؟ الحبّ، أيّها الحكيم، ذئب أشدّ شراسة. . دعه يطارده إلى أن يناله، أو ييأس. . ألا تعلم أنّ اليأس إحدى الراحتين؟

ـ والجنون؟

ـ دواؤه فيه! المحبّ لا ينسى إلاّ بالحبيب. دعه ينساها فيها.. هذه نصيحتي!

فكّر بشير وقال:

ـ أنت على حقّ أيّها الهدهد.

رفرف الهدهد وطار، تبعه ثان وثالث ورابع، بقي بشير ودغمش وحدهما، بقيا مجتمعين ومنفصلين، كلّ يفكّر بقضيّته. برزت، فجأة، رئيفة. برزت بعد أن سمعت كلّ ما دار بين الرّجلين، وبينهما وبين الهداهد. اقتنعت أنّها داء دغمش ودواؤه، وأنّه لن ينساها إلاّ فيها، ولكي ينساها جاءت إليه، جاءت مشفقة لا مُحبّة. وفهم دغمش، من نظراتها إليه، هذه الحقيقة، فانطوى على نفسه حزينًا دون أيّة كلمة. أدرك أنّ الكلام غير مفيد، وأنّ الحبّ يكون منحة لا صدقة، وأنّ رئيفة تتصدّق عليه برؤيتها، فتقبل ذلك بعرفان يخالطه تمرّد، وحين سألته:

ـ ما بك؟

أجاب:

ـ لا شيء!

جلس الثلاثة على صخرة النبع، بشير في الوسط، وعن يمينه دغمش ويساره رئيفة.. ساد الصمت طويلاً، انصرف خلاله الجميع إلى النظر في ماء النبع، وإلى الحوض الذي ابتردت فيه رئيفة من حرّ الغابة، حيث رآها دغمش عارية، ثمّ بادلها الحديث، وفيه غير قليل من الإغراء له.. فوقع،

استجابة للإغراء، في هوى صاحبته التي امتنعت عليه. كان يحسب، قبل أن يراها، أنّ هناك كلامًا كثيرًا سيقوله لها، إلاّ أنّه، منذ رآها، استشعر ميلاً إلى الصمت الذي هو أبلغ من الكلام.

لم ينسها فيها كما قال الهدهد، فالنسيان تعلّمٌ، وكي نتعلّم علينا أن نكابد، والمكابدة من مدرسة الصبر تتخرّج، وقد كابد دغمش زمنًا ليس بالقصير، متمنّيًا، وبإصرار، لو يراها مرّة. وها هو قد رآها، وكاد يشهق حين رآها، كاد يندفع إليها، كاد يفتح ذراعيه لاحتضانها، غير أنّ برودًا نزّ منها، لجم كلّ حركة تنضح بالشوق فيه.. إنّه يحبّها، ولكن ماذا بالنسبة إليها؟ أيّ تعبير عن اللامبالاة ارتسم على محيّاها؟ أيّة حيدة تجاهه أظهرتها؟ أيّ مقابل، وأيّ ثمن، لعذابه المضني، دفعتهما مشاعرها؟ كان على حقّ، حين سألته «ما بك؟» أن أجابها: «لا شيء!» نعم. لا شيء! انتهت الأشياء. فالحبّ الكبير، إذا لم يكافأ بحبّ كبير، تموت الأشياء كلّها.. ما يبقى هو الاستعطاف، التوسّل، الرجاء في أن يخفق القلب للقلب، ولو مرّة واحدة! قلب رئيفة لم يخفق، والقلوب بالقوّة لا تخفق، وهذا ما فهمه الثلاثة من خلال الصمت المرين، المبهظ، القاتل للفرح الإنساني.. وماذا يتبقّى، إذا لم يكن هناك فرح إنسانيّ؟ قال لها، بعد خروجها من الماء: «أطلقي النار عليّ!» عبست ولم تفعل، لا يستحقّ حتى أن تقتله، وهذا منتهى الاحتقار.. وزادت عليه فقالت: «أنظر إلى وجهك في الماء!» وعندما فعل ذلك لم يجد عيبًا، لأنّه من غير

المطلوب أن يكون نافعًا للآخرين، فيردّ الأذى عنهم، وقد أخطأ في الماضي، وتاب عن هذا الخطأ، وأخطأ في الغابة، ناسيًا أنّ قضيّته، ككلّ الصيّادين، هي قتل الذئب الأسود.. لقد جنّ، ولا يزعم أنّه شفي من جنونه بعد، إلاّ أنّه اكتشفه، وكشْفُ العلّة يريح المعلول، يريحه لأنّه يجعله على معرفة لعقدته، وعندما تُعرف العقدة يُصبح حلّها ممكنًا. عقدة دغمش كانت الحبّ، وبعد أن وعاها، صار بإمكانه التخلّص منها، ليس بسهولة وإنّما بصعوبة، وعلى مهل!

قال بشير، بعد أن ضاق صدرًا بصمت اللذين حواليه:

ـ وبعد؟

قالت رئيفة: ها قد جئت!

وقال دغمش:

ـ بإمكانك أن تذهبي!

أضاف:

ـ إنّني حزين وفرح.. حزين لأنّني أضعت قضيّتي، وفرح لأنّني وجدتها.

قال بشير:

ـ صدق الهدهد، قال: «لتأتِ حبيبته إليه، فينساها فيها». هل نسيتَ يا دغمش؟ هل نسيتَ رئيفة في رئيفة؟

أجاب دغمش:

ـ بدأت، تقريبًا، بذلك!

وأنت يا رئيفة؟

ـ أنا على عكس ما قال، شرعت أذكر دغمش في دغمش، وتلك هي المفارقة!

صاح هدهد:

ـ ملّقيه يا دليلة.

ردَّ هدهد آخر:

ـ رئيفة ليست دليلة، قلنا هذا من قبل.

ردّ الهدهد الأوّل:

ـ كلّ رئيفة هي دليلة، إذا كان هناك شمشون من هذا الزمن.. الرّجل هو الرّجل، ومَلَق المرأة هو الملق، ودغمش هذا ملّقته رئيفة بعريها، وهي تبترد في ماء النبع!

حطّت حمامة بيضاء على الحافة المقابلة، نظرت إلى الثلاثة الجالسين بهدوء، المتسربلين بثوب الصمت، الغارقين في لجّة التفكير، وقالت:

ـ لنعقد الصلح.

قال الهدهد الأوّل:

ـ لا صلح مع الثأر.. كليب قال لأخيه الزير: لا تصالح! وعلى هذه الكلمة غزل الشاعر أمل دنقل قصيدته الشهيرة جدًّا: «لا تصالح»، لأنّ هناك عدوًّا، وهذا العدوّ ما زال هناك، في البقعة المجاورة، الملتهبة بحسب تعبير الصيّاد بشير، أليس كذلك يا بشير؟

قال بشير:

ـ هذا صحيح أيّها الهدهد.. هناك، في البقعة الملتهبة، عدوّ، فرّخ، في الغابات الاثنتين والعشرين، عدوًّا آخر

اسمه الذئب الأسود. . إنّنا نطارد هذا الذئب الأسود، وستطول هذه المطاردة، وخلالها لا بدّ من الحبّ، مادمنا أحياء، ومادام الحبّ وقود حياتنا، والجنس الناجم عنه وحده قاهر الموت.

انبسطت أسارير دغمش، تهلّل وجهه، انداح على قسماته إشراق، تنضّرت تقاطيع محيّاه، بان مشاحٌ من لون أحمر خفيف يكاد لا يلحظ على جبينه، حتى أنّ الغضون القليلة، على هذا الجبين، تخفّت لهنيهات تحت وهج الفرح. وأذناه، أنفه، وجنتاه، تبدّت كلّها ملوّنة بالغبطة. ذقنه، غير الحليقة، ارتعشت شعورها رعشة طروبًا. حاجباه، رموشه، رفّت عليها السعادة. . تدلّت شفته السفلى، مريّقة بالنشوة. ظمأ فمه، وهذا المحتفظ بشيء من رواء تلمّظ، ابتلّ، تشهّى، كأنّما قد أطبق على فم رئيفةورديّ اللمى. استعاد، مرّة ومرّة، قيلة الحكيم بشير: «لا بدّ من الحبّ، مادمنا أحياء، ومادام الحبّ وقود حياتنا، والجنس (آه الجنس!) وحده قاهر الموت».

نهض واقفًا، تحرّك، في المسافة الضيّقة، ما بين الصخرة التي كان يقتعدها إلى جانب الحكيم بشير ونبع الماء الذي رأى فيه رئيفة عارية تبترد، تأمّل صورته في الماء الصافي، راقت له هذه المرّة طلعته في الماء الصافي، أحسّ أنّه أكثر من السابق رواءً، وأغزر رضابًا، عاد شابًّا قويًّا جسورًا، مستذكرًا عبارة بشير الحكيم: «حين تقتل الذئب الأسود، تكون قد دفعتَ صداقَ رئيفة، وعندئذ فقط تبادلك الحبّ». قال في نفسه، والرغبة الشهّاء إلى احتواء جسد رئيفة بين

ذراعيه تسكره: «لأقتلنّ الذئب الأسود ولو دفعتُ حياتي ثمنًا لذلك». لكن رئيفة، عندما رماها بلحظ من عينيه خفيةً، كبحت، ولو قليلاً، اندفاعة فرحته.. كانت واجمة، جامدة، لم تختلج لها جارحة، أمام وثبة الأمنية التي رجّته رجًّا؛ كانت حاضرة غائبة، كانت لامبالية بكلّ ما قاله الصيّاد بشير عن الحبّ، والجنس قاهر الموت. تعيش، ههنا، بجسدها فقط، تاركة لروحها أن تهيم لا يدري دغمش أين، عازفة عن الكلام على ما بها، حتّى عندما سألها بشير:

ـ بماذا تفكّرين يا رئيفة؟

قال دغمش، كاسرًا الصمت المرين:

ـ بالذي قلته يا حكيم!

قال الحكيم:

ـ ما أظنّ.

قالت رئيفة:

ـ وأنا لا أدري!

قال دغمش:

ـ بلى، تدرين.

قالت ساخرة:

ـ كم أنا معجبة بفراستك يا دغمش.

قال الحكيم بشير:

ـ فراسته تكاد تضيّعه، هذا الذي كان قنّاصًا فَقُنِصَ الآن!

قال دغمش وقد انتفض:

ـ حاشا!

وقال الحكيم:

ـ حاشا هذه قلها لغيري.. ما أنت، يا دغمش، غير قنّاص قَنَصَتْهُ.. امرأة!

ردّ دغمش:

ـ حاشا ثمّ حاشا يا حكيم..

أضاف:

ـ أنا الآن صيّاد.. صيّاد فقط، تركت قنص الناس لما هو أهمّ.

قاطعه الحكيم:

ـ وهذا الأهمّ، بالنسبة إليك الآن، هو قنص قلب مستعصٍ!؟

ـ بل قنص الذئب الأسود، وتقديم رأسه المستطيل عربون حبّ للقلب الذي أحبّ.. إنّني، أنا الكهل، أملك شيئين مهمّين: التجربة والجسارة، وبهما أتفوّق على الشباب الرقيعين، كما هي حالهم في هذه الأيّام.. لقد مضى، يا حكيم، زمن الشباب الذي يعمل في السياسة، ويتّقد حماسة من أجلها.. شباب خرعون، كلّ ما يفعلونه هو التسكّع ولعب «الطرنيب».. لقد تاب الله عليّ من قنص البشر، حين كنت، سابقًا، أخرق، يلعب بي الآخرون، رؤساء المافيات، لعبة القتل لحسابهم، سواء بأجر أو بغير أجرٍ.. ثم ماذا أفدتُ، أنا دغمش القنّاص، من قنصي الأبرياء دون تمييز؟ وبماذا استفاد الذين كانوا يقتلون على الهويّة!؟ كلّ

ما حصلنا عليه، نحن القتلة، بعض النقود، وقليل من الأفيون المراد به تعويدنا على الإدمان، وبعد الإدمان جُعلنا مطايا للنهب والسرقة وارتكاب الجرائم، لحساب رؤساء المافيات الذين يشغلون أعلى المناصب الآن، بينما نحن نلوب على اللقمة.. سأعترف لك يا حكيم: دغمش، هذا الواقف أمامك، شرب حشيشة الكيف، شمّ الأفيون، لكنّه لم يدمن، أنقذ نفسه في الوقت المناسب، تراجع عن طريق الضلال، تخلّى عن ارتكاب الموبقات، بفضل رجل حكيم مثلك، ساقته الأقدار إليه، فنهاه عن المنكر، بثّ فيه، بصبر كصبر أيّوب، معرفة الخير من الشرّ، زرع فيه، يومًا بعد يوم، قليلاً من الوعي، فتح عينيه المغمضتين على المصير البائس الذي ينتظره، إذا هو تمادى فيما يقترف من آثام؛ وعندما كان ينسى، ويعاود ما بدأه، لا يتخلّى الرجل الفاضل عنه، لا يلومه، لا يعنّفه، لا يقول له: «اذهب إلى الشيطان!» أو أنت من «نسل إبليس» أو أنّ أمّك حبلت بك بالدنس، وأباك جاء بك من نطفة الرذيلة، وأنّ العِرْق دسّاس، وعِرْقُك فاجر، وبزرتك شنيعة.. بل كان يرى، أنّ إصلاحي ممكن بعد، مادمت على شيء من معرفة وعلى بعض من ثقافة، تحصّلا لي من الدراسة والمطالعة، ومن الكتاب الذي كان معي إلى جانب البندقيّة، وهكذا كنت أطالع وأنا أقنص، والكتب التي حملها إليّ لاقت منّي الترحيب والشغف، وقد التهمتها كما تُلتهم السندويشات اللّذيذة.. المهمّ أنّه أنقذني، دلّني على درب الصلاح. ولأنّني انصلحتُ، تراني هنا في الغابة أسعى جاهدًا لقتل الذئب الأسود، مثلك ومثل الآخرين.

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ هذه المرافعة، يا دغمش، لا تسوى قلاّمة ظفر إذا لم تقترن بالفعل، إنّني أؤمن بالأفعال لا بالأقوال.. أنت تقول إنّك تبت عن القنص، وأرغب أن أصدّقك، وقلت إنّ المافيات هي التي كانت وراء القنص، ووراء القتل على الهويّة، وهذا مفهوم ومعروف، إلاّ أنّ توبتك، وأنت موجود في هذه الغابة، توبة وراءها غاية، فإذا تحقّقت هذه الغاية رجعت قنّاصًا، حشّاشًا، نازعًا قلادة الخير من عنقك، مستعيضًا عنها بقلادة الشرّ، في راحتك اليمنى شيطان، وفي راحتك اليسرى غول، وفي فمك نابان للنهش، حتى في جثث الموتى! أعرف أمثالك جيّدًا، خبرتهم في كلّ المواقف، رأيت الخزي تحت أظافرهم، عاينتُ الخبثَ في نظراتهم الشرهة إلى الذي لا يملكون، فإذا ملكوه انقلبوا ثعالب يقتاتون بالفضلات.. إنّني لا أنكر التوبة، هذه مطلوبة ومرغوبة، وهناك مَن يتوب بسبب يقظة ضمير، ومَن يتوب بسبب صحوة نفسيّة، ومَن يتوب إثر صدمة عنيفة، ومَن يتوب لأنّه لا يستطيع إلاّ أن يتوب، وهو في الشيخوخة، ومن يتوب لأنّ الولوغ في الدم عاقبته وخيمة، ومَن يتوب وهو أمام حبل المشنقة، كي يغفر الله ذنوبه، ومَن يتظاهر بالتوبة ليخدع مَن حوله، ومَن يتوب لإرضاء شهوته ختْلاً، ومَن يتوب تواطؤًا مع إبليس لأجل مغنمة إبليسيّة؛ وأنت، في توبتك المدّعاة، من أيّ نوع من هؤلاء التائبين؟

قال دغمش:

ـ أنا من التائبين لأجل التوبة وحدها.

ـ هكذا بكلّ بساطة؟

ـ هكذا بكلّ بساطة.

رازه الحكيم بشير، وقال:

ـ أنت من كلّ هؤلاء التائبين دفعة واحدة!

قال دغمش:

ـ على فرض أنّني من كلّ هؤلاء، فما هي غايتي؟

ـ وتسأل بعد؟

ـ أسأل لأتنوّر.

ـ النور والظلمة لا يكونان معًا في وقت واحد! في داخلك بقعة ظلام لا تزال.

ـ ومعها بقعة ضوء أيضًا.

ـ لا أنكر هذا، إلاّ أنّ البقعتين في صراع لم يُحسم بعد.

ـ ومتى يكون الحسم؟

ـ بعد صراع طويل جدًّا.

ـ أنا، عند نفسي، تائب والسلام!

ـ أنت تخدع نفسك بنفسك. . قل لماذا تُبْتَ؟ اعترفْ.

ـ كي أقتل الذئب الأسود في هذه الغابة.

ـ وقبل مجيئك إلى هذه الغابة؟

ـ لأنّ ذلك الرّجل العارف قادني إلى الهداية.

ـ في أوّل الحرب الأهليّة أم في آخرها؟

ـ في أوّلها، ووسطها وآخرها.

ـ ومتى اهتديت أنت؟

ـ لا أذكر!

ـ أنت كاذب.. اهتديت في آخرها، عندما لم يبق مجالٌ للقنص.

صاح دغمش:

ـ أنكرت عليّ، يا حكيم، صحّة توبتي.. فهل تنكر عليّ صحّة غايتي أيضًا؟

أجاب الحكيم بشير بصوت هادئ:

ـ أنا لا أنكر شيئًا.. جئت إلى هنا لتقنص، لأنّك اعتدت القنصَ، هذه هي المسألة!

ـ ولنفرض أنّها كذلك.. أليس قنص الذئب الأسود غاية الصيّادين وأنت منهم؟ ألم تقل لي: اقتل الذئب الأسود تكن رئيفة لك؟

ـ قلت، وأكرّر: اقتل الذئب الأسود تكن رئيفة عروسًا لك.

ـ سأقتله، سأقتله يا حكيم!

ـ وستكون رئيفة عروسًا لك، ستكون عروسًا لك، ولكن بعد قتل الذئب الأسود لا قبله.. ستقول لي: أُحبُّ رئيفة، والحبّ يصنع الأعاجيب.. هل تنكر أنّ الحبّ يصنع الأعاجيب؟ لا أنكر أنّ الحبّ يصنع الأعاجيب، ولكنْ ما بك، يا دغمش، اشتهاءٌ لا حبٌّ، هذه هي الحقيقة.. المرأة، يا صاحبي، رقيقة جدًّا، حسّاسة جدًّا، يستهويها في الرّجل صدقه، كرمه، أريحيّته، مكانته بين الناس، شرفه،

شجاعته. . اسمع هذه القصّة: كانت هناك، في مدينة من المدن، وفي حيّ من الأحياء، فتاة جميلة، وكان الشبّان يعرضون أنفسهم عليها، يطلبون ودّها، يأملون في حبّها، وكان بعضهم في حال جيّد، ووضع اجتماعي جيّد، وعلى كثير أو قليل من الوسامة، إلاّ أنّ أحدًا منهم لم ينل الحظوة لديها، أو يبلغ أن يصطفيها. وصادف أن كان في الحيّ نفسه، شابّ فقير عرف السجون نضالاً لأجل العدالة الاجتماعيّة، وأنّ المحكمة كانت في الحي الذي تقطنه الفتاة، فلمّا جيء به، بعد هرب في الجبال، وفي يديه القيود الحديديّة، إلى هذه المحكمة، دفع الفضول بعض الناس من سكّان الحي، وبينهم الفتاة، لحضور محاكمة الشابّ المناضل، الذي كان جريئًا في الدفاع عن نفسه، وعن القضيّة المبدئيّة التي يعتنقها، معترفًا بأنّه هو المسؤول عن المناشير التي وزّعت، وأنّ الموقوفين لا علاقة لهم ولا ذنب، فأصدر القاضي حكمه بإطلاق سراح هؤلاء الموقوفين، وبسجن الشابّ لمدّة شهر واحد، مع غرامة، دون أن يأبه الشاب للحكم، ودون أن يتراجع عن مبدئيّته. وهكذا، أمام الجميع، وضعت القيود ثانية في يديه، وسيق إلى السجن. وبعد الخروج منه كانت المفاجأة: الفتاة الجميلة أحبّت هذا الفتى دون سائر الفتيان، وفضّلته عنهم جميعًا، حتّى مع معرفتها أنّه فقير، وأنّه قد لا يستطيع أن يتزوّجها. . هذه الفتاة، يا دغمش، فتنتها رجولة الفتى وأغرتها به شجاعته وتقبّله للسجن في سبيل قضيّة شريفة. . هل فهمت؟

قال دغمش:

ـ فهمت تقريبًا، يا حكيم، ووعيت كذلك، لكنّني، في الوقت نفسه، لم أفهم ولم أعِ، اختلطت عليّ الأمور، تخبّلت. .

قال الحكيم:

ـ أنت تحتاج، إذن، إلى وقت للتفكير. .

ـ أفكّر بماذا؟ أنا أيضًا شجاع، وأنا أيضًا دخلت السجن، وأنا ناضلت أيضًا.

سأله الحكيم:

ـ كلّ هذا صار، ولكن يبقى السؤال: في سبيل أيّ قضيّة دخلت السجن أيّها الشجاع؟

ارتبك دغمش. . احتار في الجواب: هل يعترف؟ هل يقول: سرقت؟ هل يقول: دخلت السجن لأجل قضيّة شريفة!؟ هل يصدّقه الحكيم إذا قال: إنّني مجرم، وإنّني جئت إلى هذه الغابة للتطهّر من إجرامي؟ وماذا بشأن رئيفة؟ هل تكرهه بعد كلّ الذي سمعته عنه، ومن فمه بالذات؟

قطع عليه الحكيم بشير هذا الشرود التفكيري قائلاً:

ـ المثل، يا دغمش، يقول: «ليس في الإعادة إفادة». لن أعيد عليك ما قلته. . هيّا اقتل الذئب الأسود أوّلاً!

صاح دغمش وهو يرتجف:

ـ قلت إنّني سأقتله، يعني سأقتله. ولكن ماذا بشأني الآن؟ إنّني أحبّ، إنّني أعشق، إنّني أتعذّب:

صاح هدهد من على شجرة مقابلة:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت مَن لا يعشق!؟

صاح دغمش:

ـ لكنّني سمعت هذا الكلام من قبل، فماذا يفيدني تكراره الآن؟ الموت، أيّها الهدهد الغبيّ، أرحم!

هتف هدهد آخر:

وأحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربّه وفي الهجر، فهوى الدهرَ يرجو ويتّقي

ـ لم أفهم!

قال الحكيم بشير:

ـ هذا ما يسمّونه، في لغة العاشقين، التأرجح بين اليقين والشكّ. . هل عشقت قبل الآن؟

ـ عشقت يا حكيم طبعًا، لكنّني قبل الآن لم أتأرجح ولم أتعذّب!

قال الحكيم:

ـ إنّما حلاوة العشق في العذاب تكون يا دغمش!

ـ وإلى متى؟

ـ إلى أن تتعلّم كيف تنسى، وكيف تمحو. .

ـ هذا لا يعني أيّ أمل!

ـ الأمل أن تثق، وأن يقترن الوثوق بالعمل الدؤوب، لتحقيق الهدف الذي تثق به.

ـ اليأس، إذن، إحدى الراحتين، كما تعلّمنا من الأمثال الصحيحة!

ـ هذا هو.

ـ وأنا أرفضه.

ـ إذا استطعتَ!

ـ وماذا تفعل هذه البندقيّة في يدي؟

ـ تقتل؟

ـ ليس نفسي.

ـ رئيفة إذن!

ـ هي بالذّات.

وقفت رئيفة متحدّية وقالت:

ـ أنا أمامك يا دغمش، اقتلني إذا استطعت.. هيّا!

رفع بندقيّته، أطلق. خاب الطلق.. كانت يده ترتجف. عجب لأنّ يده ترتجف، ماذا جرى؟ القنّاص لا يقنص؟ طلقته كانت خلّبيّة؟ لا. في البندقيّة رصاص حقيقيّ، فلماذا لم يقتل؟ خاف أن يقتل؟ أراد، دون وعي، ألاّ يقتل! ما العمل؟ يقتل نفسه؟ وإذا قتل نفسه فبمَ ينتفع؟ تبقى هي، تبقى الأفعى؟ يبقى حُسْن الأفعى. ولمن يبقى حسن الأفعى؟ للذي تُفضّله عليه؟ هذا هو. يبقى للآخر.. الآخر هو العدوّ، الآخر هو الغريم. وعليه، ألاّ يقتل التي يحبّها، بل الذي تحبّه، ومَن الذي تحبّه؟ مَن الذي تحبّه غيره؟ «مَن الذي تحبّينه يا أفعى!؟ مَن الذي تفضّلينه عليّ، بعد أن صار بيننا خبز وملح؟».

ـ هل تسمع يا حكيم، كان بيننا خبز وملح..

قال الحكيم:

ـ الخبز والملح، وحدهما، لا يصنعان حبًّا!

ـ وما الذي يصنع الحبّ؟

ـ لست قاضيًا في الحبّ حتّى أعرف.

ـ يجب أن تعرف.. وإلاّ بماذا أنت حكيم؟

ـ أنا لم أقل إنّني حكيم، هذا أوّلاً؛ وثانيًا حتى لو كنتُ، فإنّ الحكمة تقضي بكبرياء الصبر.. اصبر يا دغمش، اصبر ولكن بكبرياء، لا بمذلّة أو رعونة، أو إجبارٍ التي لا تحبّك على أن تحبّك بالقوّة.. القِ هذه البندقيّة من يدك، فالرصاص الذي فيها مفروض أن يكون موجّهًا إلى الذئب الأسود، لا إلى زميلة تطارد معك الذئب الأسود.. هل تسمع؟ كم مرّة سألتك: هل تسمع؟ وأنت، كما يبدو، لا تسمع، وأنا أعذرك. فالحبّ لا يعمي العيون وحدها، بل يصمّ الآذان معها.. إنّما أنت، كما رأيت منك الآن، أعمى، أصمّ، أبكم. أنت مخبّل أمام الحُسْن، والحُسْن أحيانًا يكون شرّيرًا، يكون جانيًا على صاحبته وعلى الآخر، الذي يودي به، هذا الحسن، إلى التهلكة.. لن أسألك: هل تسمع، هذه المرّة. لأنّي على يقين أنّك لا تسمع، فالشهوة رعناء، وقد أذلّتك شهوتك، فازددت رعونة، انقلبت قنّاص أبرياء، كما كنت في السابق..

ـ يكفي! صرخ دغمش، يكفي ما نالني من دليلة هذه.

هتف هدهد:

إنّ في الحسن، يا دليلة، أفعى كم سمعنا فحيحها في سريرِ

صاح هدهد آخر:

والبصير البصير يُخدع بالحُسْن وينقاد كالضرير الضريرِ

رفع دغمش بندقيّته، أطلق، مرّة ومرّة، على الهداهد. صاءت الهداهد، كان في صيْئها هزء ملعون، دفعه إلى الإطلاق عليها وهي طائرة، لم يصبها أيضًا. أطلق في الفضاء كي ينفّرها، كي يفرّقها، كي يبعدها، لم تنفر الهداهد، لم تتفرّق، لم تبتعد.. عادت إلى الصياء، إلى الرفرفة بين الأغصان وهي تصيء بقوّة أكبر، بهزء أشدّ.. وراح دغمش يطلق وهو يركض، وظلّ يطلق وهو يركض، والهداهد فوقه على أغصان أشجار الغابة، تطير وتحطّ، وفي طيرانها والحطّ، تتكاثر، تتجمّع، تتفرّق، تعود إلى التجمّع، تعود إلى الصياء، أعنف، فأعنف، فأعنف!

- ٦ -

تنهّدت رئيفة بارتياح مشوب بالأسى. . وقفت، دارت حول النبغ، عادت إلى الجلوس، عادت إلى الدوران، تناولت بندقيّتها، علّقتها في كتفها، نزعتها من كتفها، لاح تفكير معذّب على محيّاها، دام هذا التفكير هنيهة، انفرج المحيّا بعده، عاد إلى العبوس، عادت إلى الجهمة طلعتها، كلّ طلعتها، ثمّ أشرقت طلعتها، كلّ طلعتها. تساءلت: «مسرورة أنا؟ حزينة أنا؟ منتصرة أنا؟ منهزمة أنا؟ لماذا جرى ما جرى؟ هل كان مقدّرًا هذا الذي جرى؟ والحقّ، بعدُ، على مَن؟ عليّ أم على دغمش؟ الحقّ على الحُسْن، نعم على الحُسْن، ماذا أفعل بهذا الحُسْن؟ ما نفعه وأرقش الصيّاد يتجاهله؟ إلامَ يتجاهله؟ هل هذه لعبة شدّ الحبل بيني وبينه؟ شدّ الحبل في الحبّ أيضًا؟ لا بدّ أن يكون في الحبّ أيضًا، مادام التوازن في لعبة الحبّ لا يدوم طويلاً، يتأرجح الميزان قبل أن تستقرّ إبرته، لا وزن هنا، في أشياء القلب، كما الحال مع الذهب والفضّة. هنا، العاطفة هي الذهب والفضّة. الأكرم في الحبّ تَشيلُ كفّته. الأبخل هو الرّابح. مَن منّا الأكرم، ومَن منّا الأبخل؟ مقياس؟ لا. الحبّ لا يخضع للمقاييس، يخضع للخفقان. كم نبضة خفوق في الدقيقة؟ في الثانية؟ في رفّة الهدب؟ وماذا بعد هذا التعداد؟

إنّه لا تعداد، إنّه سبر، كأن نسبر قلوبنا في خفقانها، يعني أن نعرف قوّتها والضعف، فالقلوب تخفق عند مرأى الآخر، الحبيب، وتخفق أيضًا لدى تذكّره، لدى تخيّله، لدى مروره في الخاطر، ولو بشكل عابر.. وتخفق للرياح، تهبّ من صوبه، في أيّ جهة كان، وصبا نجد الذي هاج من نجد، تَلَقّاه شميمًا الهارب من نجد ذاتها، فأين المفرّ، و«قرب الدار خير من البعد»؟ وكيف الهرب والحبّ «كاللّيل الذي هو مدركي، وإن خلت أنّ المنتأى عنه واسع»؟ نعم! كيف الهرب، أيّها الحكيم، الجالس على عرش الحكمة؟

ابتسم الصيّاد بشير، وقال:

ـ إنّما أنا جالس على عرش الجهل يا رئيفة، ألعن الحكمة المبتذلة، والعادية القاتلة، داعيًا إلى وئدهما، تحت طباق الرمل! ولكن ماذا بك؟ لماذا تلوبين كما تلوب دودة الفكر في الدماغ؟ لكلّ منّا سلاح واحد هو البندقيّة، ولك سلاحان: حسنك والبندقيّة، إلاّ انّك لا تعرفين، أو لا تتقنين، استعمال أيّ منهما، في الموضع المناسب وبالشكل المناسب.. مع الكفاح يكون الحبّ، وهذا مفهوم تمامًا، فأن نحبّ ونحن نكافح، فهذا أمر مشروع، غير أنّنا نخطئ إذا خطر لنا، حتى في الخيال المجرّد، أنّ أيًّا منهما يحلّ محلّ الآخر.. هذا هو خطأ دغمش. وتكادين، أنت أيضًا، تقعين في الخطأ نفسه: تنسين القضيّة التي أنت هنا، في الغابة، لأجلها.. أنت لست دليلة، والأرقش ليس شمشون، ولسنا في وارد تمثيل دور دليلة وشمشون في هذه الغابة.. حسناء أنت!؟ هذا لا

شكّ فيه، والحسن أحيانًا سلاح معكِ وسلاح ضدّكِ، فلا تغترّي به، في المطلق، لئلاّ تخسريه، لئلاّ يصبح ضدّك. . وأبو نوّاس، في تاريخنا العربيّ القديم، قال: «تناهى سكون الحسن في حركاتها» ولم يقل تناهى جنون الحسن في حركاتها، هذا يدلّ على أنّ الحسن في سكونه وليس في جنونه؛ إنّه في الكيفيّة التي يكون عليها، خيرًا أم شرًّا، وأعيذ حسنك أن يكون للشرّ، وأعيذك أنتِ أن تحسبي أنّك دليلة كما قال دغمش، وأنّ حسنك يفحُّ كالأفعى كما قال الهدهد، في تورية للتحذير. . نحن، يا رئيفة، عرب، ولسنا يهودًا. اليهود هم الذين، كما في التوراة، استخدموا دليلة للنيل من شمشون، وماذا كانت النتيجة «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ!» وهذا ما يخالف هدفنا. ولن نقول للذين وراء الذئاب السود «علينا وعليكم». هذه صيحة يأس، فهل يئست؟ اخرجي من الغابة إذن، دعينا نطارد الذئاب السود، وفي سرائرنا هتفة واحدة: «عليكم أنتم، يا من تقفون وراء هذه الذئاب!» أعتذر لأنّي أطلت في الكلام، فالحكماء الحقيقيّون يصغون كثيرًا ويتكلّمون قليلاً، وبوضعي في خانة الحكماء، ولو مجازًا، كان عليّ ألاّ أثرثر على هذا النحو، لولا أنّني أشفق عليك من الضياع، مدركًا تمامًا أنّ الشفقة طعنة نصل في الخاصرة، وإنّني اقترفت هذا الإثم: طعنتك في خاصرتكِ، أنت التي أحبّ!

التقطت رئيفة، فورًا، عبارة «أنتِ التي أحبّ!»، نظرت إلى بشير الحكيم نظرة تأمّل، فيها بعض تساؤل وبعض دهش، فوجدته مطرقًا، مشيحًا عنها كأنّما ليست موجودة، أو

كأنّما يمضغ ندمه على زلّة لسانه هذه.. رغبتْ، في اللاّشعور، ألاّ يكون نادمًا على ما قاله، وأنّه يحبّها حقًّا وبشكل صادق، لا لتبادله الحبّ، وهذا لن يكون أبدًا، ما دام هواها عند الأرقش الصيّاد، بل لتزيد محبًّا بين محبِّيها، وفي هذا التعداد إرضاء لأنوثتها، فيه عبث للمكنون في سريرتها، هذه السريرة التي لا تستعلن حتى لصاحبها، كونها خفيّة وبسبعة ألوان شيطانيّة.. قال «أنتِ التي أحبّ!» فمن أيّ نوع حبّه؟ افتتان بحسنها الذي يريده ساكنًا؟ مجنونًا؟ شهوانيًّا؟ بريئًا؟ نصحها ألاّ تكون دليلة، لأنّه يأبى تمثيليّة شمشون ودليلة في هذه الغابة، يأباها فعلاً؟ يخدع نفسه في أمرها؟ يبطن غير ما يعلن؟ يعلن غير ما يبطن؟ قال ما قال بدفع من عاطفته، وندم عليه بدفع من عقله؟ يطرق مفكّرًا لأنّ العاطفة والعقل يحتربان في ذاته؟ وإذا احتربا فلمن تكون الغلبة؟ للقلب؟ لا! للعقل. وماذا بشأن القلب؟.. يموت القلب؟ محال أن يموت القلب، ومحال أن يموت العقل، إنّه الصراع! العقل والقلب في صراع.. كذلك كانا، وكذلك يبقيان، والصراع تاريخ، والتاريخ طويل، فأين كان البدء؟ حوّاء أكلت التفّاحة، أطعمتها آدم، هنا كان البدء، الجنس كان البدء، ومع البدء كان الكفاح، هبط آدم وحوّاء من الجنّة إلى الأرض، كافحا في الأرض، ولكن ماذا مع الكفاح؟ أو في الكفاح؟ ماذا أيضًا بعد التفّاحة؟ النسل، الذراري، كيف كان النسل؟ كيف كانت الذراري؟ صلب رجل، رحم امرأة، هذه هي الحكاية.. هل يدرك الحكيم بشير الحكاية؟ آه لو يدرك الحكاية! آه لو يدرك الناس الحكاية!

سألت رئيفة:

ـ وأنت، أيّها الصيّاد الحكيم، تدرك الحكاية؟

أجاب:

عن أيّ حكاية تسألين؟

ـ عن حكاية التاريخ!

ـ هناك تاريخ وتاريخ!

ـ وبدء التاريخ؟

ـ التفّاحة!

ـ لماذا الندم إذن؟

ـ الندم على ما كان..

ـ وعلى ما تريده أن يكون، ظنًّا منك أنّه لن يكون.

ـ وإذا قلت لك إنّني لا أريده أن يكون؟

ـ أقول لك إنّ إصبع يدك طويل، وأنت تحسب أنّ بإمكانك الاختباء وراءه.

ـ وبعد!؟

ـ كن كما شئت أن تكون، لكنّك لن تكون إلاّ كما أشاء أنا أن تكون.

ـ وكيف تشائين أن أكون؟

ـ هذا هو السؤال الذي لا تُسأل عنه امرأة!

ـ إنّما أنتِ إبليس في زيّ امرأة.

ـ وهل كانت الملائكة لولا الأبالسة؟

ـ لكنّني لست الملاك الذي في ظنّك، ولست الإبليس الذي في وهمك.

ـ كن على سجيّتك إذن.. هل أنا مخيفة إلى حدّ أنّك تتحاشى النظر إليّ؟

قالت ذلك رئيفة وقهقهت ضاحكة.. انقلبت رئيفة حوّاء، انقلب بشير الحكيم آدم.. حوّاء وآدم، وللمرّة التي لا يُحصى عددها، في الجنّة. وحوّاء وآدم، وللمرّة التي لا يُحصى عددها، في الأرض، والتفّاحة تتدلّى من غصن شجرة متأرجحة في إغراء لا يُقاوم، فماذا أنت صانع أيّها الصيّاد الحكيم؟ الفتنة أشدّ من القتل، والفتنة في قتلها لا تكون على حال واحدة، فالفتنة أشكال، والقتل أشكال، ورئيفة لا تضمر قتل بشير، وحتى لو أرادت فإنّها قاتلة مقتولة، تقتل بشير ويقتلها الأرقش، وهكذا يتساوى طرفا المعادلة، فلا غالب ولا مغلوب، والكسب الوحيد زهرة أخرى في باقة الزهر، أو شوكة أخرى في باقة الشوك.. والغنج لهو، ولا بأس بشيء من اللهو، حتى في الغابات التي يطارد فيها الصيّادون الذئاب السود!

جورج ديمتروف، المناضل البلغاري، قال: «تسلّوا أيّها الرفاق فإنّ الطريق طويل!»، والمتنبّي أنشد:

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ أطويل طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليل!

والحكيم بشير يعرف ما قاله الاثنان، مؤمنًا أنّ الطريق لاصطياد الذئب الأسود طويل، وأنّه لابدّ من التسلّي، ولابدّ من التساؤل، ولابدّ من الشوق، ومن التعليل.. وأنّ رئيفة

تكيل له بالكيل الذي كال لها، فقد أغرق في مواعظه النافلة، وأغرق في تجهّمه أمام البِشْر في وجهها، وأغرق في رفع الجد إمامًا للهزل، ناسيًا أنّ أحدهما، في المطلق، هو الآخر في المطلق أيضًا، وأنّ القضيّة التي تحدّث بصرامة عنها يمكن أن يتحدّث باللّين عنها، وأنّ عليه، هو الحكيم، أن يتعلّم الحكمة من جديد، ومن امرأة، تومئ له إيماءً، مفاده أنّ للنفس على صاحبها حقًّا، وأنّ للجسم على صاحبه واجبًا، ومن المستحيل على المرء أن ينسى حقّ النفس، وأن يتجاهل واجب الجسد، إذا ما أراد أن يكمل طريقه إلى الغاية التي ينشدها، مهما يكن سموّ هذه الغاية، ومهما كابر في الجلوس على أعصابه، التي ستخونه لفرط جلوسه عليها!

نهض الحكيم بشير، منتصبًا مستثارًا، رافعًا بندقيّته في شيء من الغضب، لا يدري، هو نفسه، الدافع إليه، وبتسديد دقيق، أطلق رصاصة على التفّاحة المتدلّية من شجرة الخير والشرّ، كما لو أنّه آدم آخر مع حوّاء أخرى، في الجنّة التي طردا منها، نزولاً إلى الأرض التي يقترن فيها الحبّ بالكفاح، وحسبما تبدّى له، في انتفاضة غضوبٍ، أنّ الأمر هكذا كان، وهكذا يجب أن يكون، ولا حاجة بعدُ للكلام، حول ما إذا كان قد أخطأ أو أصاب، فالمهمّ، في حكمة الخلاص، أن يتخلّص من التفّاحة أوّلاً، لأنّها اللّعنة التي تقوده إلى الجحيم، وكلّ تنكّر للقضيّة، التي من أجلها وُجد في هذه الغابة، جحيم تسعّره هذه التفّاحة!

مرّة أخرى، والتفّاحة شظايا، قهقهت رئيفة ضاحكة من

فعلة بشير. قالت في نفسها: «بشير يحبّني حبًّا مجنونًا، أو يشتهيني اشتهاءً مقبولاً، فأن يطلق على التفّاحة، فإنّه يحسب أنّه يطلق على حبّه، أو يطلق على شهوته، وكلا الأمرين مردّهما إلى الخوف؛ إنّه يخاف الخطيئة، والخطيئة في دمه، والدم، في شرايين الحبّ أو الشهوة، لا يمكن الإطلاق عليه، لا يمكن فصده بشفرة حادّة. وفي التقابل، بين حبّه لي وحبّي للأرقش، أكون قد كسبت الرهان، تكون حوّاء قد انتصرت، كَرّة أخرى، على آدم! مأفون آدم هذا، مصاب بالانفصام، بارتطام رأسه بجدار الحقيقة، وهو، لو يعلم، جدارٌ تكسّرت عليه قرون كلّ الوعول التي نطحته، وسيتكسّر عليه قرناه إذا افترضنا أنّه وعل!».

قالت:

ـ أنت وعل يا بشير!

قال بشير:

ـ لكنّني لا أنطح صخرًا.

ـ الحقيقة هي الصخرة، وأنت تخافها.. أنت كالوعل تنطح صخرًا، ولو اتّعظت بحكاية الوعل والصخر لأدركت ألاّ فائدة من النطاح، فالصخر يبقى صخرًا، والوعل يبقى وعلاً، ومن العبث إعادة تمثيليّتهما في هذه الغابة.. أنتَ لست وعلاً، وأنا لست دليلة و«بالكيل الذي تكيلون يُكال لكم». أليست هذه هي الحكمة التي سعيت لتلقيني إيّاها!؟ وأين؟ في الغابة! ولماذا؟ لأنّك في المضمر من سريرتك تخافني، فهل أنا مخيفة إلى هذا الحدّ!؟ إنّني، ببساطة، امرأة، وأنت، ببساطة، رجل، إلاّ أنّ الرجل فيك خاف من

التفّاحة فأطلق عليها، جعلها شظايا، إلاّ أنّ التفّاحة عادت كما كانت، وهي تتأرجح فوق رأسك، فأطلق عليها إذا شئت ثانية، وثانية تعود كما كانت، لأنّها في الوهم تفّاحة، وفي الواقع حقيقة، وعبثًا قتل الحقيقة بأيّ أداة من أدوات القتل! ارجع إلى رشدك، أو أنّ رشدك سيعود إليك تدريجيًا.

كان الحكيم بشير يتّكئ على بندقيّته، يهزّ برأسه صامتًا، مصغيًا إلى مرافعة أنثى يعرف أنّها ليست له، وأنّ الأرقش ليس لها، وتلك التي يحبّها الأرقش ليست للأرقش، والسلسلة قد تطول وقد تقصر، فيكون كلّ لكلّ، وهذا جيّد، هذا لابدّ منه، الحبّ لابدّ منه، والجنس لابدّ منه، بالحلال وغير الحلال، فالناس يستلطف بعضهم بعضًا، والناس يحبّون ويعشقون، مادام عالم الغابات عالم الحياة نفسها، وفي الحياة تكامل، وفي التكامل تأخذ الحياة مجراها الطبيعي، وما كان في الجنّة قد كان، وما هو كائن على الأرض كائن، والكينونة، هنا، تعبّر عن ذاتها من خلال هدف، وجميل من الإنسان أن يكون له هدف، وحتى الذين يخيّل إليهم أنّهم دون هدف، يعيشون هدفًا بغير معنى، هدف البلادة، الكسل، الفراغ، الموت دون موت، لمخالفتهم الناموس الأوّل، ناموس آدم وحوّاء، اللذين هبطا من الجنّة، أو طردا منها، بسبب جرأة حوّاء، بسبب الأفعى التي هي حوّاء، وبحكمة الأفعى، أغرت حوّاء آدم بأكل تفّاحة الخير والشرّ، فهبطا إلى الأرض ليمارسا الخير والشر، هذه الثنائيّة الخالدة بخلود الحياة، وبممارستها، في تناقضها، تكون النقلة إلى أمام، ومادام ذلك كذلك، مادام

الخير حقّ والشرّ حقّ، فإنّ الحياة حقّ والموت حقّ، وفي التداول، بين هَزْمِ الحياة للموت، وهزم الموت للحياة، ثمّ هزم الحياة للموتَ، في صراع لا ينتهي، تتأكّد السيرورة، وتتأكّد الصيرورة، في الارتقاء إلى أعلى، والصيرورة ارتقاءٌ، بالعنف بدءًا، وبغير العنف ختامًا، عندما يصبح الارتقاء انتقالاً طوعيًّا، مستندًا إلى التطوّر المبدئي الانتقالي، المتّسق والحركة، المجانف للسكون، الواعي للتناقض بين القديم والجديد، الهادم للقديم، الباني للجديد، أو المفسح لهذا الجديد أن يكون متجدّدًا أبدًا.. رئيفة كانت على حقّ، وأنا كنت على خطأ!

قال بشير الحكيم لرئيفة الصيّادة:

ـ كنتِ، يا زميلتي، على حقّ.. لأنّ حوّاء، في التاريخ السابق لتاريخنا، كانت على حقّ.. قال السيّد المسيح: «كونوا حكماء كالحيّات»، وقد كانت أفعى الفردوس حكيمة في إغرائها حوّاء بأكل التفّاحة، وإطعام آدم منها.

سألت رئيفة:

ـ ولماذا أطلقت النار على التفّاحة إذن؟

ـ لأنّها كانت، في الوضع الذي كنّا عليه، تفّاحة للشرّ دون الخير.

ـ وأنت، حين إطلاقك النار عليها، كنت تعرف الخير من الشرّ؟

ـ كنت أجتهد طلبًا لمعرفتهما.

ـ وبلغت أن تعرفهما؟

ـ ليس تمامًا بعد. . والحديث يقول إذا أصاب المجتهد كان له حظان، وإذا أخطأ كان له حظّ واحد، وهذا الواحد يكفيني راهنًا.

ـ ماذا تريد أن تقول بعد هذه الكفاية؟

ـ إنّنا، أنت وأنا، على الأرض. . ومادمنا عليها توجّب علينا أن نعمل بحسب قانونها.

ـ وهل الحبّ خارج هذا القانون؟

ـ إنّه في داخله تمامًا، شرط ألاّ يكون أحادي الجانب!

ـ ومتى كان للحبّ أكثر من جانب؟

ـ سلي آدم وحوّاء.

ـ أنت آدم وأنا أسألك.

ـ وأنت حوّاء وتعرفين.

ـ الذي أعرفه أنّ حوّاء أغرت آدم بأكل التفّاحة فأكلاها. . وأنت ترفض هذه التفّاحة وتطلق عليها النار.

ـ هذه معرفة ناقصة.

ـ وتمامها؟

ـ أن نكون، بعد أكل التفّاحة، ما كان آدم وحوّاء بعدها. . أن ننزل إلى الأرض، فنحبّ ونكدح.

ـ وماذا نفعل نحن هنا؟ أليس اصطياد الذئب الأسود نوعًا من الكدح؟

ـ هذا هو. . إنّنا هنا نكدح و. . .

ضحكت رئيفة بغنج، وقالت:

ـ . . . نحب!

ـ ونحبّ أيضًا . . تعالي إليّ . .

قال ذلك وتقدّم خطوة نحوها فاتحًا ذراعيه.

صاحت به:

ـ مكانك!

ـ تعالي إليّ!

ـ مكانك!

ـ قلت لك تعالي إليّ، إنّني أحبّك . .

ـ أنت تشتهيني.

ـ وأشتهيك . . تعالي إليّ . . لا!. أنا آتي إليك.

ـ مكانك!

تقدّم بشير الحكيم من رئيفة خطوة، خطوتين، ثلاث . . . كان بشير يتقدّم، وكانت رئيفة تصيح قف. لكنّه ظلّ يتقدّم، وظلّت تصيح قف. تابع التقدّم، تابعت الصياح، وفي اللّحظة التي كاد يحتويها سُمع صوت سقوط جسم في ماء النبع . . بقبق الماء، ضحكت رئيفة، بان رأس بشير، تابعت الضحك رئيفة، قال بشير بصوت نائح:

ـ الآن اكتملت الحكمة!

قالت رئيفة وهي تركض هاربة ضاحكة:

ـ نعم . . الآن اكتملت الحكمة!

- ٧ -

كان الأرقش صيّادًا ماهرًا، معتزًّا بنفسه دون غرور، دون تواضع، إذا قال فعل، لكنّه نادرًا ما كان يقول، تاركًا الكلام لغيره، مصغيًا بأناة إلى هذا الغير، حتى لو كان يعرف ما يقوله، لكثرة تجاربه وشدّة معاناته، والمعارك التي خاضها، جسدًا ونفسًا، في مكافحة الفساد الذي يستشري، يومًا بعد يوم، عامًا بعد عام، في الغابات الاثنتين والعشرين، التي طوّف فيها وبندقيّته في كتفه، باحثًا، متعقّبًا الذئب الأسود، في غير هوادة أو ملل، مع يقينه التامّ أنّ هذا الذئب له سلالة، من الصعب القضاء عليها، لأنّ القلاع المحصّنة بالحواجز، الممتنعة عن الأخذ بالحرس، المالكة لكلّ أنواع السلاح الحديث، هي مصدر الذئاب السود، في سلالة بعد سلالة، بعد سلالة، تتوالد فيها، تتكاثر في رعايتها، تنتشر في كلّ الغابات بأمر منها، وبدفع لها كي تنهش، بأقوى ما يكون النهش، في جسوم الرعايا البائسين، المذلّين والمهانين، العاجزين عن مقاومة مطامع الذين في هذه القلاع، لافتقارهم إلى ما يُقاوم به من سلاح متكافئ، ولأنّ دولة القانون مغيّبة، والدولة لا دولة، بل هي سلطة.. ففي الغابات الاثنتين والعشرين، سلطات بهذا العدد، وكلّ سلطة تسنّ من القوانين ما يرسّخ سلطتها، وهذه القوانين

برّاقة من الخارج، مكفهرّة من الداخل، دون، حتى استثناءات، لترسيخ القاعدة!

ولشدّ ما كان الأرقش يبتسم بإشفاق للذين تخدعهم هذه القلاع، برمي بعض الفتات لهم، كما ترميها لكلابها تمامًا، وكان هؤلاء المخدوعون يتلقّفون هذه الفتات، شاكرين للقلاع صنيعها، مسبّحين بحمدها، متدافعين لخدمتها، عيونًا بصّاصة، وسواعد فتّاكة، وأزلامًا خنوعة، بسبب من الجهالة والضلالة، والحاجة إلى لقمة العيش، والخوف من فقدانها، ورغبة في الاستزادة منها، واعتبارها منّة من الأسياد، تقتضيهم الولاء والإكبار، والبذل والتضحية في سبيلهم، وتقبّل كلّ ما يصدر عنهم على أنّه عطاء كريم، وفق تلقين ما يسمعون ويُشاهدون ويقرأون في وسائل الإعلام، بكلّ تفنّنها في إضفاء هالة من المجد والأريحيّة والسخاء على هؤلاء الأسياد.

ما العمل والحال كذلك؟ الوعي!؟ إنّه وعي مفصّل على مقاس الجهل. التنوير؟ النور هنا ظلمة، يزوّقها الإعلام بطلاء كاذب. النقابات؟ إنّها مفبركة برؤسائها وأعضاء مجالس إدارتها. الجمعيّات؟ موجودة ومنتفعة، وانتفاعها يلغي حتى وجودها. الأحزاب؟ قد كانت، في النصف الأوّل من القرن العشرين، أحزابًا، وفي نهايته صارت توابع، وصدق ناظم حكمت الذي قال: «عصري مجيد وسافل!» ففي بداية عصرنا كان المجد، وفي نهايته كانت السفالة، وهذا، في زحمة التدافع إلى نيل الرضى، لا يفطن إليه أحد، فإذا فطن بعضهم سيق الفاطنون إلى السجون أو مشافي الأمراض العقليّة، وقد كانت نكتة، إلاّ أنّها حقيقة،

قولة من قال: «إنّهم يبيعون النيل والأهرام!» فإذا لم يُبَع النيل فعلاً، ولم تُبع الأهرام صِدقًا، كان المجاز أبلغ تعبير عن الواقع، وخلاصة الأمر، كما الحال المعيش «لا تفكّروا لأنّنا نفكّر عنكم». وهذا ما جرى في عهد زعيم عربي كبير كبير، مات في غير أوان الموت، مات عندما اكتشف المخازي، من وراء ظهره تمرّ، ومات عندما أعلن: «إنّ دولة المباحث قد انتهت!» فانتهى هو وظلّت دولة المباحث قائمة، وبعد موته كُشف الستر عن كلّ الفظائع التي كانت ترتكب في «عهده الاشتراكي الميمون!».

ما العمل يا الأرقش؟ اليأس عار، والأمل حلم حتى لا نسقط في العدم، والرجاء في سفر، والذئاب السود ترتع، وأنت تعرف الصيّاد صقرش، والصيّادة قمْطرة، وتعرف دغمش وبشير وأكرم ورئيفة ونافع والآخرين، وقد قلت لهم هذا الكلام كلّه، وشرحت لهم الواقع بكلّ تفاصيله، المعلن منها والمستتر، فأجابك الصيّاد بشير، بحكمته التي لا شكّ فيها «القول موت والصمت موت فقلها ومت!» ولمّا صارحته بأنّ هذه الحكمة قد تكرّرت على لسانه مرّة ومرّة ومرّات، أطرق ينكت الأرض بعود من الصنوبر!

مع ذلك، يا الأرقش، تبقى حكمة بشير حكمة، ولمّا بلغك ما فعلت به رئيفة، ظلّت حكمة بشير حكمة، في نظرك ونظر الصيّادين الآخرين، الذين استغربوا، ولا غرابة، أن يهوى بشير رئيفة، وبينهما هذا الفارق في العمر والتفكير، فقلت لهم «الحبّ صنو الكفاح، فمن يكافح يحبّ، ومن يحبّ يكافح، وأنّ حوّاء أغرت آدم بأكل التفّاحة، وعندما

أكلاها هبطا الأرض، المسكونة بالحبّ والكفاح معًا، وهذا ناموس الحياة، ومن الخير أنّه ناموسها، لأنّه لولا الحبّ ما كانت الذراري، ولولا الكدح ما عاشت الذراري، وصدقت حكمة الحكيم بشير في فراستها، حين أرّخ بداية التاريخ ببداية الجنس، في المأثرة التي اجترحتها حوّاء، بنقلها آدم «من الغفلة إلى اليقظة»، وصدق مَن قال: «لولا هزيمة سبارتاكوس ما كان المسيح المخلّص». فالعبوديّة المهزومة مع ثورة سبارتكوس، وجدت خلاصها في تقبّل الفادي لمحنة الصلب، التي هي ثورة من نوع آخر، إلاّ أنّ هذه الثورة لم تبق ثورة، ألغتها مقولة «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فأباطرة روما اطمأنوا، منذ تفحّصوا المقولة المباركة، ووجدوها متلائمة مع أشيائهم، مع مصالحهم، والأهمّ مع بقاء عروشهم لهم، كاملة غير منقوصة، ومن هذا المنطلق، في فهم ما هو معلن وما هو مستتر، تقبّلوا فداء «الفادي»، دخلوا في إهابه، كسبوا الرهان في اقتسام الغنيمة، صار الأباطرة أصحاب الملك في شقّيه: الديني والدنيوي، حكموا الرعيّة باعتبارهم الآباء بالروح وبالسلاح، وتوارثوا، على هذا النحو، حكم إمبراطوريّاتهم، حتى وصل الحكم إلى نيرون، الذي أحرق روما، ومن نافذة قصره الإمبراطوري، راح يضحك على مشهد النيران تتضرى، ملتهمة البيوت وما فيها من السكّان في روما!

من ذا الذي زعم أنّ النار تطهّر؟ كم نفسًا من نفوس ذوي السلطة طهّرت؟ كم من قلاعهم أحرقت؟ كم من أملاكهم أتلفت؟ كم من عائلاتهم شُرّدت؟ كم من كنوزهم

طالت فأهدرت؟ كم من غواياتهم ومجوناتهم أوقفت؟ كم من نساء حريمهم عرّضتهنّ للسبي؟ كم من أولادهم دفعتهم إلى الموت، فداء للوطن أو للشعب؟ ومَن الذي، في البقعة المجاورة، الملتهبة، يندفع إلى الموت، في عمليّات مقاومة أو استشهاد!؟ ومَن، في هذه البقعة المباركة، فجّر نفسه ليفجّر العدوّ المجرم معه، هل هو من أولاد المسؤولين، في داخل البقعة أو خارجها!؟ لا! نعم لا! أولاد هؤلاء المسؤولين، في الداخل والخارج، ينعمون، في قصور آبائهم، بالنعمة البطرة، يرفلون بالأزياء الباريسيّة الفاخرة، يقودون، بسرعة مجنونة، سيّاراتهم الفارهة، يدرسون في جامعات أوروبا وأميركا وغيرهما أحدث ما أنتجته ثورة الأزياء ومصمّميها، آمنين، مطمئنّين، باذخين بغير حساب!

كان الصيّاد أكرم يراقب الأرقش، الصيّاد الشابّ، الوسيم، من وراء دغل قريب. دُهش لأنّ الأرقش، الجالس في الغابة على مهاد من إبر الصنوبر، يلوح الهمّ على قسمات وجهه، يبدو، في إبحاره الفكريّ البعيد، مستغرقًا في هذا الإبحار، إلى حدّ أنّه صار معه فلكًا عائمًا، على هدئة من المياه الزرقاء الساكنة، لا تتحرّك فيه جارحة، لا تندّ عنه نأمة، لا يشعر بما ومَن حوله، غير مكترث حتّى بالذئب الأسود، الذي هو، في هذه الغابة، لأجله ومن المفروض أن يترصّده، وأن يطلق عليه فيقتله.

ثمّة لحظات، ينسى فيها المرء نفسه، يسافر، على متن الخيال، إلى بعيد، يعيش بشغف في هذا البعيد، وفي الرؤى التي تنداح لناظريه الساهمين، تتبدّى أمامه فتن

الهوى، على تنوّع أشكالها، فتنًا للعشق، من منظر خلاّب في الطبيعة، إلى مشهدٍ مروّضٍ في هذا الجزء أو ذاك الجزء، منها، والمرء، في سدوره، يرتاد آفاقًا عاشها، أو يحلم بأن يعيشها، سابحًا، في فضاءات خارج الجاذبيّة الأرضيّة، بين أرض وسماء، تمامًا كما في حلم غريب غريب، لذيذ لذيذ، يودّ ألاّ يفيق منه، وأن يمسك به في اليقظة، فلا يدعه يفرّ من بين يديه، فمادام هناك دماغ، فإنّ هناك تفكيرًا، ومادامت دودة التفكير تنقّب في هذا الدماغ، فإن سلسلة الفكرات تكرّ، حلقة بعد حلقة، كما في مشهد عبر كتاب، يأخذنا إليه، أو كما في فيلم سينمائي، يسلبنا، في الوعي واللاوعي معًا، القدرة على الانفكاك من أجوائه، فنحن نتابعه بانخطاف إلى أن نصير فيه أو يصير فينا، وتبقى المرأة، في الطبيعة، في الكتاب، في الفيلم، سيّدة الرؤى جميعًا. . إنّها، المرأة، ساحرة الوجود، وفي وجودنا المسحور بها، تخون عيناها أماناتنا، فنقع في شباك، الخلاص صعب منها، والاندفاع، للوقوع في «خائنة الأعين وما تخفي الصدور» قدر، قد نأسى له، نندم عليه، إلاّ أنّ الندم والأسى لاحقان، لا سابقين، فغلالة الجسم المتخيّل، في الاختراق الذي ننجرّ إليه، تصبح لاغلالة، وفي الوهم، كما في اليقين، يتمرأى الجسم العاري مغريًا، لا طاقة لنا على مقاومة إغرائه. . إنّه الشبق، ويزداد، في الشرق، بفعل الحرمان، وفي ازدياده المحروم بجرفنا كالسيل الآتي.

هل كان الأرقش، في حرمان الغابة، مجروفًا مع هذا

السيل؟ وهل المرأة، في رؤى الطبيعة، تتماهى والطبيعة في خيالنا؟ وإذا كنّا في الأحياء، ماذا في وسعنا لاجتناب هذا الخيال؟ وإذا الكبت كان، وإذا الكبت طال، فإنّ المكبوت ينتقم من كابته، اليوم، غدًا، بعده، بعده، إلى أن يتمّ التنفيس عنه، وبشكل غير صحّي أحيانًا، وفي هذا الشرق خصوصًا.

دغمش الصيّاد، بسبب هذا الكبت، انطلق في الغابة شبه مجنون. الحكيم بشير، بسبب الكبت أيضًا، ترذّلت حكمته في ماء النبع. رئيفة، في حبّها المكبوت للأرقش، تضاعف حبّها له. الأرقش، في حبّه لفدوى، كان يفكّر، من بين ما يفكّر، بهجر الغابة التي هو فيها، عائدًا إلى غابته الأصليّة التي جاء منها، لأنّه هناك يكون ذاته، يكون في أرضه، بين الصيّادين الذين من أمثاله، يبحثون عن الذئب الأسود، يترصّدونه والإصبع على الزناد، ولابدّ، لابدّ كما يقول القنّاص دغمش، أن يُقنص هذا الذئب، فالإنسان صيد القنص، وإذا كان، قبل ما يَزعمُ من توبة عن قنص البشر، قد قنص بشرًا كثيرين، فإنّ من السهل عليه، أو على الصيّادين أمثاله، أن يقنصوا الحيوانات المفترسة كالذئاب السود، التي ليس لها عقول للتفكير، وهي، لذلك، ترمي بنفسها إلى التهلكة، دون أن تعي أنّ هناك تهلكة.. لكنّه، المسكين، قبل أن يقنص ذئبًا، قنصته «ذئبة»، قنصته امرأة، قنصته رئيفة، فردّ على هزء الهازئين منه، الشامتين به: «المرأة، يا زملائي، أخطر من الذئبة، ففي حسنها درع زردٌ لا يخترقه رصاص، وعيناها اللّتان ترزان نورًا، ترزان نارًا، وهذه هي النار الحارقة، التي تكوي، والكيّ، في الوجع،

أشدّ إيلامًا من الرصاصة، وهناك، كما تعلمون، طلقة الرحمة، القاضية على مَن تُطلق عليه في ثانية، وبعد الثانية نوم أبدي مريح، بينما طلقة العين لا تقتل ولا تريح، تُبقي من يُصاب بها متأرجحًا في الهواء الطلق، وما الهواء الطلق، في هذه الحال، إلاّ مركب إبليس، يحسب البحّار الذي فيه، أنّه على وشك الوصول إلى برّ السلامة، فتأتي، في الرّيح الشروق، موجة مصطخبة تعيده إلى حيث كان، ومن حيث كان، يحاول من جديد، ومن جديد تصدّه الموجة إيّاها، تعبث به وبقاربه، ويعبث بها وباصطخابها، في لعبة تدوم طويلاً طويلاً!».

الصيّاد أكرم كان حاضرًا، شاهدًا على ما قاله دغمش، ضاحكًا مع الضاحكين على بليّته، حاسبًا مع الحاسبين إنّ ما يقوله هذرٌ من الهذرِ، غير أنّ الصيّاد بشير قال بجدٍّ:

ـ ولكن هذه فلسفة، في الحبّ وعذاب الحبّ، يا دغمش.. لابدّ أنّك قرأتها فحفظتها، وجئت الآن تسمعنا ما فيها من طرافة، ومن صواب يجعل الطرافة أعمق من طرافة.. هل تدري أنّك، في هذا الذي قلته، كنت حكيمًا أكثر من حكماء الحبّ أنفسهم؟ صدق مَن قال «اسأل مجرّبًا ولا تسأل حكيمًا»، ولكنّك، يا زميلي، لا تتّعظ بتجربة ولا حكمة، وإلاّ لتركتَ رئيفة وشأنها..

هتف دغمش:

ـ أتركها وشأنها! كيف بالله عليك؟ ثمّ لا تنس، ولا ينس الحاضرون، إنّني ابن مدارس، ومصيبتي إنّني ابن مدارس، لأنّ رئيفة، في صدّها عنّي، أطارت من رأسي كلّ

ما تعلّمته في المدارس والكتب التي في المدارس. . لقد تخبّلت، فهل من دواء لديك للخبل؟

أجاب الحكيم:

ـ تذكّرْ قضيّتك تسلُ حبّك!

ـ هذه سمعناها.

ـ ابتعد تنس!

ـ وهذه سمعناها أيضًا.

ـ فكّر بقنص الذئب بأكثر ممّا تفكّر بقنص الذئبة.

ـ وهذه سمعناها أيضًا وأيضًا.

ـ فارقْ، ففي الفراق السلوان!

قال دغمش:

ـ هذه ليست من الحكمة يا حكيم. . أنت، بما تقول، تدعوني إلى ترك الغابة والعودة إلى قنص البشر، وأنا قلت لك إنَّ الله تاب عليّ من هذه الفعلة. . قل لي ما الذي يشفيني من الحبّ.

ـ تعني الذي يشفيك من المرض!

ـ هذا هو.

ـ أين أنت الآن من الجبل؟

ـ عن أيّ جبلٍ تتحدّث؟

ـ جبل الحبّ طبعًا.

ـ وما علاقة الحبّ بالجبل؟

ـ هنا مربط الفرس. اسمع يا دغمش! الحبّ جبل،

وعندما تكون، في حبّك، في سفح الجبل، تكون البداية، فإمّا أن تترك الجبل وتذهب فتنسى، أو تصعد الجبل فتوغلُ في الحبّ. .

هتف دغمش:

ـ لقد صعدنا، يا حكيم، الجبل وانتهى الأمر. فمتى النزول عنه؟

ـ عندما تبلغ ذروته.

ـ وبعد الذروة؟

ـ الانحدار.

ـ وقبله؟

ـ الحبّ يصعد معك مادمت صاعدًا، فإذا بلغت الذروة انحدر الحبّ معك، من الجانب الآخر للجبل. . هذه هي جوهرة النصيحة!

فكّر دغمش وقال:

ـ لديّ حلّ. . أبقى على الذروة. . أليس جميلاً أن أبقى على الذروة؟

ـ وتستطيع؟

ـ لِمَ لا؟

ضحك الحكيم وقال:

ـ الشمس كرة، فإلى متى تبقي كرة الشمس في يدك، معطّلة عن الحركة؟ هل نسيت أنّ الأفلاك في دوران دائم؟ والحبّ، تاليًا، في دوران دائم مثلها! إذا كان في وسعك

تثبيت الفلك، كان في وسعك تثبيت الحبّ، وهذا محال! أنت لا تستطيع أن تبقى على ذروة الجبل، مع كلّ ما في البقاء عليها من جمال، لأنّ من يصعد ينزل، من يرتق ينحدر، إلاّ في حال الموت. فمع الموت وحده الثبات وحده، وأنت لن تموت، لن تنتحر، لأنّك، في ذاتك، تفكّر: «إذا انتحرتُ، إذا متُّ، أُبقي رئيفة لمن بعدي؟» هذه أنانيّة العاشق لا أنانيّة الإنسان.. أنت الآن عاشق، والعشق حلو ومرّ، فذق مرارة الحبّ إلى أن تصل إلى حلاوته.. إنّما حذار من الجنون. في الماضي، كما في الحاضر، كان عشق وكان جنون.. وأنت يا دغمش على وشك الجنون.. وهذا لأنّ نداء الجسد أغلى لديك من نداء الواجب.. تذكّر نداء الواجب، اصغِ له، فكّر فيه، فكّر في البؤساء، في الفقراء، في المساكِين، الذين تأكل الذئاب السود رغيفهم، وفكّر، أيضًا، في القلاع التي تطلق هذه الذئاب علينا، بعد أن تكون قد تربّت وترعرعت في كنفها، وأجبني: إلى متى تبقى هذه القلاع؟ وإلى متى تبقى ذئابها؟ وإِلامَ السكوت عليها؟ المرأة حسّاسة جدًّا، ذكيَّة جدًّا، مجرّبة جدًّا، ومن تجاربها تعلّمتْ أن تفضّل مَن يأتيها برأس ذئب، على من يأتيها برأس خروف.. هيّا.. وإلى اللقاء!

أكرم الصيّاد، المندهش من استغراق الأرقش في التفكير، حسب أنّ الأرقش مثل دغمش، يفكّر برئيفة التي سلبته قدرته على التحكّم بنزوته، متجاهلاً أنّ الحبّ ليس نزوة، ولن يكون، وأنّه حقّ من الحقّ، وأنّ الإصابة به، برغم لذّتها أو مرارتها، تبقى الإصابة الأحلى في حياة

البشر.. الأرقش مصاب بداء الحبّ، ودواؤه في نسيان رئيفة برئيفة، فلماذا لا تأتي إليه رئيفة حتّى ينساها فيها؟ ينساها ليتذكّر غيرها: القلاع وذئابها السّود، يتذكّر ما تفعله هذه الذئاب في رغيف الجائعين إلى الرغيف، وعندئذ يضع الحبّ جانبًا، والواجب جانبًا، فلا يخلط بينهما، ويترتّب على ضميره، بعد ذلك، إعطاء الأولويّة إلى أحدهما.. لقد تكلّم بشير الحكيم من خلال العقل، متناسيًا، وهذا ما ينبغي أن يكون، سقطته في ماء النبع من جرّاء العاطفة.. بدا متوازنًا، جريئًا، متفلسفًا، وفلسفته المبسّطة مفهومة، تغري بالمتابعة، بالتأمّل، بالتفكير، تثير، في رؤوس سامعيه، الأسئلة، والأسئلة لها أجوبة، فإذا لم يتوصّل إليها السامع، في مِكْنته أن يسأل القائل، فإذا لم يجبه بما يشفي غليله، فإنّ الأسئلة تبقى، والأجوبة في تطلّبها تبقى، والتجربة كفيلة، بعد ذلك، بأن تعطي السائل جواب سؤاله.

تنحنح أكرم الصيّاد، لفت إليه الأرقش، خرج من الدغل واقترب منه ببطء، معتزمًا أن يسرد على مسامعه ما قاله الحكيم بشير، كي يلفته إلى واقعه، يوقظه من غفلته، ينبّهه إلى واجبه، يطمئنه إلى أنّ رئيفة تحبّه، ولأنّها تحبّه فقد كادت أن تودي بعقل دغمش، ولعبت بعقل بشير الحكيم فأسقطته في ماء النبع، لكنّها، بنت أمّها، تطلبُ ممّن يحبّها رأس ذئب لا رأس خروف، وعلى الأرقش، إذا كان كفؤًا لها، أن يأتيها برأس الذئب الأسود لا برأس عصفور دوريّ، وعندئذ تعرف أنّ الذي يحبّها له قلب نسر لا قلب درغل!

ألقى أكرم التحيّة وجلس على بساط إبر الصنوبر، قائلاً

للأرقش إنّه كان هناك، مع الصيّاد بشير والآخرين، وإنّه سمع كلامًا كبيرًا، حلوًا، لم يسمع بمثله حياته كلّها، والكلام الكبير، لاستيعابه، يحتاج إلى رأس كبير، ورأسه هو، أكرم، ليس بالكبر الذي للآخرين، لذلك لا يستطيع أن يقول ما سمع، ما عدا أمرين: أنّ العاشق يصعد الجبل من جانب، ينحدر عنه من الجانب الآخر، وأنّ رئيفة، كما يتصوّر، مستعدّة أن تصعد معه الجانب الأوّل من الجبل، فإذا بلغا ذروته، عليهما أن يتشبّثا بها، فلا ينحدران من الجانب الآخر!

ابتسم الأرقش من دون أن يتكلّم. بطبعه، يكره الكلام، يصغي أكثر ممّا يقول. القول الفصل، الذي به وحده معنيّ، قتل الذئب الأسود، مع معرفته أنّ قتله غير مجدٍ مادامت كلّ قلعة، في كلّ غابة، تطلق بدل الذئب الواحد نسلاً من الذئاب، وأنّ اليوم الذي يطلق فيه، على أيّما قلعة، لم يأتِ بعد، وبانتظاره يحسن به أن يتدرّب على الإطلاق، وأن يحكم التسديد، كي يقتل في كلّ طلقة ذئبًا، وقتل الذئب ليس غاية في ذاته، إذا لم يكن هذا القتل رسالة لمن يربّي الذئاب، ولمن يطلقها على أرغفة الفقراء، ومع احترامه لحكمة الصيّاد بشير، في استنفار الناس لمطاردة الذئاب وقتلها، فإنّه يكره الحكمة، خصوصًا تلك التي «تعوي وتجعجع». . وكم من «حكمة» في كلّ مسألة، هذا شأنها دائمًا، تجعجع دون أن تطحن، والجعجعة، في هذا الزمن، تنتج نفاقًا، وحيثما يدير المرء رأسه يسمع جعجعة، ويسمع نفاقًا. فالناس، أكثر الناس، ألفوا هذا اللون الأصفر،

البائس، من الحياة، لهذا فإنّهم، دون أن يدروا، قد تعايشوا مع حياتهم الصفراء كجلودهم.. ورئيفة هذه، التي مهرها رأس ذئب لا رأس خروف، ستعنّس قبل أن تنال مبتغاها، ولأنّها حسناء، فإنّ كل مَن حولها يقول في نفسه: «هذا الحسن لي»، فإذا لم يكن له، تاه مثل دغمش، أو تبلّل مثل بشير، والدور، بعد، عليّ كما يظنّ أكرم، لكنّني أنا لا آبه بحسن رئيفة، وأفضّل عليها فدوى، وفدوى قد تفضّل غيري عليّ، وهذه هي المهزلة!

قال لأكرم:

ـ حكاية الصعود إلى الجبل، والانحدار عنه من الجانب الآخر، صحيحة جدًّا.. هذه هي حكاية كلّ رجل وكلّ امرأة في هذه الدنيا، إلاّ مَن عصم ربّك.

سأل أكرم:

ـ وأين أنت يا الأرقش من هذا الجبل؟

ـ في السفح!

ـ ألا تريد الصعود؟

ـ جبل الحبّ لا يصعده الرّجل وحده أو المرأة وحدها.

ـ ألا توجد هناك حبيبة تصعده؟

ـ توجد. لكنّها حتّى الآن لم تقرّر ما إذا كانت تصعده معي أو مع غيري..

ـ سلْها!

ـ السؤال، قبل أوانه، تطفّل على المسؤول، وهذا ما لا أريده.. الإشارة أحيانًا رسالة... وقد أشرتُ وأشرتُ،

وهذا يكفي. . الرسالة بلغت، ومَن تبلغه رسالة يُجب عليها، لكن التي أحبّها لم تجب، وأنا لا حدود لصبري. . أم تريدني أن أكون مثل غيري؟

ـ غيرك يحبّ رئيفة، ورئيفة، كما يُشاع في الغابة، تحبّك أنت. . المثل يقول: «عصفور في اليد ولا عشرة على الشجر!»

غرز الأرقش نظراته في عيني الأكرم، وقال بحسم:

ـ أنا أريد العشرة التي على الشجر. فإذا قلت لي «هذا اعتداد!» أجيبك: «وهل بقي لنا غير الاعتداد؟»، وما هو الاعتداد الصحيح؟ إنّه المبدأ، وهل بقي لنا، كما قال أحدهم، سوى المبدأ!؟ ولماذا نحن هنا؟ أليس لأنّنا أصحاب مبدأ؟ نعم! الحبّ مبدأ أيضًا، غير أنّ الحبّ لا يُشحد، فإذا لم يكن لا تنفع فيه الشحادة، ومن الأفضل أن نتعذّب دونه، على أن نتعذّب فيه، قصدت أن نضيعَ معه الكرامة.

أضاف الأرقش:

ـ الماء إذا لم يجر يسكن، ومع سكونه يستنقع، ينتن يا أكرم، ولست من شاربي الماء النتن. . إقامتي، في هذه الغابة، طالت، استنْقعتْ، وعليّ أن أعود إلى غابتي، كما عاد فيّاض إلى بلده. . تعرف قصّة فيّاض؟ لا؟ أنا أقولها لك: كان فيّاض، في جبل لبنان، محاصرًا بالثلج، كان يبرد، إلاّ أنّ البرد لم يكن من الثلج بل من الغربة، ودفعة واحدة قال: «وداعًا للغربة!» عاد إلى بلده، إلى ترابه، وما إن بلغه حتى انحنى فقبّله. . ثمّ أغمض عينيه على هناءة

الراحة بعد تعب.. في مدينته سيعيش، وفي مدينته سيكافح، وفيها سيستقبل الدينا بصدره، وأعداءه بصدره، وأصدقاءه بصدره، وقد هتف كأنّه يقسم: «أبدًا لن أهرب بعد الآن، أبدًا لن أهرب بعد الآن!». وأنا لم أكن هاربًا.. الأرقش لا يهرب، وقد جاء لمطاردة الذئب الأسود، وفي غابته التي سيعود إليها، سيعود لمطاردة الذئب الأسود، «هناك، يا أكرم، حبّي، وهناك كفاحي، وقد أرجع إلى هنا إذا اقتضت الضرورة، وإذا كان علينا أن نطارد الذئاب السود جماعة، فالفرد وحده، مهما يكن شجاعًا، لا يحقّق الانتصار للقضيّة التي يناضل لأجلها».

- ٨ -

فدوى التي عاد الأرقش إلى غابته الأولى لأجلها، كانت قد غادرت هذه الغابة إلى غيرها.* المصادفة لعبت دورها في هذا التفارق غير المقصود. إنّهما زميلان، صيّادان من صيّادي الغابات الاثنتين والعشرين. الهدف الأوّل لكلّ منهما قتل الذئب الأسود، إلاّ أنّ للمرء أهدافًا أخرى، في حياته والعيش، بعضها ظاهر وبعضها مستتر، ويأتي الحبّ، لا كهدف، وإنّما كضربة قدر، وعلى هذه الضربة، ومنها، تتناسل أهداف أخرى، وليس العكس!

إنّ ديوجين اليوناني، الفيلسوف الذي يحمل فانوسًا في النهار، بحثًا عن إنسان، والذي طرد الإسكندر الأكبر لأنّه حجب الشمس عنه، كان في سريرته يبحث، في الوقت نفسه، عن حبيب.. هذا ما لم يقله التاريخ، سكت عنه ظنًّا منه أنّ الفيلسوف قد اختار الفلسفة حبيبًا، هذا خطأ، التاريخ يخطئ، التاريخ يمكر، التاريخ يكذب، الفيلسوف رجل، وكلّ رجلّ يحبّ، كما كلّ أنثى تحبّ، وفي الحبّ انتصار وانكسار، ولا يستطيع، حتى المتبحّر في العلم، أن يزعم أنّ الفيلسوف، كإنسان، لم يحبّ، أو أنّه عازف عن الحبّ، بدليل أنّ أكثر الفلاسفة لم يشتهروا بحبّهم بل بفلسفتهم، وأنّ بعضهم لم يتزوّج، ولم تكن له أسرة، وهذا

كلّه صحيح، ومعه يأتي الأصحّ: الجميع أحبّوا، ما دام الجميع لهم قلب، وكلّ قلب يخفق، غير أنّ الخفقان، في العضلة التي تحت الثدي الأيسر، قد لا يقابلها بالضرورة خفقان مماثل، في صدر هذه المرأة أو هذه المرأة، وحتى لو كان التماثل قائمًا، فإنّ التخالف قائم أيضًا، والشهرة هي الصفة الغالبة عند المشهور، وديوجين اشتهر بفلسفته، لذلك لم يشتهر بحبّه مثل مجنون ليلى، لأنّ الحبّ، عند هذا الأخير، كان هو الصفة الغالبة.

فدوى التي خرجت لصيد الذئب الأسود، أحبّت بدورها، لكنّها اشتهرت كصيّادة أكثر ممّا اشتهرت كحبيبة، والأرقش اشتهر كصيّاد أكثر ممّا اشتهر كمحبّ، وهذا لا ينفي أنّه أحبّ فدوى، وأنّه رجع إلى غابته الأولى لاصطياد الذئب الأسود بحسب شعوره، ورجع، في لاشعوره، لأجل فدوى التي كانت قد غادرت الغابة التي رجع إليها.

الأسف في هذه المفارقة لم يستعلن، ظلّ في اللاّشعور كامنًا بقوّة عند الاثنين، وظلّ الاثنان يعيشان، في وهْم الوهْم، وهْمًا أكبر، غير واعيين السبب الحقيقي لنقلة أحدهما إلى غابة الآخر.. ظلاّ، في خِبْثِ اللاّشعور، يحاولان إقناع نفسيهما أنّ سريرتيهما نقيّتان، وأنّ لقاء أحدهما بالآخر، أو عدمه، سيّان تمامًا، فالدافع كما خيّل إليهما بسيط جدًّا: قتل الذئب الأسود! وماداما يجدّان وراء هذا الذئب، فإنّ الأمر واضح جدًّا.

لا. ليس واضحًا بهذه البساطة.. إنّ الإضمار هجوع مخاتل، يترسّب في قاع الذاكرة دائمًا، وكلّ هاجع إلى يقظة،

عاجلاً أم آجلاً، وعندما يستيقظ قد يُكبتْ بقوّة الإرادة، يصبح محكومًا بالصبر والتصبّر. وفي المكابرة، بدفع من الأنفة، قد يطول صبر المحبّ، على أمل أن ينفد صبر الآخر، المحبّ بدوره، وفي هذا لعب على العاطفة، أو على المموّه منها، لا يلبث أن ينكشف مهما يكن التمويه متقنًا، وعندئذ ينفجر في اللاّشعور شوق لا سبيل إلى ردعه، فيتهاوى المشوق مستسلمًا لمن كان الاشتياق، في الأصل، إليه.

اتجاهان معاكسان: الاتجاه الأوّل يسلكه الأرقش، في طريقه إلى قلب الغابة الأولى، غابته الحقيقيّة كما يدعوها؛ الاتجاه الثاني تسلكه فدوى، في طريقها إلى قلب الغابة الثانية، غابة الحكيم بشير كما تسمّيها.. كلّ منهما يسير، يبتعد، يفكّر، يغزل على نول المكْر أكذوبته، يزعم أنّه لم يأتِ لأجل مَن يحبّ، وأنّ الحبّ لا مكان له في المهمّات التي تُنذر النفوس لتحقيقها، وكلّ منهما صُدم، حين سأل عن الذي، في المضمر، جاء لأجله، متناسيًا بشكل عفوي المهمّة وما نُذر لها من نفس.

الصيّادون، في الغابة الأولى، أخبروا الأرقش أنّ الصيّادة فدوى انتقلت إلى الغابة الثانية، وبشير الحكيم، في الغابة الثانية، أبلغ فدوى أنّ الصيّاد أرقش انتقل إلى الغابة الأولى.. إحباط! الأرقش وفدوى في حالة إحباط، لكنّهما تستّرا، كما هي العادة في الشرق، على إحباطهما، دارياه بالابتسام، بالكلام على أيّ شيء، إلاّ على الحقيقة نفسها، إلاّ على الحبّ الذي يعتلج في صدريهما، خوفًا من جهة، وتقيّةً من جهة أخرى، لئلاّ ينكشف أمرهما فيكون التعيير من

قبل الصيّادين على فعلة هي العيب، ويزداد عيبها، لأنّ الحبّ في رأي الآخرين يخلّ بالمهمّة، وبهذا يصبح إثمًا مزدوجًا.

توقّف الأرقش ليستريح، ليفكّر على مهل، لا في العودة إلى الغابة التي جاء منها، بل لنزع قلبه وعكْس المعادلة، أي وضع العقل مكان القلب والقلب مكان العقل، في عمليّة مجنونة، يقتل فيها نفسه، أو يقتل التي تهفو إليها هذه النفس، انتقامًا من قلبه، الخافق لشيء يعطّله عن مهمّته في مطاردة الذئب الأسود.. لكنّه، بعد أن التقط أنفاسه من التعب، ضرب رأسه بجذع الشجرة التي يستند إليها، راغبًا في تحطيمه، لاستحالة ما يفكّر به من الاستبدال الممتنع. فالقلب عضلة يمكن الإمساك بها وانتزاعها، أمّا العقل فإنّه موجود في جوف الرأس، ولا سبيل إليه إلاّ بتحطيم الرأس الذي علّته في دماغه.

تصوّر الأرقش الدماغ الذي يعرف شكله، يعرف تداخل تلافيفه البيض، وانجدال هذه التلافيف بعضها على بعض، في حركة تعطي للدماغ أن يكون على شكل حبّة «مانْغا» بيضاء، لزجة، تتشوّه باللّمس، فلا تعود هي ذاتها بعد تشوّهها، ومن غير الممكن، إذا أُخرجت من الرأس، أن تُعاد إليه كما كانت، بعد تنقية علّتها منها، على فرض أنّ هذه التنقية يستطيعها حتى الجرّاح الماهر!

الشجاعة والحبّ، هذا الثنائي المنضفر، يحيل كرة أخرى إلى الدماغ، ومع الدماغ لا حيلة في الأمر، والشجاعة إذن لا فائدة منها في الخلاص من الحبّ الصعب، الذي يقال إنّ مركزه القلب، والقلب لا يتلقّى الأمر إلاّ من الدماغ، واللعبة

التي من البدء نشأت، تعود إلى البدء الذي نشأت منه، ومهما تتكرّر فالنتيجة واحدة: الموت أو الصبر! والأرقش لا يريد أن يموت، ولا طاقة له على الصبر، الذي به ومعه يتلاشى الحبّ تدريجيًّا. . فما العمل؟

ـ ما العمل؟ صاح هدهد على شجرة مجاورة.

هتف هدهد آخر:

ـ هذا هو السؤال الأزلي الأبدي.

صاء هدهد ثالث:

ـ الإنسان، يا أرقش، منذ وجد وهو يسأل: ما العمل؟ وكلّما سأل وجد الجواب على سؤاله دانيًا، فلا تيأس. . اليأس من الخَوَر مصدره، وأنت لست بيائس، أم أنّني مخطئ؟

قال الأرقش في نفسه: «اليأس بعيد عن شرفي، وهذا الهدهد لا يعرفني من الداخل، يحسبني خرعًا، وما أنا بالخرع، أنا الأرقش، وكلّ ما أريده هو الاستبدال: وضع العقل في موضع القلب، ووضع القلب في موضع العقل، فكيف السبيل إلى ذلك؟ أيّها الهدهد، يا صاحبي، كيف السبيل إلى ذلك؟ إنّ ما أريده، في هذا الاستبدال، هو حذف قلبي، والإبقاء على عقلي، وعندئذ يكون في وسعي التفرّغ لمطاردة الذئب، ويصبح بإمكاني التحرّر من الحبّ لتحقيق هدفي، وأنت تعلم أنّ التضادّ بين العقل والقلب يعطّل أحدهما الآخر، فمتى يخضع قلبي ويتسيّد عقلي؟

أجاب الهدهد:

ـ عندما تريد ذلك حقًّا!

ـ وإذا كنت أريده حقًّا؟

ـ تكون كذْبتُك بلقاء.. أنت يا أرقش محموم، أنت تهذي من الحمّى، فنم قليلاً تسترح.

ـ وإذا استرحت؟

ـ يصير بإمكانك أن تفكّر بهدوء، برويّة، بشكل صحّ. وعندئذ ينتفي، من خيالك، ما تزعم من تعارض بين العقل والقلب.. وإلاّ جننت!

«درجت، في هذه اللحظة، حمامة بيضاء أمام الأرقش، اقتربت منه، فردت جناحيها، كأنّها تهمّ بالطيران، لكنّها لم تطر، راحت تخلع جناحيها، تشرئبّ بعنقها، تنفض عنها ريشها، تنتصب بقامتها، تستوي واقفة، تفتح ذراعيها، تعانق الأرقش المندهش، المحموم، وبلطف تمدّ زندها، توسّد رأسه زندها، وتقول له بحنان: «أنا فدوى.. نم يا حبيبي نم.. نم على زند حبيبتك!» وبأناملها الرخصة تمسّد عينيه، تطبقهما فينطبقان، ويأتي النوم ليأخذه إلى مملكة غرائبيّة!»

قال دغمش لبشير:

ـ أليس من أمل يا حكيم؟

قال بشير:

ـ حبل الأمل طويل، ولابدّ أن يكون حبل الصبر كذلك.

ـ وبعد الصبر الطويل تكون رئيفة لي؟

ـ هذا ما لا أعرفه. لكنّني، من ناحية أخرى، كنت على يقين دائم أنّ الصبر يزهر ويثمر.. أمّا في مجال الحبّ فإنّ

الأمر يختلف. . الحبّ، يا دغمش، لا يكون بالقوّة، ولا بالجنون. . الجنون يأتي بالشفقة، وأنت، كقنّاص سابق، لا أظنّك تقبل الشفقة، وأنت، كصيّاد في هذه الغابة، من باب أولى أن ترفض الشفقة. هذه التي لا تتلاءم مع الكرامة الشخصيّة. . ارفض شفقة الحبّ، ارفضها!

ـ ولماذا لم يرفضها الأرقش؟

فكّر الحكيم بشير وقال:

ـ لم أسمع يومًا شكوى حبّ من الأرقش، الذي عاد إلى غابته الأولى الآن.

ـ رئيفة تحبّ الأرقش.

ـ والأرقش يحبّ فدوى، إنّما السؤال هو: فدوى تحبّ مَنْ؟

قال دغمش كمن ينقل خبرًا مفرحًا:

ـ فدوى، يا حكيم، في هذه الغابة. . انتقلت إليها يوم انتقل الأرقش إلى الغابة الأولى التي كانت فيها. . هل تحسب ذلك مصادفة؟

ـ ولِمَ لا؟ المصادفات تلعب دورها في الحياة، ولكن قل لي: لماذا أنت فرح بمجيء فدوى إلى هذه الغابة؟

قال دغمش بخبث:

ـ أنا فرحٌ، نعم! ولكن لماذا، لست أدري!

تفرّس فيه الحكيم بشير، وقال:

ـ بلى! انت تدري، هذا الفرح ليس مجّانًا، هناك قصد، هناك غرض، فما هو؟

نبح دغمش:

ـ ولماذا تسأل بهذه اللهجة التي أرفضها!؟ هناك، في رأيك، غرض، وسواء كان أو لم يكن، فإنّني لا أقدِّم تقريرًا عنه لك أو لغيرك.. هذا شأن يخصّني وحدي!

ردّ الحكيم بهدوء:

ـ اسمع يا دغمش! نحن هنا، في هذه الغابات، لهدف وليس للتسلية.. أعرف من أين جئت، وماذا كنت تقنص، وكي أزيدك معرفة بنفسك عليّ أن أصارحك: أنت، حين أقسمت بأنّك تبت عن قنص البشر، لم أصدّقك، ولم تصدّقك رئيفة أيضًا، وأنا لا أخاف الذئب كذئب، أخاف الذئب عندما يلبس ثوب الحَمَل، وزيادة في الإيضاح أقول لك: الذئب الذي أقصده هو الذئب الأصفر، الموجود في هذه الغابات، وليس الذئب الأسود الذي نطارده فيها.. أنت ذئب في ثوبِ حَمَل، والذئب عندما يلبس هذا الثوب، تكون له غاية هي الغدر، فإذا غدرْتَ هناك، في المدينة، خلال الحرب الأهليّة، وعشت على قنص البشر، فإنّك لن تستطيع ذلك هنا في الغابة.. هل تفهم!

زعق دغمش:

ـ لا. لا أفهم، ولا أريد أن أفهم.. رئيفة التي أكاد أجنّ بسببها، هي نفسها التي هزئت بك ورمتك في ماء النبع.. ولو كنت مكانك لقتلت نفسي أو قتلتها!

قال الحكيم بشير:

ـ ما قلته حدث بالفعل، أنا ذكر ورئيفة أنثى، ومن

الطبيعي أن يشتهي أَحدهما الآخر، وقد أغراني جمال رئيفة، فتنني غنجها، وكأيّ رجل وقعتُ في فخّ هذا الإغراء، ظنًّا منّي أنها لا ترفضني. أكثر من ذلك، تريدني أن أحتويها بين ذراعي، وأقبّلها ولو من خدّيها، إذا لم أقل من فمها، وكان هذا خطأ لست أنا المسؤول عنه، المسؤول عنه جمالها، لماذا هي جميلة إلى هذا الحدّ؟ قل أنت!

قال دغمش وقد التهب مغناه:

ـ إنّك، يا حكيم، ترمي على عواطفي التي هي من قشّ عود كبريت مشتعل.. أنت لا تقول هذا لنفسك، تقوله لي، تقوله لنفسي الجائعة، وماذا يفعل الجائع أمام الطعام الشهيّ؟ يأكل أو يموت؛ لكنّني لم آكل ولم أمت، انطلقت في الغابة هائمًا، مجنونًا، مسعورًا إلى حدّ النهش.. إلى حدّ أن أنهش، كالكلب، جسم التي حلمت بجسمها في يقظتي ومنامي، وبعد هذا كلّه تزجرني؟ تشكّ في توبتي عن القنص؟ تقول إنّني ذئب في ثوب حَمَل؟ وأنت، ألست ذئبًا في ثوب حَمَل؟ أنت الحكيم فُتنتَ، فكيف لا أفتن أنا الجاهل بالنسبة إليك؟ أفكّر، أحيانًا، أن آكل رئيفة وأستريح، رغم أنّني لست من أكلة لحم البشر! أمّا فدوى، التي بلغني أنّها تحب أرقش، فإنّني لست في وارد حبّها، مع ذلك سأذهب إليها، سأتودّد لها، سأشيع، حيثما ذهبت، أنّ لي علاقة بها.. وذلك لغاية في نفسي.

قال الحكيم بشير:

ـ أعرف هذه الغاية، إلاّ أنّه من المشكوك في نجاحها.. فدوى سترفضك، وقد تقسو عليك فتضربك، وحتى

تقتلك.. إنّها، كما بلغكَ، تحبّ الأرقش، وقد جاءت هاربة من هناك، لأنّها تريد، في هروبها، أن تجعل مَن تحبّ يلحق بها، غير أنّ الأرقش لن يلحق بها، لأنّه، هو أيضًا، يريدها أن تلحق به.. هذا ما يسمّونه لعبة القطّ والفأر، والفائز فيها الأقوى على التحمّل، لا بالجسم وإنّما بالرّوح، وما فيها من طموح إلى الانتصار، وكي تنتصر تتحمّل، وصاحبها الذي اختبر سراديبها يفهم ما في هذه الدهاليز من مكر، فإذا فهم مكر بدوره، وهكذا تصبح المعركة بين مكر ومكر، وأنت تريد أنْ تمكر برئيفة بتقرّبك من فدوى، إلاّ أنّ اللّعب بينهما مصيره الفشل.. عد إلى المدينة وتزوّج، اقنص امرأة ترتاح إليها، وسيكون قنصك، هذه المرّة، حلالاً.

قال دغمش بتسليم:

- هذا مستحيل.. ما تقوله صحّ ولكنّه مستحيل، إمّا رئيفة أو لا امرأة غيرها!

فكّر الحكيم بشير، وقال:

- تذكّر ما قالته لك رئيفة: «مهري رأس الذئب الأسود!»

- وسآتيها به.. هذا عهد!

- وإلى أن تأتيها به، كفّ عن مضايقتها.. انْسَها يا دغمش!

- تعرف جوابي: فلتأتِ إليّ، لأنساها فيها.. أنا لن أمسّها، سأراها فقط.. هل الرؤية، مجرّد الرؤية، حرام؟

- لا! ليست حرامًا، الأفضل أن تأتي في وقتها.. كم

مرّة قلت لك: الحبّ لا يصير بالإكراه؟

ـ وبالشحادة؟

ـ يصبح موقفك أضعف.. لو يُشحد الحبّ لشحده الكثيرون والكثيرات، إنّما، في هذه الحال، وحتى لو شحّدتِ الحبيبةُ حبيبَها ما يطلبْ، أو بالعكس، ينقلب ما بينهما عبوديّة.. تريد أن تكون عبدًا؟

ـ أريد.

ـ عبد شهوتك؟

ـ عبد شهوتي.

ـ ورجولتك؟

ـ أضعها تحت قدمي التي أحبّ.

ـ أنت تهذي.. أنت محموم وتهذي.. لنؤجّل الكلام على هذا الموضوع.

ـ قبل أن نصل إلى نتيجة؟

زعق به الحكيم بشير:

ـ وهل النتيجة في يدي؟ إنّني ذاهب إلى الأرقش.

ـ وأنا ذاهب إلى فدوى!

الصيّادون، في الغابة الأولى، عثروا على الأرقش نائمًا، تجمّعوا حواليه، جسّ الطبيب بينهم ذراعه، ووضع راحته على جبينه، كانت حرارته مرتفعة، ومن هذيانه بين النوم واليقظة أدرك الطبيب، في تشخيصه للمرض، أنّه محموم.. كانت الحمّى، في وجهه الضارب إلى الحمرة وعينيه

الذابلتين، تصرخ: إنّني هنا! لكن ما نوع هذه الحمّى؟ وماذا على الطبيب ياسر أن يفعل؟ وكيف ينقذ حياة الأرقش، في غابة لا عيادة فيها ولا صيدليّة؟ وماذا لو كانت حمّى معدية؟ لديه، في الحقيبة الطبِّيَّة، خافض حرارة، لديه أيضًا بعض المسكّنات، وهذا يفيد في المرحلة الأولى، ولكن بعدها؟ لا بدّ من فحص الدم، وفي الغابة لا يوجد مختبر، لا يوجد سرير، لا توجد خيمة لعزله فيها، الوضع خطر، معقّد.. وياسر، كطبيب، رجل علمانيّ، يقدّر قيمة الإنسان كإنسان، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعيّ، ودونما اعتبار لمذهبه أو عقيدته، وسواء كان مؤمنًا أو ملحدًا، ففي الدولة العلمانيّة تنتفي كلّ هذه الاعتبارات، وينتفي معها الإيمان إلاّ بالعلم، والعلم لا يجيز منطق الخرافة، رافضًا، بشكل قاطع، الرقى والتعاويذ، وحتّى المداواة بالأعشاب تحتاج إلى خبرة، وهذه غير متوافرة. إذن الحلّ، كما قال للصيّادين المتجمّعين حول الأرقش، في أحد اثنين: نقل المريض إلى أحد مشافي المدينة، أو توفير وسائل المعالجة هنا في الغابة، وسواء اعتمد هذا الحلّ أو ذاك، فلابدّ من توافر المال.

قال الصيّاد صقرش:

- وتوافر الأمان أيضًا يا طبيب.. المريض ليس أيّ مريض!

أيّدته الصيّادة قمْطرة:

- نعم! المريض ليس أيّ مريض.. الحذر واجب.

قال الطبيب ياسر:

ـ المريض، رغم أنّني لا أعرف قصّته، صيّاد مثلنا، يطارد الذئب الأسود، فهل مطاردة الذئب الأسود جرم يعاقب عليه القانون؟

قال صقرش:

ـ عن أيِّ قانون تتحدّث يا طبيب؟.. قانون المجتمع المدنيّ؟ قانون الدولة العلمانيّة؟ قانون دولة القانون؟ تعرف مصير الذين طالبوا بمثل هذه القوانين. منذ كم من الوقت عدتَ من البلاد التي كنت تدرس فيها؟ ومنذ أيّ عام جئت إلى هذه الغابة، وحملت السلاح لقتل الذئب الأسود؟ منذ شهور. نحن هنا منذ سنوات، وأنت مستجدّ بيننا، دفعتك إنسانيّتك للانضمام إلينا، أمّا نحن فقد دفعنا الحرمان، دفعنا الجوع لمطاردة الذئب الذي يأكل رغيفنا.

قالت قمْطرة:

ـ تمام يا طبيب، الذي دفعنا هو الجوع.

قال الصيّاد ميلاد:

ـ ومع الجوع، يا طبيب، الحرِّيَّة.. نحن جياع ومقموعون.. هنا نتدبّر رغيفنا، نستنشق نسيم حرِّيَّتنا، نطارد الذئب الأسود الذي اغتصب كسرة الخبز ونسمة الحرِّيَّة، أمّا مريضنا هذا، فإنّه يذهب أبعد ممّا نذهب، يقول إنّ مصدر الذئاب السود هي القلاع، وأنّ علينا أن نعي حقيقتها، ونتخذ موقفًا منها!

قال الطبيب ياسر:

ـ فهمت، بقدر المستطاع، سبب حذركم من نقل

الأرقش إلى المدينة، ليعالج في أحد مشافيها.. إنّه، كما يبدو، غير مرضيّ عليه هناك.. كلامه على القلاع أزعج أصحاب القلاع، وضع الإصبع على الجرح.. الأفضل أن يعالج هنا، في الغابة، ألا توجد خيمة في الغابة؟

قالت قمْطرة:

ـ الخِيام في الطرف الآخر من الغابة.

ـ ونقله إليها، في الحال التي هو عليها من المرض، فيه مجازفة.

صاح الصيّادون:

ـ لا نريد أيّ مجازفة!

أضافوا:

ـ نحن نبني له خيمة من أغصان الأشجار، في المكان الذي تراه مناسبًا.

قالت قمْطرة:

ـ وأنا أسهر عليه وأمرّضه.. لي خبرة في مثل هذه الأمور.

قال الطبيب:

ـ اتّفقنا.. من يذهب معي إلى المدينة؟

قال ميلاد:

ـ أنا.

ذهبا معًا، لكنّهما، في الطريق، كانا على صمت غير مبرّر. ميلاد يتساءل: «هل يشفى الأرقش؟ تعود له عافيته

بعد هذه الحمّى الخبيثة؟ يعود ذلك النمر الذي يهابه الجميع؟ ترجع فدوى إليه؟ بلغها خبر مرضه؟ تعرف أنّها، إلى حدّ ما، كانت السبب في هذا المرض؟ لماذا يمرض الرّجل لأجل امرأة؟ لماذا يضعف أمامها مهما يكن قويًّا؟ خرجنا لقتل الذئب الأسود، وها نحن يقتل بعضنا بعضًا بغير سلاح، عيناها كانتا سلاحًا، عيناها خانتا المودّات، حوّاء مرّة أخرى، آدم مرّة أخرى، حوّاء أشجع من آدم، أغرته بالتفّاحة، اللّعنة على التفّاحة، اللّعنة على الأفعى، هي التي وسوست في أذن حوّاء. الغريب، أنّ الحكيم بشير يبارك حوّاء، يبارك الأفعى، يبارك التفّاحة، يقول إنّ الجنّة ليست إلاّ معبرًا للأرض، وإنّ الحبّ والكفاح، في الأرض مجالهما، وإنّ بدء التاريخ كان بدء الحياة المشتركة للرجل والمرأة، وإنّه لا غنى عن المرأة، وإنّ ديوجين، الذي كان يحمل مصباحه في النهار بحثًا عن إنسان، كان يبحث، في اللاّشعور، عن المرأة ـ الإنسان، وإنّ أبا العلاء المعرّي قد أعطى في الفلسفة والفكر ما أعطاه، ناكرًا التفّاح في وجنات المرأة، فماذا «لو ذاق شمائل التفّاح في وجناتِها؟» أيّ آفاق جديدة كانت ستنفتح له؟ وأيّ مجاهل كان سيرتاد؟ ولماذا ذاق بشّار بن برد بعض شمائل التفّاح في المرأة، وهو كفيف، بينما تأبّاه المعرّي؟ بشّار مارس حياته، خرج من محبس عماه، عرف الدنيا، لعب دوره في هذه الدنيا، قال فيها أصدق ما يقال، اتّهم بالزندقة، جُلد حتى الموت بسببها، فهل كان زنديقًا حقًّا!؟ وكيف يكون زنديقًا والمعرّي ليسَ كذلك؟ الفارق هو الزمن، زمن بشّار غير زمن المعرّي، لكلّ زمن قانونه، ودون أن نعرف الزمن وقوانينه،

نخطئ في الحكم على الذين عاشوا فيه، وعمر بن الخطّاب، ببعد نظره، لاحظ تغيّر الزمن، قال: «لا تقسروا أولادكم على عاداتكم، فقد خُلقوا لزمان غير زمانكم». رأس الحكيم بشير، الذي يطارد الذئب الأسود مثلنا، يختلف عنّا، إنّه رأس ينغل بالأفكار، وعندما يُشفى الأرقش، سألتحق ببشير، آخذ عنه وأحاوره، فهو، كما لاحظتُ من معاشرته، لا يضيق بالحوار، ويقرّ حقّ الاختلاف فيه، ويحرّض على النبش في جذوع الشجرة لرؤية ما فيها، إنّه من أنصار تقليب كلّ شيء: الأفكار والأحجار وجذوع الأشجار.. ما رأيك يا طبيب؟

قال الطبيب:

ـ رأيي أن نحثّ الخطا، لأنّ حالة المريض تدعو إلى القلق، ونحن سنذهب إلى أحد المخابر أوّلاً، للحصول على الأنابيب المعقّمة وشراء بعض الأدوية، ثمّ نعود إلى الغابة بسرعة، وغدًا صباحًا نسحب الدم اللازم على الرّيق، فتحمله إلى المخبر، وتبقى في المدينة حتى تتسلّم نتائج الفحص، وترجع بها إلينا ولو في اللّيل، دون أن تذكر اسم المريض أو مكان وجوده، ومن جهتي سأحتاط فأضع في ورقة الفحص اسمًا آخر، وليكن صقرش مثلاً.. لا تخف، فكّرت بكلّ شيء، وستسير الأمور على ما يرام، إلاّ إذا كانت هناك إصابة بالحمّى المالطيّة، التي تستغرق معالجتها مدّة غير قصيرة.

سأل ميلاد:

ـ ألا يمكن تشخيص الحمّى المالطيّة من علامات تظهر على المريض؟

ـ لا يمكن! فحص الدم ضروري جدًّا، فالعلاج يتوقّف عليه.

ـ وهل هناك خطر على حياة المريض؟ أعني هل الحمّى المالطيّة قاتلة؟

ـ الحمّى، يا ميلاد، أنواع، وبعضها قاتل إذا لم يعالج بسرعة. . الموقف دقيق، والسرعة ضروريّة.

ـ لديّ رأي في موضوع المعالجة. . علينا، مع الدواء، أن نحضر فدوى لتمريضه.

ـ ومن فدوى هذه؟ ممرّضة؟

ـ حبيبة!

ـ وما علاقة الحبّ بالمرض؟

ـ علاقة، بحسب رأيي، مهمّة. . الأرقش يحبّ فدوى، وقد أصيب بالحمّى بسببها، وهو عاد إلى هذه الغابة لأجلها، وكانت هي قد انتقلت إلى الغابة التي كان فيها، فشكّل ذلك صدمة له.

قال الطبيب ياسر:

ـ الصدمة تولّد، في هذه الحال، مرضًا نفسيًّا لا جسديًّا. . ولسنا الآن في وارد السبب بل النتيجة.

ـ معرفة النتيجة تتوقّف على معرفة السبب.

زعق الطبيب:

ـ هل توصّلت إلى النتيجة قبل ظهور التحاليل؟ هناك علاقة ما، لكنّها ليست كما تظنّ.

ردّ ميلاد:

ـ هذه العلاقة الافتراضيّة، حتى لو كانت جزئيّة، لها دور في الرجّة التي أصابت الأرقش. أنا لا أفهم في الحميّات، لست طبيبًا، لكنّ الأرقش والحكيم بشير هما كلّ شيء في هذه الغابات، وهذا هو سبب ما أنا فيه من خوف على الاثنين.

قال الطبيب:

ـ اسمع يا ميلاد! بعد خروجنا من الغابة، نمشي مسافة إلى أمام، بعد ذلك نركب سيّارة أجرة مهما يكن نوعها، وفي عودتك تفعل ما نفعله في ذهابنا.. تقول إنّ الأرقش إنسان مهمّ؟

ـ وكذلك الحكيم بشير.

ـ وما سبب هذه الأهمِّيَّة؟

ـ الحكيم بشير عقل الحملة على الذئاب السود، والأرقش يده الضاربة.

ـ كنت تفكّر بهما خلال صمتك الطويل هذا؟

ـ فكّرت بأشياء كثيرة.. ما رأيك بالتفّاحة؟

ـ بالنسبة للمريض؟

ـ بالنسبة للأفعى!

توقّف الطبيب ياسر، وقال:

ـ دعني أضع كفّي على جبينك، لأتأكّد من أنّك غير محموم، وأنّ العدوى لم تنتقل إليك.

ابتسم ميلاد، وقال:

ـ اطئمن يا طبيب! أنا بخير.. كنت أفكّر، طول هذا الوقت، بما سمعته من الحكيم بشير.. تعرف ديوجين؟ نعم؟ إِذن كنت أفكّر بديوجين!

ـ وإلامَ وصلت في تفكيرك؟

ـ لا غنى عن المرأة، حتّى بالنسبة لديوجين نفسه.. إنّما حذار منها.. حذار من المرأة!

ـ هذا تناقض يشبه الهذيان.. أنت تقول إنّ الأرقش أصيب بسبب تلك المرأة.. ما اسمها؟ فدوى؟ طيّب! كيف أصيب بسببها، وكيف تقترح أن تأتي لتمريضه؟ وإذا سلّمنا بهذا وذاك، لماذا تحذّر منها؟

قال ميلاد:

ـ لأنّها ذات صلة، إيجابيّة كانت أم سلبيّة، بالنسبة للمعرّي وبشّار بن برد وديوجين والتفّاحة والأفعى..

قاطعه الطبيب ياسر قائلاً:

ـ كفى.. كفى! أنت محموم يا ميلاد، والحمّى، التي فيك، كامنة.. يجب أن تحلّل أنت أيضًا!

- ٩ -

كان تعليق فدوى على مرض الأرقش موجزًا:

ـ هذا أوّل ذئب أصهب أصطاده!

تأمّلها نافع الداري، خرّيج الآداب والحقوق، الصيّاد الماهر، من مدرسة الأرقش الغابيّة، الحامل مثله فكرة الإطلاق على القلاع أوّلاً، باعتبارها منشأ الذئاب السود، وقد قال، بعد أن تمدّد على الأديم الشوكيّ لإبر الصنوبر:

ـ لن تبلغي أن تكوني جورج صاند أخرى.

قالت فدوى بكبرياء، وهي تنتصب شامخة بقامتها الفارعة:

ـ وأنت لن تبلغ أن تكون دون جوان العصر، أو حتى ردولف ڤالنتينو!

قال نافع بلامبالاة:

ـ أنا لن أكون الاثنين، ولا أستطيع أن أكون، كما لا أريد أن أكون، إنّني نافع الداري فقط، صيّاد الذئاب السود، ومن أجل ذلك أحمل السلاح في هذه الغابة، بعد أن طوّفت في الغابات الاثنتين والعشرين لهذا الوطن العربي، المنكوب بقلاعه ومَن فيها من أسياد، ومن كلاب وثعالب وقطط، ورأيت.. خلال تطوافي الطويل، الكثيرات

من أمثالك، اللواتي جئن إلى بعض الغابات، أو ربّما كلّها، لسبب بسيط: هو أنّ التواجد فيها على الموضة؛ وحمل السلاح، مثل شرب نراكيل المعسّل، على الموضة أيضًا.. هل تعرفين الصيّادة قمْطرة؟

سألت فدوى بلااكتراثٍ يخفي بعض حنق داخلي:

ـ ومن هي قمْطرة هذه؟

ـ صيّادة غجريّة حقيقيّة، شجاعة، مقدام، حملت السلاح للقتل لا للغواية، جاءت الغابات لغرض شريف، كشريك مساوٍ لنا فيه، وربّما أكثر، ولم تحد عنه.. وأحسب أنّها لن تحيد عنه مهما تكن الصعاب، إنّها شكيبة أخرى، لا جورج صاند أخرى، مع احترامي الشديد لشكيبة، التي حوّلت زكريا المرسنلي من وحش إلى إنسان، واحترامي الأشدّ لجورج صاند التي، رغم نزواتها، كانت إلى جانب الحقّ، جانب الفقراء، جانب المستضعفين، في أكثر كتاباتها..

قاطعته فدوى، وهي ترفع شعرها الكستنائي المبعثر على كتفيها:

ـ وأنت، أيّها الفيلسوف المستلقي على قفاه، كتنابلة السلطان، ماذا فعلت حتى الآن، أو ماذا ستفعل بعد الآن، كي تثبت أنّك مثل الصيّاد صقرش، الذي حمل السلاح للمطاردة لا للنوم، أو للاضطجاع تحت شجرة التفّاح مثل آدم، بانتظار أن تسقط الثمرة في فمه!؟ إنّني أصرخ في وجهك، كما صرخت حوّاء في وجه آدم، انهض!

أضافت فدوى باهتياج:

ـ نعم! أنا التي اصطدت الأرقش، وأنا التي أغويته، وهذا من حقّي، وقد فعلت ذلك بسهولة ويسر، دون تعب، وأنا مَن أثرْتُ غلمته بسهولة ويسر أيضًا، ثمّ لوّحت له بالطعم في صنّارة الأنثى، فعلق هذا الفرخ البوري بها وبإحكام، من دون أن يفطن إلى الطعم، ومن دون أن يتمكّن حتى من ابتلاعه، لأنّه ذكر، لأنّه سمكة في بحر، وتجهل أنّها في بحر.. أنتم، جميعًا، هذه السمكة، وأنتم، جميعًا، مَن تستعبدكم شهوتكم فتُعمى عيونكم، أنتم أرانب، مفتّحة عيونكم ولا ترى. وهذا الأرنب، الذي اسمه الأرقش، أقلّ من أرنب، التقيته في طريقي فلم أطلق عليه، لقلّة شأنه بالنسبة إليّ، لكنّه لم يرعوِ، تابعني، لاحقني، استعطفني، تضرّع إليّ، وللخلاص منه أطلقت عليه رصاصة الهزء، غير مدركة أنّ الهزء به، هو أنفذ من طلقة الرحمة عليه.. وماذا كانت النتيجة؟ الصدمة! صُدم صاحبك فأصيب بالحمّى، وهو الآن محموم، ضعيف، شلو، يهذي، وسيظلّ يهذي حتى يموت، وعندئذ سأذهب وأرقص على قبره حيثما كان.. وأنا! مَن أنا؟ امرأة جميلة. انظر إليّ! ألست جميلة؟ وأنت، مَن أنت؟ رجل قبيح! وكيف يتآلف الجمال والقبح؟ ولماذا تلاحقني بدورك، دون أن تتّعظ، يا مغفّل، بمصير صاحبك؟ أنت الآخر أرنب، العينان مفتّحتان ولا تريان.. لا تخف، لن أطلق عليك، لا أطلق على أرنب، ولا أتملّقك بحسني مثل دليلة. أنت لست شمشون وأنا لست دليلة.. هذه غادرة، والغدر عيب لا أقاربه، آتي الرّجل من أمام، في وجهه، أغرز نظراتي في نظراته، وعيناي تتكفّلان بالإجهاز عليه.. ما لك؟

هل أنت محموم «يا صريع الغواني!»؟

قال نافع الداري، بعد أن استوى جالسًا، كلمة واحدة:

ـ هذا كذب!

أضاف دون أن يرفع رأسه المطرق:

ـ أنت كاذبة يا فدوى.

ثمّ نهض واقفًا دون أن يتلفّظ بحرف، نفض يديه من تراب الأديم، اتّكأ على شجرة صنوبر، راح ينزع لحاءها، أخرج بعض الصمغ، تنشّق شذاه، جمع القشور، كوّمها على الأرض، احتطب الأغصان اليابسة، صنع بيدرًا صغيرًا منها، أخرج سكّينًا، ملخ شظيّة من المرخ، أشعلها بهدوء، دفع بها في باطن الحطب، علا اللّهب، اتّقدت النار، جاء ببعض الجذوع، أضافها إليها، تجمّرت الجذوع، أخرج من حقيبته بطّة برّيَّة، نقّاها من وبر الرّيش، شكّها بعود أخضر، أنضجها على مهل، فرش منديلاً، قطّع الخبز.. وقال:

ـ هل تتفضّل الملكة بلقيس بمشاركة سليمان الحكيم طعامه؟

نبرت فدوى:

ـ أنا لست الملكة بلقيس!

قال ببرود أعصاب:

ـ ولا أنا سليمان الحكيم.

ـ لماذا الهزء إذن؟

ـ لا تخلطي التكريم بالهزء.

ـ قلت عنّي إنّني كاذبة!

ـ تعرفين أنّ ذلك حقيقة.

رفعت بندقيّتها مصوّبة إليه، وقالت:

ـ أنا كاذبة؟

ـ أنتِ كذوب! والفرق بين الكاذبة والكذوب كبير وواضح، وزيادة في الإيضاح أشرح لك هذا الفرق: الكاذبة هي التي تكذب مرّة واحدة، والكذوب مَن يكون الكذب طبعًا في نفسها.. هيّا! أطلقي عليّ، صوّبي إلى الجانب الأيسر، إلى القلب مباشرة، وعندئذ لا تحتاجين إلى طلقة الرحمة!

قال ذلك ووقف قبالتها تمامًا، كشف صدره، مزّق الفانيلة التي تحت القميص، أشار إلى موضع القلب وقال:

ـ سدّدي إلى هنا، وبإحكام.

انتظر، لم تطلق، انتظر، لم تطلق، تقدّم نحوها بهدوء، ظلّ يتقدّم، يتقدّم، إلى أن حاذاها، لاصقها، أمسك ببندقيّتها وقال:

ـ ألا أستحقّ، أنا الأرنب، طلقة من هذه البندقيّة الجميلة مثلك؟

صاحت:

ـ أنت وغد!

ردّ وهو ينظر في عينيها نظرة شماتة:

ـ إنّما أنا مثل صاحبي.

ـ صاحبك وغد أكثر منك!

ـ في هذا أنتِ على حقّ.. قلت لكِ إنّني من مدرسته.

ـ صاحبك القذر ليس له مدرسة!

ـ بلى! له مدرسة، وأنتِ منها.. أنت تحبّينه يا فدوى، يا صيّادتي العزيزة، تحبّينه حتّى النخاع، أو حتّى مفرق هذا الشعر الذي يؤطر وجهك كهالة.. ولكنّ السؤال يبقى: هل يحبّك هو؟ طبعًا أنت أدرى، أنت تعرفين الأرقش أكثر ممّا أعرفه، وقد علمتِ، من الصيّادين، أنّه عائد إلى غابته، فماذا فعلتِ؟ تسلّلت إلى هذه الغابة هربًا منه، الأصحّ هربًا من حبّك له، وهذا باطل الأباطيل كما قال الجامعة، لا مهرب من الحبّ يا زميلتي، الحبّ، عندما يكون مركزه الدماغ، فأين تهربين من دماغك؟ تعرفين لماذا يركض المجنون؟ أنا أقول لك: كي يهرب من دماغه، دون أن يدرك أنّ دماغه يركض نحوه، ولا مهرب منه.. ثمّ لماذا نهرب من الحبّ؟ الحبّ لذيذ ومبارك، والذي قال: «داوني بالتي كانت هي الداء» كان يعبّر شعرًا عن دائه، وكان يفهم بعمق أنّ الدواء بالداء نفسه، وهذا ينطبق على الحبّ، ولا دواء للحبّ إلاّ بالحبّ نفسه.. تعالي نأكل، تعالي.. تبكين؟ ولماذا البكاء؟ ما نفعه؟ الأرقش سيشفى من الحمّى، وسيكون لك كما أنت له، والمستقبل مفتوح على الأفق دائمًا، فحذار من اليأس، «رجاء المؤمن لا يخيب إلى الأبد». إنّه، مع السعي، يتحقّق، وحبّك سيتحقّق.. صدّقيني!

زعقت فدوى من بين دموعها:

ـ أنت، يا نافع، أبله! أنت لا تفهم المرأة، أنا لا أبكي لأجل الأرقش.. أنا...

ارتمت فدوى على صدر نافع وهي تبكي، وبقبضتيها راحت تدقّ على صدره، تدقّ بقوّة، تنشج أعلى فأعلى، تحتضنه وتصرخ:

ـ أنا أحبّك.. أنت، أنت، أنت!

ـ والأرقش؟ ألا تحبّين الأرقش؟

رفعت رأسها، نظرت في عينيه، التقت العيون الأربع، رأى نافع طيفًا من الاحمرار في عينيها، خاف عينيها، خاف وجهها، كان مهسترًا وجهها، كانت شفتاها ترتجفان، كانتا شاحبتين ترتجفان، كان لهب الشهوة الحمراء يرتسم عليهما، يتّقد في البياض منهما، يلتمع في البؤبؤين الفاجرين، في الفم الفاغر، المتنزّي في الوجنتين الشبقتين الضارعتين، في الجبين المحموم ولا حمّى، في الشعر المبعثر المغري بتهتّكه، في الأنفاس الحارّة اللاهثة في الجسم اللّدن، الساخن، في الحوض الذي راح يلتصق بالحوض، يضغط، يضغط، يعنف في ضغطه، يعنف أكثر، في الوجه الذي بين كفّي نافع، يحاول جاهدًا أن يقترب، أن يصل، أن يتفلّت، أن يهجم، في الأسنان البيض، في النابين الرهيفين، المتشوّقين للعضّ وللنهش، في اليد المسعورة وهي تفكّ أزرار القميص المستعصية من اضطراب، في النهدين المكوّزين، تفكّ منهدتهما فيشرئبّان نافرين، في الشجو الأبحّ للهدهد المستثار وهو يصيح من على الشجرة:

زوّدينا من حسن وجهك ما دام فحسن الوجوه حالٌ تحولُ

فيجيبه هدهد آخر أشدّ استثارة:

وصلينا نصلْك في هذه الدنيا، فـإنّ المـقـام فـيهـا قـليلُ!

ويَصِلُ نافع في ذكورته فدوى في أنوثتها، يفترشان الثرى، يفترعان عاريين، يغيبان في حمأة الخنى، يشبعان النفسين الجائعتين، يغمغمان «يحترقان في جحيم من القبل». يشتدّ الظمأ كلّما اشتدّت الغمغمة، كلّما عنف التقبيل، كلّما ازدادت العسيلة في الصلْب دورانًا، كلّما اقتربا من لحظة الإراقة، كلّما شعرا أنّ الأرض تدور والفضاء يدور، والسفر إلى الغيبوبة يوشك أن يكون، أن يكون، إلى أن كان، وكان.. وأفاقا من سكرة التفّاح، على عريهما الذي لا تستره حتى ورقة التوت، أفاقا مذهولين نادمين، والأفعى تدلّت كحبل مبرقش بين غصنين، حين رجع آدم إلى آدم، رجعت حوّاء إلى حوّاء، عادت الخطيئة، التي لاخطيئة، تحزّ كشفرة صدئة في نياط القلبين، انتبها من غفلة اللّذّة إلى يقظة الخيانة، تبخّر الخيال المدمّى من شبق، تجسّد الواقع المرير من أسف، صاح هدهد فوقهما على غصن الصنوبرة:

أفسدتْ بيننا الأمانات عيناها، وخـانـت قـلـوبهـنّ الـعـقـولُ

فأجابه هدهد آخر:

وإذا خامر الهوى قلبَ صبٍّ فـعـليه لـكـلّ عـين دليلُ

تلفّت نافع، تلفّتت فدوى، نظرا إلى عريهما، إلى بؤسهما، استعادا ما كان، ما صار، ما حدث، ما اقترف.. وراح نافع، بخزي موجع، يستر جسمه، يتذكّر ما سمع من الهدهدين، ما خان من الأمانات، فأطرق يبكي، وقهقهت

فدوى جذلى، والنار في الحطب ترمّدت، والبطّة البرِّيَّة احترقت، والدنيا غامت، غامت، هطل المطر في غير أوانه، فتبلّلا، وحارا فيما يقولان، يفعلان، يأكلان، بعد أن تلف الخبز، ونفدت المؤونة، لكن فدوى، الضاحكة من دمع نافع وعليه، كانت المُبادِرة إلى الكلام، فقالت:

ـ أنت، يا نافع، لم تُضع ملكًا مثل عبد الله الصغير، حتى تبكي عليه مثل النساء!

ـ . . .

ـ والماء الذي انسفح لا يُلَمّ!

ـ . . .

ـ والدمع لا نحتاجه لغسل ما كان، فقد تكفّل المطر بذلك.

ـ . . .

ـ والنار التي انطفأت ستشتعل بعد قليل!

ـ . . .

ـ والفضاء الذي دار بنا سيتوقّف عن الدوران.

ـ . . .

ـ والاغتسال سيمحو كل أثر.

ـ . . .

ـ والنكاح، في الغابة، محلّل من الغابة.

ـ . . .

ـ والذي فعلته أنت بغير إرادة، فعلته أنا بإرادة.

ـ . . .

ـ والكلام، على الحبّ بيننا، كان استدراجًا.

ـ . . .

ـ أنا أحبّ الأرقش أكثر ممّا تحبّه أنت.

ـ . . .

ـ وأنا لم أهرب من الحبّ إلى الحبّ. . . هذا وهم! أنا انتقمت من الأرقش بصديق الأرقش. .

ـ . . .

ـ تقول كلّنا من مدرسة واحدة، وكلّنا نخون هذه المدرسة الواحدة، فكفّ عن سماجة الكلام على المدارس.

ـ . . .

ـ تعرف لماذا أضحك أنا، وتبكي أنت؟ هذا لأنّك جبان!

صاح نافع الداري:

ـ لا! لست جبانًا، أنا خائن، خائن، خائن! وأنت جليلة التي لعنها الزير سالم!

قالت فدوى:

ـ زمن جليلة والزير سالم غير زمننا. . وزمن قيس وحبيبته غير زمننا. . أنت أبله إذا كنت تظنّ أنّ قيس لم يجتمع بليلى. . وأنت أكثر بلاهة إذا صدّقت أسطورة شمشون ودليلة. . هذه الأسطورة فبركها الرّجل لإدانة المرأة. . الرّجل، منذ عهد الأمومة، وهو يضطهد المرأة، ولأنّه اضطهدها فقد ألجأها إلى الحيلة للدفاع عن نفسها. . لقد ندمت، للحظة، على خيانة الأرقش، وبعدها عاد إليّ

الوعي، تعرف ماذا قال لي وعيي؟ قال: «الأرقش، لو كان في مثل وضعك، لخانك وهو يفتل شاربيه كعنترة!» فلماذا، بحقّ الله، يحقّ لعنترة ما لا يحقّ لعبلة؟

قال نافع:

ـ المسألة ليست هنا.. المسألة كما جرى الكلام عليها آنفًا: الأرقش يحبّ فدوى، وفدوى تحبّ مَن؟

قالت فدوى:

ـ هذه سفسطة يا نافع، وبعبارة أخرى: حذلقة كلاميّة! فدوى تحبّ الأرقش، وتريد أن تنتقم من الأرقش، وقد انتقمت.. أنت تسمّي هذا خيانة، وأنا أسمّيه: «وفاء الروح وخيانة الجسد» مادام ليس هناك زواج بعد، زواج؟ نعم زواج، لأنّنا من بلاد مجتمعها ذكوري، وفي المجتمع الذكوري الشرع وحده يحمي حقوق المرأة، لذلك تتمسّك المرأة بالزواج، كي يحمي الشرع حقوقها، وهذا لابدّ منه، هذا ضروري، لكنّ الزوج يخون، ولا أحد يحاسبه على خيانته، الحساب على الخيانة يقع على الزوجة وحدها، ومن هنا تعاستها، لكنّ المجتمع الذكوري يجحد هذه التعاسة، يراها غير مبرّرة، وأنا التي درستُ في الغرب، وعشتُ فيه سنواتٍ طوالاً، أرى تعاسة المرأة مبرّرة، ومعبّرة، وأسمع صراخها، صباح مساء، في وجه الرّجل: «اعطني حرّيّتي، أطلق يديَّ» لماذا ذلك كذلك؟ لأنّ المرأة في هذا الشرق تحرّرت، ولو نسبيًا، بالعلم والعمل، وهي تفكّر الآن على هذا النحو: «ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها والدنيا لديّ»!؟ ضع خطّ تشديد تحت عبارة «عهود لم

تصنها» تدرك فحوى صيانة العهد من قبل المرأة، واستباحة الرجل لهذا العهد، وما فيه من ظلم شنيع للمرأة حتى لو كانت زوجة.. فكّر، فكّر قليلاً، تجد أنّك مارست حقًّا ولم ترتكب خيانة، وأنّ الدمع الذي ذرفته كان مجّانًا.. إنّني أعزّ الأرقش، ولا ينقص من هذه المعزّة أنّني نمت مع غيره، لأنّه هو لو كان مكاني لنام مع غيري، ولم تنقص معزّته لي.. هذا غير مألوف عندنا، ونحن جميعًا عبيد هذا اللامألوف، فإلى متى؟

قال نافع:

ـ إلى أن يصبح خرق هذا اللامألوف مألوفًا.

قالت فدوى:

ـ متى؟ ومن يخرق هذا اللامألوف؟ الرّجل أم المرأة؟

ـ لا أدري!

ـ أصدّقك.. أنت، كرجل، لا تدري، أمّا أنا، كامرأة، أدري.. أنت جبان وأنا شجاعة، ومع شجاعة المرأة يكون التقدّم الاجتماعي.. ماذا قالوا عن أوّل امرأة خرجت سافرة؟ وماذا قالوا عنها وهي تمشي إلى جانب الرّجل وليس وراءه؟ ثمّ ماذا قالوا عنها وهي تدخل المطعم معه، وهي تشرب مثله، وهي ترقص معه أيضًا!؟ قالوا: عاهرة! ومع الأيّام، مع خرق اللامألوف الذي اجترأتْ عليه، صارت طاهرة.. لقد سألتُك وسألتُك، وتحدّثتُ وتحدّثتُ وأنت صامت، أو في أذنيك وقر، فلمّا نعتّك بالجبان استهولت النعت، صحت:

ـ لا! أنا لست جبانًا..

نعم يا سيّدي، يا مولاي، يا عنترة، أنت جبان، وجبان، وجبان! وصيحتك لم تغيّر من حقيقتك شيئًا.. أنت عبد المألوف، وساءك منّي أنّني اخترقت مألوفك هذا، ولولا خوفك من العقاب لقتلتني، أمّا أنا فلم أقتلك لأنّك لا تستحقّ حتّى القتل، لا تستأهل حتّى تلويث يدي بدمك القذر.. أنت رجل ليس لك قضيّة.

ـ وأنت! ما هي قضيّتك؟ خرق المألوف؟ خيانة الحبّ؟ استباحة ما لا يُستباح؟

قالت فدوى ودمها يفور:

ـ أنا كلُّ ما قلته، إنّما لي قضيّة..

أضافت ثائرة:

ـ وجودي في هذه الغابة، والسلاح في يدي، يؤكّدان أنّ لي قضيّة.. وقضيّتي مثل قضايا كلّ الصيّادين والصيّادات في هذه الغابات: مطاردة الذئب الأسود!

قال نافع ساخرًا:

ـ وبانتظار رؤية الذئب الأسود وقتله، تتسلّين على هواكِ!

ردّتْ متحدّية:

ـ تمامًا!

ـ وتوقعين الصيّادين في شراكك!

ـ ليس كلّهم.. من يعجبني منهم، وأنت من هؤلاء الذين أعجبت بهم، أنت شابّ وأنا شابّة، وأنت وسيم وأنا أكثر

منك وسامة، وأنت صديق الأرقش وقد خنته معك لأنّك صديقه، لكنّ البادئ أظلم، الأرقش، وقد أصيب بالحمّى، لم يبعث أحدًا في طلبي إليه، أو لعلّه بعثك رسولاً إليّ فخنت الرسالة ولم تبلغني، بل جئت تقول لي: الصيّادة قمْطرة هي التي تعتني به، هي التي تقوم على تمريضه، هي التي يخونني معها.. هذه الغجريّة القذرة!

قاطعها بنبرة حسم:

ـ أنا لم أقل هذا، ومن العار أن تكذبي، أن تقوّليني ما لم أقل..

ـ هذا صحيح كلّ الصحّة.. أنت لم تقل هذا، وكيف تقوله؟ كيف تشي بمن ائتمنك على سرّه؟ لكنّني أنا، كأنثى، فهمت كلّ شيء فورًا، وقرّرت، بعد تفكير، أن أردّ الصفعة بمثلها، أن أغويك كما أغوى قمْطرة.. وكان عليك، كصديق مخلص، من المدرسة نفسها بحسب تعبيرك، أن تبقى مخلصًا، أن تمتنع عليّ، أن ترفضني أو تضربني، لا أن تكون رخوًا فتستسلم لغوايتي.. أشعل لي هذه السيكارة!

أخرج علبة الكبريت، أشعل لها السيكارة، توقّعتْ الأسوأ فلم يحصل، لماذا لم يحصل؟ هل هذا من اللياقة؟ هل هو من أدب السلوك، باعتباره ذكرًا واعتبارها أنثى؟ ربّما نعم، ربّما لا، وربّما علق هذا الصقر على دبق قبّرة، وقد تكون اللذّة تستجرّ لذّة أخرى، إنّه يرضى، إنّه يلاطف، إنّه يأمل، بماذا يأمل؟ بماذا تأمل يا آدم؟ بتفّاحة حوّاء؟ استسغت طعمها؟ بتّ أسيرها؟ نسيت كلّ شيء إلاّها؟ فدوى مطلّقة، تزوّجتْ ولم تنجب، هي التي حرصت على ألاّ تنجب، خاب

أملها في الزواج، خاب أمل زوجها بها أكثر، كان يريدها زوجة لا فيلسوفة، تفلْسفت أكثر ممّا يحتمل، تصرّفت مع زوجها كما تصرّفت مع نافع، تكلّمت وتكلّمت، كان يطيب لها أن تتكلّم، ادّعت أنّك تسلّلت إلى هذه الغابة لأنّها موجودة فيها، هل هذا ادّعاء محض؟ أنتَ، في نفسك، تراه ادّعاء محضًا، إنّما الحقيقة غير ذلك؟ الأفضل ألاّ تبحث عنها، أن تنساها، أن تتمسّك بالظاهر دون الباطن، أن تبقى على قناعتك بأنّك جئت لمطاردة الذئب، ففي هذا راحة، بعض راحة على الأقلّ، جئت تصطاد ذئبًا، فاصطادتك، دون إرادتك، ذئبة، وماذا في ذلك؟ هي قالت ماذا في ذلك؟ هي هوّنت الأمر، فلماذا تصعّبه أنت؟ الينابيع في الغابة كثيرة، اذهب واغتسل في أيّ نبع، وهي تفعل مثلك، وبعدها تكون الطهارة، تتطهّران من الخبث الخارجيّ، وهو لا شيء، مادام الخبث الداخلي هو كلّ شيء، وأنت بريء منه كما تقول، وكذلك هي، إلاّ أن يكون هناك خبيئ، في سريرتك أو سريرتها، إلاّ أن تكون اللّذّة العابرة، قد أنستكما القضيّة المقيمة: مطاردة الذئاب السود!

قالت فدوى:

ـ ما تفكّر فيه يا نافع، أفكّر فيه أنا، الغابة شاهدة أنّ ما جرى كان برغمنا، كان بدافع من الشيطان الذي يسكننا، ولأنّ ما جرى قد جرى، ولأنّ الإيجاب جدليّ مع السلب، فإنّ علينا أن نبحث عن هذا الإيجاب، وفي رأيي أنّه متوافر.

سأل نافع:

ـ وما هو هذا الإيجاب المتوافر؟

قالت فدوى باقتناع كامل:

ـ الإيجاب في أنّنا تخلّصنا من حاجة الجسد، فأصبحنا أقدر على تلبية حاجة الضمير، صرنا من الداخل أقوى على مطاردة الذئب الأسود وقتله، وفي هذا إرضاء كافٍ للضمير!

قال نافع شارحًا نفسه:

ـ هذا الذي تقولينه تبرير عقل مرن، العقل يبرّر الأخطاء في مرونته، العقل الذي اتخذه المعرّي إمامًا، ليس بالإمام المصيب دائمًا. ديكارت، في شكّه، أتاح لنا أن نشكّ في إماميّة العقل، وأنا من هذا الرأي.. ماذا يعني أن نخطئ فيأتي العقل لتبرير أخطائنا؟ ما تقولينه عن راحة الضمير، بعد الخطأ الذي ارتكبناه، تبرير عقل مرن، قادر، في كلّ وقت، أن يبرّر الأخطاء؛ وأنتِ، في لعبة الأنثى الإبليسيّة، أخرجت الإيجاب من السلب، قتلتِ السلبَ، أعدمته، نفيته تمامًا، فلم يبق في نظركِ سوى الإيجاب، ترغبين في أن نتقلّده وسامًا!

قالت فدوى:

ـ أنا جائعة يا نافع، والجوع كما تعلم كافر، لا يؤمن إلاّ بإطفاء الألم باللذّة، وما هي اللّذّة التي تطفئ ألم الجوع؟ الأكل.. علينا، إذن، أن نجد ما نأكله، وبعد ذلك نناقش فلسفتك في مرونة العقل، والشكّ الديكارتي، وتخطئة أبي العلاء المعرّي، وراحة الضمير المنشودة.. ما رأيك؟

أطرق نافع مفكّرًا، وقال وهو ينهض:

ـ لديّ اقتراح يا فدوى، أحسب أنّه وحده الكفيل

بإصلاح غلطنا، وهذا الاقتراح ينفع كلينا. . إذا ما وافقت عليه.

تفرّست فدوى في وجهه المربد قليلاً، وسألت بغير قليل من الفضول:

ـ وما هو هذا الاقتراح الذي يتلجلج لسانك في نطقه؟

ـ أن نتزوّج!

ـ نتزوّج؟

ـ ودون تأخير.

ـ وصاحبك الأرقش؟ هل جننت!

ـ أنا عاقل تمامًا!

ـ وأنا مجنونة تمامًا. . الأرقش سيكون زوجي لا غيره، وحتّى لو رفضني فلن أتزوّجك أنت، حتى لا نرتكب الحماقة مرّتين!

- ١٠ -

طافت المُدُن بمن فيها، وحفلت الغابات بمن جاءها مع هذا الطوفان، فتشكّل مع الأيّام مجتمع غابيّ، فيه من كلّ لونٍ لونٌ، ومن كلّ فتنة زهرة، ومن كل شذى نفح لمن حرموا، في مدنهم المزدحمة كيوم الحشر، من الحدائق التي تحوّلت تدريجيًا إلى ركام من الإسمنت.

«لا بأس، قال الحكيم بشير في نفسه، الذين هنا، في هذه الغابات، هم ضحايا المدن، الذين لفظتهم المدن، طحنتهم كما حبّات الشعير بين الرحى والمسنّنات، وعاثت الذئاب السود في أشيائهم الناحلة، ما بين قرض وبعثرة، وتهدّمت بيوتهم الطينيّة من جرّاء «الأمطار»، وانطمرت بالرّمال التي سفتها القلاع بغير رحمة أو شفقة. . إنّهم البؤساء المعذّبون، المشرّدون، الذين وجدوا ملاذهم ههنا، فنصبوا خيامهم وأقاموا، فرحين بأجواء الحرِّيَّة، مستنبتين الجنى من عطاء أمّهم الأرض، مستخدمين وسائل بدائيّة للعيش، حاملين السلاح لمطاردة الذئاب السود، ولغرض آخر، في السرائر إضماره، موجّه ضدّ القلاع، على نحو ما يرى الأرقش، وفي رؤيته تحريض مستتر يستعلن من حين إلى حين».

كان دغمش القنّاص عدوّ الصمت، يخافه، يكرهه، يراه

نافلاً، لا ضرورة له، مستغربًا أن يفكّر الإنسان بغير القنص والمرأة.. وكان الحكيم بشير ينهاه عن قنص أي حَيْ سوى الذئب الأسود، وعن التحرّش بأيّة امرأة صيّادة، لاجمًا نفاد صبره حيال اثنين: الذئب الذي لا يظهر له، ورئيفة التي لا تحبّه، ناصحًا إيّاه بالتروّي لأنّ الأمور مرهونة بأوقاتها.. ومع أنّ النصيحة تكرّرت، والنَهْيُ لم يتوقّف، فإنّ دغمش ضاق ذرعًا بصمت الحكيم، وبتفكيره المرتسم همًّا على محيّاه، فسأله وهما يسيران:

ـ بماذا تفكّر؟

ابتسم الحكيم وقال مداعبًا:

ـ بك يا دغمش.

ـ من أيّ ناحية؟

ـ من كلّ النواحي.

ـ كيف، من كلّ النواحي؟ هل وجودي في الغابة صار مشْغلتك؟

ـ وجودك ووجود الآخرين!

أضاف الحكيم بشير بعد خطوات:

ـ لابدّ من التنظيم.. الغابات صارت مزدحمة بمن فيها، صرنا قبائل متفرّقة، مبعثرة بين الاشجار والأدغال، ولكلّ جماعة مطلب، ولكلّ فريق حكاية، ولابدّ من التفكير طويلاً بهذه المطالب والحكايات، والعمل على حلّها!

قال دغمش:

ـ ومطلبي أنا؟

ـ في قنص البشر؟ لا! هذا جزاؤه الإِعدام.. قلت لك وأكرّر: قنص الذئب الأسود هو المباح، وحده المطلوب، وقد تأخّر هذا تأخّر كثيرًا، وبدأ التململ في صفوف الصيّادين.. العلّة أنّ هذا الذئب لا يظهر، وليس من أحد يراه، والسؤال الذي نُحار في الإجابة عليه: هل نطارد وهمًا أم حقيقة؟ هناك بطء، وهناك إلحاح، وهناك شكّ، وهناك خبث، وكلّ مساوئ المدن انتقلت، مع الأسف، إلى الغابات، فالكذب، والاغتياب، والنميمة، والاحتيال، وحتى بعض الفضائح، رائج، وسببُ هذا كلّه العطالة.. إنّهم عاطلون عن العمل، قصدت مطاردة الذئب، التي صارت، يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر، لعبة طواحين، محاربة الطواحين الهوائيّة، بسيوف خشبيّة، مثلما فعل ذلك الإسباني دون كيشوت. أنت لا تعرفه؟ حسنًا! سأروي لك قصّته يومًا، وهي قصّة ذات مغزى، قديمة نسبيًّا، إلاّ أنّ دلالتها محاربة الظلم، مثلما نفعل نحن. دون كيشوت حارب الهواء، ونحن نحارب الشَبَحَ، نعم! نحن نحارب شبحًا لا ذئبًا.. الذئب يمشي حتى في شوارع المدن، ونحن لا نراه!

قاطعه دغمش:

ـ الذئاب، يا حكيم، كثيرة في هذه الغابات، قتلنا منها، حتى الآن، عددًا كبيرًا، حتى صار قتلها تسلية، فيها بعض النفع لنا، إلاّ أنّك، في وسواس خنّاس، كدت تَتَهَلْوَسَ بسببه، تصرّ على أنّ هناك ذئبًا أسود، ويمضي العام بعد العام، وهذا الذئب اللّعين لا أثر له.. ما اسم صاحبك الذي كان يحارب الهواء؟

ـ طواحين الهواء!

ـ طيّب! يحارب طواحين الهواء، وما الفرق؟ إلى القرد بكلّ التسميات.. لماذا تدقّق فيها؟

ـ لأنّ الدقّة، هنا، ضروريّة.. الهواء شيء وطواحين الهواء شيء آخر.. دون كيشوت لم يكن مجنونًا، ولو قالوا عنه، في زمنه، إنّه مجنون..

ـ قالوا إنّه مجنون؟

ـ زعموا أنّه مجنون، مع أنّه كان راجح العقل، يعرف ما يفعل.

ـ وكم طاحونة هواء قتل؟

ـ ولا واحدة!

ـ نعيمًا يا حكيم! صاحبك المحارب المقدام كان مجنونًا بشرفي.. ونحن مجانين مثله، وبشرفي أيضًا..

تأمّله بشير الحكيم وقال:

ـ بأيّ شرف تقسم يا دغمش، الذي كان قبل التوبة أم بعدها؟

هرش دغمش رأسه، وقال:

ـ عيب يا حكيم! وأرجو أن تصدّقني، الذي كان قبل التوبة صار في ذمّة التاريخ، نحن أولاد اليوم، واليوم دغمش تاب وأناب.. ليس لي هدف سوى قتل الذئب الأسود، تعرف لماذا؟ لأقدّم رأسه مهرًا لرئيفة كما وعدتُ.. إنّني.. إِسمَعْ! لماذا تشكّ في كلامي؟ ولماذا لا تهتمّ بقلبي؟

ـ أهتمّ بقلبك؟ إذا فتحنا هذا الباب، يكون عليّ أن أهتم بقلوب عدد كبير جدًّا من أمثالك، وماذا يتبقّى عندئذ؟ يجرفني سيل من التفاهات، تضيع معه القضيّة التي أنا في هذه الغابات لأجلها.. هل أنت معتوه يا دغمش؟

ردّ دغمش بخبث:

ـ العتْهُ يكون، حين يكون الإنسان قد تقدّم في السنّ، ولا أريد أن أضرب مثلاً بأحد.. الجنون، يا حكيم، قائم قاعد! صاحبك ما اسمه؟ اللّعنة على اسمه. صاحبك الذي حارب طواحين الهواء كان مجنونًا، ونحن الذين نحارب طواحين الذئب الأسود مجانين.. ما أريد قوله.. ولكن لا، لن أقول، اللّبيب، كما علّمتني، من الإشارة يفهم!

أطرق الحكيم بشير خجلاً، جلس على جذع صنوبرة مهمومًا، راح يتذكّر: «لقد أخطأ، جلّ مَنْ لا يخطئ، والخطيئة لها ثمن، عليه أن يدفعه، «لا تدينوا لكي لا تدانوا» وقد أُدين هو، وإدانته الكبرى، لا من ناحية العمر، بل من ناحية «الحكمة».. من الذي ألصق به تهمة الحكمة؟ مَن الذي، على رأي الجاحظ، كتّفه تكتيفًا؟ أنت، يا حكيم، منافق لأنّك تورّطت في النفاق، قبلت قولة القائل بأنّك حكيم، صدّقتها، تسامحت مع مَن روّجها، روّجتها بنفسك عن طريق سواك، كنت ثعلبًا في داخلك، حسبت أنّ ما في داخلك سيبقى في داخلك، نسيت أنّ الرمح، رغم الحرص، يبرز من الشوال الذي وُضع فيه، تجاهلت عاطفتك، ظننت أنّك وأدتها، لم تنتبه إلى أنّ الوأد هو الوأد، سواء كان وأد عاطفة أم مولودة، غابت عنك قولته تعالى: ﴿وإذا الموؤودة

سئلت بأيّ ذنب قتلت﴾ تزمّتَّ مع الآخرين، عبْتَ على دغمش أنّه أحبّ رئيفة، وأنّه في حبّه قد كاد يجنّ، مع أنّه معذور، لأنّه رآها عارية في النبع، وأنت، في اندفاعك نحوها، لم تكن معذورًا، لأنّك لم ترها عارية مثله، أنت أغواك جسدها وهي كاسية، فكيف لو رأيتها عارية!؟ إبكِ! إبكِ لو ينفع البكاء.. لا! لا تبكِ، لا تندم، إعلم فقط أنّه «بالكيل الذي تكيلون يُكال لكم»، وقد عمل دغمش بهذه القاعدة، قال عنك، ولو تلميحًا، إنّك فاسق مثله!

«حكمة وفسق! هذه إحدى الكبائر، ولكن لماذا نسمّي الاشتياق فسقًا؟ في هذا مغالطة، فيه جورٌ على النفس، فأن نشتهي يعني أنّنا أحياء، وأن نكون أحياء، فلابدّ من الرغبة في الحبّ، تكون مندفعة حينًا، متأنّية حينًا آخر، إلاّ أنّها تظلّ رغبة إلى أن تتحقّق، إلى أن يكون وصلٌ بين الحبيب والمحبوب، إنّما بالرضى وليس بالقسر، وقد اشتهى الحكيم بشير أن يضمّ رئيفة، فسخرت منه ودفعته إلى ماء النبع، أو بتعبيره هو: «رَفَضَتْنِي!» وقد تبلّل كلّه، وعندما خرج من الحوض، كان عليه أن يبدّل ثيابه، ولأنّ مكان خيمته بعيد، فلم ير حرجًا في أن يفعل كالآخرين، الذين لا بدائل لما يلبسون، فهم يوغلون في الغابة، وفي مكان محاط بالأدغال، يتعرّون وينشرون الثياب التي غسلوها، في بقعة شمس كبيرة، منتظرين حتّى تجفّ، دون أن تتعكّر أمزجتهم. ولماذا تتعكّر؟ الغابة الضليلة، العامرة بأشجار الصنوبر، يشيعُ منها عطر صمغيّ، وعلى أطرافها، قرب مسيل الينابيع، تسمق أشجار الحور خضراء الورق، منضّرةً

بالنسغ، موشّحةً بالضياء، لمّاعةً بالبريق الخاصّ، المتبدّل، في رصاصيّته البهيجة، في الأصباح والأماسي من ليالي الصيف، ولئن كانت الصنوبرة ملكة الغابة، وكانت أشجار الصنوبر ذات الأكواز جندها المنتشر بغير نظام منضمّ، فإنّ هناك، في الأطراف، حراسة لهذه المملكة، تتشكّل من أشجار السرو، السنديان، البلّوط، البطم، القطلب، العرعر، الزعرور، وعلى التخوم ترعى المواشي في طمأنينة، بينما يغازل هذا الراعي تلك الراعية وبالعكس!».

الحكيم بشير كان صاحب حكمة إلاّ في الهوى، كان له قلب يخفق، وعين تتمرأى على شاشتها طيوف الجمال، ونفس تهفو إلى اللذاذة دون إفراط. . تكفيه، في الوضع الذي هو فيه، ضمّة جسم لن تكون، في غير الغابة، مثلها في الغابة، ضمّة تزنّر الخصر بالذراعين، برفق وحنان وبذوب شوق، يسيل من المقلتين نظرات ساغبة، يُجنّ فيها الحرمان، يُعربد الاشتياق نداءً من الفم إلى الفم، ارتعاشة شفة إلى شفة، والقدّ الميّاس، المطاوع من مَرَنٍ، من لدانة، يستسلم في حرارة الجسد إلى حرارة جسد مقابل!

فكّرَ الحكيم، أطرق، تململ من أسى لأنّه أقدم، تململ، من أسى أشدّ، لأنّه لم يتقدّم كفاية، نفرتْ رئيفة، ابتعدتْ، صاحتْ لا تقتربْ، اقتربَ، وهل كان قادرًا، في ظمأ الرغبة إلى العناق، ألاّ يقترب؟ ألاّ يجازف؟ ألاّ ينسى الحكمة العوراء، أمام العذوبة البصيرة، الخارقة؟ لا! لم يكن قادرًا، ولم يكن صاحيًا، فالراح العتيق، في صوفيّة التبتّل، شراب صوفي، وماذا في الشراب الصوفي، الذي

تذوّقه المتصوّفة، من البوصيري إلى الخيّام!؟ «ريمٌ بين البان والعلم/ أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ». . رئيفة لم تحل دمَه، لم تسفكه، كلّ ما فعلته أنّها دفعتهَ في صدره، بكثير من اللّطف، وبكثير من اللطف وجد نفسه في ماء النبع، بينما هي تقهقه هاربة إلى أعماق الغابة!

قال له دغمش:

ـ لو كنت مكانك لقتلتُها!

زوى الحكيم ما بين حاجبيه، في نظرة نافذة، وقال:

ـ تقْتل مَن يا قنّاص البشر؟

ـ رئيفة طبعًا!

ـ رئيفة، يا معتوه، هي التي كان من حقّها أن تقتلني.

ـ أنثى تقتل رجلاً؟

ـ ولماذا لا؟

لأنّها أنثى. . النساء، يا حكيم، ناقصات عقل ودين!

ـ وعلى فرض أنّ هذا انطبق على أنثى ما، رئيفة أو غيرها، فكيف تجيز قتل نفس حرّم الله قتلها إلاّ بالحقّ؟

ـ قتل رئيفة، هنا، كان حقّ الحقّ!

ـ خسئت يا دغمش، أنت تراوغ كثعلب أجرب، حقّ الحقّ كان قتلي أنا، لأنّني كنت المعتدي، ورئيفة المعتدى عليها. . لماذا تجاملني؟

ـ لأنّ التقبيل، في رأيي، حلال بين الأصدقاء، وحلال أكثر بين الزملاء في هذه الغابة، إلاّ إذا كنت تنوي ارتكاب

الفاحشة معها، وعندئذ كنتُ سأقْتلك أنا!

كانت البقعة الغابيّة، التي استراح إليها الحكيم بشير، مسوّرة بالأدغال، بعيدة نسبيًّا عن مرتاد أيّ صيّاد، ورغم ذلك احتاط، خلع ثيابه المبلّلة كلّها ما عدا السروال الداخلي، نشرها في الشمس، جلس يتشمّس هو أيضًا، أراح بندقيّته على مقربة منه، لا خوفًا بل تحسّبًا، فالغدر، في الغابة، يسيء إلى بهاء الغابة، والغدر في الغابة من طبيعة الغابة: ثمّةَ وحوش كاسرة، من الحيوان والإنسان، وغدر الإنسان هو الأفظع، هو الأسهل والأيسر معًا. وإذا كان الحكيم بشير، في يقينه الراسخ كصنوبرة، على معرفة ألاّ أعداء له، وأنّ الصيّادين والصيّادات جميعًا يؤثرونه، يبدون له المودّة والاحترام، فإنّ هذا بالذات ما يجعله هدفًا لهم، والسبب هو حكمته التي تجعله متميّزًا عنهم، وامتيازه يفري به، فالآخرون، غير المتميّزين في شيء، لا يغفرون له تميّزه، تمامًا كالشريف في طغمة اللاّشرفاء، الذين إذا تاب أحدهم بصدقٍ عن السرقة، تحسّسوا، في دواخلهم، من توبته، وعليه في هذه الحال أن يرحل عنهم، أو يقتلوه لأنّه لم يعد منهم.

عزيف الجنّ في الصنوبر هبوبُ ريح رهوةٍ، ينداح وسط السكينة مسافرًا بغير حقيبة، على رِسْل الأماني لكلّ مشوق، اعتاده اللاعج من الشوق فأضناه الفراق، والفراق صدأ الحبّ، يبريه ولو كان حديدًا «وداعًا عذارى الهوى» والوداع، في الاستبدال، لقاء مأمول تباركه الغابة، كما يبارك البحر شبوب اللجة، في توقها لعناق نورس أبيض الجناحين، والحكيم الذي حُرم من العناق، لم يكْسُفْهُ الحرمان، لم

يخجله، لم ير فيه عيبًا، فالطالب طَلَبَ، والمطلوب نفر من الطالب لأنّه يطلب آخر، فاتلاً القنّب حبلاً طويلاً للأمل.. رئيفة، في دلّ الأنثى، لم تستجب للذكر، استجابتها لذكر آخر، منذورة للأرقش الهارب من الحمّى إلى الحمّى، وليس من برء، في حمّيّات الجسد، إلاّ بالوصال، وخشية الحكيم أن تتفشّى الحميات في الغابات، أن تصبح جائحة تعمّم العدوى، فيمرض الناس، وتكون البليّة مضاعفة: النحول والقعود عن مطاردة الذئاب السود.

استشعر الحكيم بشير تهاويل اللّون في كلّ ما يحيط به، وابتهالات أدعية مرفوعة إلى الأعالي، سابحة في الأثير، تدعو المؤمنين إلى الصلاة، في معبد موجود، غير منظور، وجوقة ترفع، في هارمونيّة الصمت، نشيد إنشادها الخاصّ، على نحو ما كان زَمَن الإغريق.. وهو، في هذه البقعة حرّ، الصيّادون جميعًا أحرار، فما أسعد أن يكون الإنسان حرًّا، في حدود الضرورة لا حدود المطلق، وما أسعده أن يكون في فيء دولة القانون، لا فيء عرفيّتها، حيث القانون، بذريعة وجود العدوّ، يجعل الناس مطيّةَ الطغمةِ، فلا القلاع قادرة، أو مبادرة، إلى محاربة هذا العدوّ، ولا الشعب المسلوب الإرادة بالمتروك كي يبادر. وفي محيط هذه اللعبة السخيفة، المضحكة، يتسيّد الأسيادُ، ويستعبد العبيد، ومن رحم التسيّد القاهر، المستند إلى القوّة وحدها، تلد الذئاب السود وتتناسل، وتُطلق على هواها، كي تعبث في كلّ شيء: الحرِّيّات، الكرامات، أرغفة الخبز، ناحلات الأدام، بيوت الطحين، أنسجة العنكبوت الساترات للعورات،

مترحّمة على أبي ذرّ الغفاري، متأسّفة على أيّام عمر بن الخطّاب الذي قال: «ما اغتنى غني إلاّ بفقر فقير»، متذكّرة سخرية جبران خليل جبران، عبر رومانسيّته الحلوة «والعدل في الأرض يبكي الجنّ لو سمعوا به، ويستضحك الأموات لو نظروا!» لكنّ الجنّ لا تبكي، وما خلقت لذلك، والفرد الذي يقع في المأساة، تُغيّب عنه موضوعة الصراع الاجتماعي، لأنّه في جهله، لا يعرف أبا حيّان التوحيدي، تلميذ أبي سليمان المنطقي في الفلسفة، ولا ما هي الفلسفة، ولا يدرك أنّه، في دوّامة التغيير «ينحني عنصر أمام القدر، ويصبح عنصر آخر قدرًا بذاته، ويختفي واحد مع التيّار، بينما الثاني يصنعه». . وهكذا ننجرف، الواحد بعد الآخر، مع تيّار الفقر الذي صنعه الآخر لنا، ويجهدون لإقناعنا أنّ هذا قدرُنا، بينما هم أقدارٌ بذواتهم، يصنعون، في ستر منها، ما يريدون!

الغابة مكان للصمت، ومع الصمت يكون التفكير، وقد ترحّل الحكيم بشير مع صمته، بعيدًا في أفكاره، وكان هذا أفضل له، كي لا يحسب دقائق الزمن، أو يبهظه انتظار أن تجفّ ثيابه. إنّه، في بحرانه الذهني، نسي الثياب التي فرح بها لأنّها جفّت، ولأنّه بارتدائها صار بإمكانه التطواف في الغابة، ومن حسن الحظّ أنّ سرواله الداخلي جفّ على جسمه، وجفّت، بدورها، بركة ماء النبع التي أسقطته رئيفة فيها، انتفت، غدت ذكرى «والذكريات صدى السنين الحاكي!» غير أنّ الصدى يتلاشى، يبقى الصوت وحقيقته، والحقيقة لها طعم الحقيقة. وبفعل إرادة، حاول أن ينسى

الحكيم بشير ما جرى، أن يبتلع طعْمَ الحقيقة، لكنّه، في اللاّشعور لم يبتلع شيئًا، هجع التفكير بالمرأة، ولكن إلى متى!؟ إلى متى يا حكيم؟ لا أدري. الحكيم لا يدري.. وعندما أفاق من شروده، من ذكرياته، كان دغمش قد اختفى.

لكنّه، في طريقه إلى ماء النبع، التقاه ثانية، كان دغمش قنّاص البشر، يطوّف في المنطقة نفسها، غير قادر على الابتعاد عنها، وكان، من وقت لآخر، خلال النهار واللّيل، يعتاده الشوق لا إلى الديار، بل إلى من سكنها، لا إلى النبع، ولكن إلى رئيفة التي عاينها عارية في مائه، وفي هذا كانت له شراكة مع الحكيم بشير، فهذا أيضًا غَوَتْه رئيفة عند النبع، وكما يعود المجرم إلى مكان جريمته ولو متخفّيًا، عاد دغمش والحكيم إلى مكان جريمتهما في الحبّ الذي أزهر ولم يثمر، وكان دغمش حانقًا لإفلات فريستين منه: رئيفة والذئب الأسود! قال:

ـ أنت، يا حكيم، وضعت عقلي في كفّي!

ـ إذن لم أضع شيئًا.

ـ تعني لا عقل لي؟

ابتسم الحكيم وقال:

ـ تقريبًا!

ـ لماذا؟

ـ لأنّك لم تتأدّب حتى الآن.. حاولت مرّة ومرّة ومرّات، ولقيت الرفض نفسه من رئيفة في كلّ مرّة، فماذا ترتجي؟ أن

يرقّ قلبها عليك؟ أن تشفق على جنونك بها؟ الموت ولا الشفقة في الحبّ، فالشفقة، هنا، هي الإذلال، رئيفة أذلّتك بما يكفي، وأنت الآن مُذلّ مُهان، ومَن يكن على هذا القدر من المهانة يصبح فاقدًا للكرامة، والذي بغير كرامة، بغير شرف، وبغير نخوة، لا نفع منه في هذه الغابة. . إنّك تحبّ، وأنا أتفهّم أن تحبّ، لكنّك في حبّك تخلط بين الرضى والقسْرِ، تريد أن تكون محبوبًا بالقوّة، وهذا محال، القوّة قد تجلب الغنى، النفوذ، القدرة، السطوة، لكنّها عاجزة عن جلب الحبّ. أنت معذّب! هذا صحيح، إلاّ أنّ رئيفة معذّبة أيضًا، كم قلت لك إنّها تحبّ الأرقش، وإنّ الأرقش يحبّ غيرها، وإنّ شقاءك في مرامِك شقاؤها في مرامها، وإنّ التضحية قسمة واجبة بينكما، تضحّي لأجلها كما تضحّي هي لأجله، وبذلك ترتفعان إلى المستوى الإنساني اللاّئق: هناكَ كثير من النساء، وهناك الكثير من الرّجال، والفراق وحده كفيل بالنسيان والسلوان، الفراق يشفي من الحبّ، من الوجد. . . ابتعدْ، ففي البعد النجاة من هذا المرض اللّذيذ، اللّعين، الذي أنت مصاب به.

هتف هدهد من فوق شجرة:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ فقد زادني مسراك وجدًا على وجدِ،

أردف هدهد آخر:

وقد زعموا أنّ المحبّ إذا نأى يسلو، وأنّ النأيَ يشفي من الوجدِ،

أضاف الهدهد الأوّل:

بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ ما بنا على أن قربَ الدار خيرٌ من البعدِ

قال دغمش:

ـ أَسمعت يا حكيم؟

قال الحكيم:

ـ سمعت يا دغمش، لكنّني لا أزال عند رأيي، بعدُ الدار لا قربها هو الذي يشفي..

أضاف:

ـ صاحبك الشاعر لا يزال على أوّل درجات السلّم.. إنّه مثلنا تمامًا، في سفح الجبل، أنا لا مطمح لي في ارتقائه، أمّا أنت، وإذا كنت مصرًّا على حبّ رئيفة، فإنّ عليك أن تبدأ من السفح، وأن تجاهد وتضنى في الصعود إلى الذروة، وهناك تنال حظّك من حبّها، هذا إذا أحبّتك هي.

ـ وبعد الوصول إلى الذروة.

ـ الثبات عليها قليلاً، إن أمكن ذلك، وبعده الانحدار من الجانب الآخر للجبل.

ـ أيّ جبل؟

ـ هل أنت أهبل؟ جبل الحبّ طبعًا! هذا إذا كانت معك التي تَحبّ، رئيفة أو غيرها.

ـ وإذا لم تكن؟ أصعد وحدي!؟ المسألة سهلة إذن، دلّني على هذا الجبل، وأنا أتكفّل بالباقي.. سأصعد إلى ذروته وثبًا، وأبقى عليها إلى آخر العمر.. ما قولك؟

ـ قولي إنّك أخرق.. الجبل، يا دغمش، مجاز.. جبل الحبّ غير جبل الحجارة، صعود جبل الحجارة سهل، في وسع الجميع ارتقاؤه، أمّا جبل الحبّ فإنّه صعب المرتقى،

وشرطه أن يكون معك من يرتقيه.

ـ كن أنت معي إذن!

ـ وبماذا أنفعك أنا؟ أنا يا دغمش! يا حيوانًا يمشي على رجلين، رغم أنّك نلت بعض الحظّ من التعليم، وكنت في المدينة، وقنصت البشر، وكنت تفهم قبل أن يخبّلك الحبّ.. ماذا جرى لك؟ أضعت عقلك؟ كلّ الأشياء، في هذه الدنيا، قابلة للشرح، إلاّ الحبّ.. فيه يكون الصمت، صمت اللّسان وكلام العين، ماذا قالت لك العين؟

ـ عن أيّ عين تتكلّم؟

ـ ليس عن عيني طبعًا!

ـ عن عين رئيفة؟ أنت، يا حكيم، أضعت حكمتك، إذا كنت أنا قد أضعت عقلي. رئيفة، يا حكيم، لا تُؤخذ إلاّ قنصًا.. نعم! المسألة هكذا.. أقنصها كما قنصت غيرها.. رصاصة في الدماغ وينتهي كلّ شيء.. تستريح هي وأستريح أنا.

تفرّس فيه الحكيم، وقال:

ـ رئيفة تستريح بالموت إذا قتلتها، أمّا أنت فبماذا تستريح؟

ـ بالعيش نهائيًا في هذه الغابة أو غيرها.. المهمّ أن أقتل، مَن يتبغدد عليّ أقتله ولو تشفع له جبريل نفسه.. اسمع يا حكيم! قلت لك مرّة: لو كانت رئيفة لك سأقتلك معها، وأنا عند كلامي.. عيب على هذا الشارب إذا لم أفعل، لكن رئيفة ليست لك، وهذا جيّد، هذا مريح جدًا،

فأنا أحبّك، وأحترمك، ولا أخالف لك رأيًا، وكلّ ما قلته عن جبل الحبّ، والصعود إلى ذروته من السفح، لم أفهم منه إلاّ القليل، وحتى هذا القليل مشوّش.. غريمي رجل غيرك، وهذا من حسن حظّك.. غريمي الأرقش، وسأقتل الأرقش ولو كان زعيمًا على هذه الغابات كلّها.. أنصحه أن يتخلّى عن رئيفة، أن يتركها لي، ولو من باب الشفقة التي قلت إنّها مذلّة.. أريد رئيفة بالرضى، وإلاّ فبالقوّة، نعم! بالقوّة، وليكن ما يكون.. وماذا يكون؟ الموت؟ دغمش لا يخاف الموت! قل هذا، أرجوك، للأرقش، انصحه أن يجنّبني ارتكاب جريمة هي المسؤولة عنها، أنا لم أطلب منها أن تتعرّى وتستحمّ بماء النبع، لكنّها تعرّت، استحمّتْ، ورأيتها بعيني، من وراء الدغل، عارية، فطار صوابي، جننت، لا بأس بالجنون، قل عنّي إنّني مجنون أقل لك إنّك على حقّ، هات يديك، رجليك، رأسك، هاتها أقبّلها كلّها، مقابل أن تكون رئيفة لي، ولو كانت لي، لمرّة واحدة، قد أتركها وشأنها، أمّا قبل ذلك لا! هل تفهمني؟ لا تفهمني؟ سيّان.. تريد مهرها لبن العصفور آتيها به، أصطاد العصفور، أصطاد كلّ العصافير، كلّ الوحوش الكاسرة، لأنّها موجودة، لكنّ الذئب الأسود غير موجود، فماذا أفعل؟ قل ماذا أفعل؟ أحارب طواحين الهواء؟ هذه أيضًا غير موجودة، إنّها وهم، والذئب الأسود وهم، وكفاني عذابًا في حربي مع الأوهام.. إنّني غير قادر على الصبر أكثر، غير قادر، غير قادر.. ارحمني، ارحمْ دموعي، أنت لا تعرف الحبّ، لم تذق مرارة الحبّ مثلي، أنت يا حكيم اشتهيتها، وأنا أحببتها، والفرق كبير بين

الشهوة العابرة والحبّ المقيم، دغمش الذي كان يقنص الناس قنصته امرأة، أهانته، أذلّته، وهو يريدها، يحبّها حتى مع الإهانة والذلّ..

أشفق الحكيم على دغمش، تركه يبكي ما شاء أن يبكي، البكاء يغسل، يريح، يرخي الأعصاب المتوتّرة، ودغمش بحاجة إلى الاسترخاء، وكان من الممكن أن يأتيه برئيفة، كما أتاه بها سابقًا، فنسيان المرأة يكون في رؤية المرأة نفسها، إلاّ أنّ هذا المحبّ، المجنون بالحبّ، عاد سيرته الأولى ما إن غادرته رئيفة، ولو جاءت إليه اليوم، أو غدًا، أو بعد غد، فإنّه سيعود إلى هيجانه ما إن تغادره.. إنّها لا تحبّه، والحبّ لا يكون جبرًا، والحلّ ليس في القتل، دغمش وحش، قاتل، شرّير، مريض، دواؤه في أن تكون رئيفة له، ورئيفة لن تكون له حتى لو قتلها، أمّا أن يقتل الأرقش، فهذا موضوع آخر، مثير، شنيع، لابدّ من منع حصوله، بأيّ وسيلة.. إذن التهدئة، تهدئة دغمش، ملاطفته، الكفّ عن تعنيفه كيلا يلتهب، الإمساك عن عذله، عن لومه، كيلا تزداد البلّة طينًا.

نهض الحكيم من مجلسه على صخرة النبع، جاء إلى دغمش، ربّت على كتفه، مسح على رأسه، أشعل له سيكارة، دعاه إلى الجلوس على الصخرة معه، تركه يدخّن حتّى يصفو رأسه، قال له بنبرة حانية:

- كبرنا يا دغمش وكبر همّ الهوى معنا..

أضاف الحكيم بتؤدة:

- من كان يظنّ أنّني بعد هذا العمر، أشتهي رئيفة،

وأحاول، رغم تحذيرها، أن أضمّها إلى صدري؟ الظنّ، هنا، صار حقيقة.. فعلتُها، أخطأتُ، الخطأ يتطلّب ثمنَه، دفعت الثمن صاغرًا، وجدت نفسي في ماء النبع، خجلت، وماذا ينفع الخجل بعد فوات الأوان؟ الحكيم أضاع حكمته، تعلّمتُ درسًا مفادُه ألاّ حكمة مع الشهوة، نسيت أنّ الرّجل لا تذلّه إلاّ شهوته، اشتهيتها وصار الذي صار، ذهبت إلى بقعة معزولة في الغابة، جفّفت ثيابي، تذكّرتُ أقوال الهداهد: «قرب الدار خير من البعد».. ابتسمت على أسى، ارتديت ثيابي، عدت إلى مكان سقطتي، وجدتك، أنت أيضًا، في مكان هذه السقطة، وهذا طبيعي «ما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارَ» نعم! ما حبّ النبع الذي أعادنا، أنت وأنا، إلى هنا، ولكن حبّ الذي كانت على النبع، واستحمّت بالنبع، ورأيتَها أنت عارية فأحببتها، بينما اشتهيتها أنا، والحال واحدة، فالحبّ في النتيجة شهوة، وصدق من قال: «الحبّ لا يتغذّى إن لم يكن شهوانيًّا» وكم كنت حقيقيًّا وصادقًا حين قلت: «قنصتُ البشر، وقنصتْني امرأة من البشر». كلانا، يا دغمش، وقع في الورطة نفسها، دعنا نبتسم من المهزلة، من الورطة، من البهدلة، فإذا ابتسمنا سرّينا عن نفسينا، وإذا ضحكنا تعافينا، فليس مثل الضحك مجلبة للعافية..

قال دغمش بحسم:

ـ أنا لا أستطيع أن أضحك!

قال الحكيم:

ـ بلى! ستستطيع في المستقبل أن تضحك «من هذه

المهزلة ونذالة هذه الأيّام!»

ـ أمّا أنّ الأيّام نذلة فهذا صحيح، وأمّا أنا، دغمش، أضحك من النذالة، فهذا فوق إرادتي، إنّني خلقت لمحاربة النذالة، وسأفعل..

أضاف وهو يشعل سيكارة:

ـ قل لي، يا حكيم، الذئب الأسود حقيقة أم وهم؟

قال الحكيم:

ـ الاثنان معًا.

زمجر دغمش:

ـ كيف هذا، الاثنان معًا؟ اللّعنة!

قال الحكيم هادئًا مبتسمًا:

ـ الاثنان معًا، وهذا ما ستفهمه مع الأيّام.

ـ والذئب، كما في الرمز، هو الفساد كما تقول؟

ـ نعم!

ـ لكن هذا الذئب غير موجود في الغابة.

ـ موجود في الغابة، بين أشجارها، في أدغالها، في طرقاتها، وموجود أيضًا في المدن، إنّه يمشي في شوارع المدن، دون أن يراه الناس بعيونهم، بل بشعورهم، يحسّونه بغيضًا، كريهًا، ناهشًا في لحومهم، في خبزهم اليوميّ، في صحّتهم والعافية، وبكلمة: في أرزاقهم التي لا تكاد تسدّ جوعهم، فهم ضامرو البطون، صفر الوجوه، متعبون إلى درجة لا تصدّق، ولكن ماذا يفعلون؟ كيف يرون مَن لا يُرى؟

الأرقش على حقّ، الذئاب السود تولد، تتكاثر في القلاع، ومنها تنتشر. .

قال دغمش:

ـ إنّني، كما تعلم، أكره الأرقش حتى الموت، لكنّني معه في أنّ القلاع هي السبب. لماذا. . لا نهاجم القلاع؟

ابتسم بشير الحكيم دون أن يجيب، دون أن يقول له: هذا سيصير يومًا ما!

- ١١ -

عندما شفي الأرقش من الحمّى التي أصابته، بفضل معالجة الطبيب ياسر، وعناية قمْطرة وميلاد به، كان سؤاله الأوّل: «هل قُتل الذئب الأسود؟» وقال الثلاثة معًا: «لا! لم يُقتل!» قال: «أصدقوني!» قال ميلاد: «بماذا نصدقك؟» «بأنّهم رأوه هناك، في الغابات الاثنتين والعشرين» قال الطبيب ياسر «لم يأتنا خبر عنه!» «كيف؟» لا كيف، لا تتعب نفسك بالسؤال عنه، إنّه، كما يقول الحكيم بشير: «حقيقة ووهم!» صرخ الأرقش: «بل إنّه حقيقة!» «الحقيقة تُرى يا الأرقش، ولأنّ أحدًا من الصيّادين لم يره، فإنّه وهم». قال الأرقش وهو يصرّ على أسنانه: «لا! إنّه حقيقة، وأنا أعرف!».

فكّر الطبيب ياسر: «هل لايزال الأرقش تحت وطأة الحمّى؟ إنّ إصراره على أنّ الذئب الأسود حقيقة لا وهم، فيه نوع من الخبل، والخبل قد يستمرّ إذا لم يشف المريض تمامًا، ماذا عليّ أن أفعل؟» قال بصوت مسموع:

ـ النكْس من الحمّى، أخطر من الحمّى نفسها، لذلك عليك، يا الأرقش، أن تتناول الدواء بانتظام، أرجوك.. نحن جميعًا بحاجة إليك، وأنت وحدك، عندما تشفى

تمامًا، مَن سيقتل الذئب الأسود، الذي تقول إنّه حقيقة، وهو حقيقة فعلاً، مادمت تراه كذلك، ولتذهب حكمة الصيّاد بشير إلى الجحيم!

قال الأرقش:

ـ إنّني شفيت تمامًا، ومع ذلك سأتابع تناول الدواء بانتظام، كي أثبت لكم جميعًا، أنّني لست فوضويًا، ولم أكن يومًا من أتباع باكونين.. الحكيم بشير على حقّ: الذئب الأسود، الذي أصرّ على أنه حقيقة، هو وهم أيضًا، لأنّ أحدًا لم يره، مع أنّه موجود في غاباتنا.

قال ميلاد:

ـ ليس في غاباتنا فقط يا الأرقش، إنّه في شوارع عاصمتنا، وفي شوارع المدن الأخرى كما قيل لي، عندما ذهبت لإحضار الدواء.

قال الأرقش:

ـ صدقت يا ميلاد، يا صغيري العزيز، الذئب الأسود يتجوّل في شوارع العاصمة نفسها، وهذا ما يؤلمني جدًّا، ولكن ما العمل؟

قالت قمْطرة:

ـ العمل أن نطارده في العاصمة أوّلاً.. العاصمة هي الرأس، ونحن نطارده في الغابات، وهي الذنب، وهنا الخطأ!

ـ الخطأ كما تقولين يا قمْطرة.. إنّه في الرأس وليس في الذنب، غير أنّ المسألة أعقد من ذلك.. المسألة، في

رأيي، أين ولد الذئب الأسود، أين فرّخ وتكاثر، ومن أين جاء، وكيف جاء، ولماذا؟ أين الدواء؟

ناوله الطبيب ياسر الدواء، تناوله الأرقش احترامًا للطبيب، وكي يثبت أنّه ليس من أتباع باكونين، وأنّه لم يكن يومًا فوضويًا، أو من أنصار الفوضويّة، ويعرف ما انتهت إليه من إخفاق، ويتذكّر قولة باكونين: «عزاؤنا الباقي في الموت!» وهو، الأرقش، لا ينشد الموت بل الحياة، يريدها، يصرّ عليها، إلى أن يُقضى على الذئب الأسود وسلالته، بيده أو بيد غيره من الصيّادين، لا فرق، وما قالته قمْطرة عن الرأس والذنب صحيح، إلاّ أنّها لم تقل أين حضانة هذا الذئب، وهل هي في الرأس أم الذنب؟ العاصمة هي الرأس، والذئب، كما قال ميلاد، يتجوّل في شوارعها، وهذا في ذاته الخطر الأكبر، إنّما هناك الخطر الأصغر، وربّما كان السرّ فيه، والسؤال، بعد، أين هي القلاع، في المدن أم في الغابات؟ الخطر، كلّ الخطر، في القلاع، ولابدّ من التصويب على القلاع أوّلاً، ولكن بعد اكتشاف مكانها، المهمّ اكتشاف مكانها، فأين هو هذا المكان؟

تظاهر الأرقش أنّ جرعة الدواء أنعشته، وقد تكون أنعشته فعلاً، لذلك نهض واقفًا متحدّيًا، وقال:

ـ إنّني راحل!

أضاف:

ـ والدواء معي.

قال الطبيب ياسر:

ـ والنقاهة؟

ـ في الهواء الطلق تكون أسرع وأفضل.

ـ الهواء الطلق موجود هنا أيضًا.

ـ تغيير الهواء ضروري.. مَن يأتي معي؟

ـ كلّنا!

ـ لا! ليس كلّكم.. الطبيب ياسر يعود إلى عيادته، ميلاد يرجع إلى العاصمة لمراقبة الذئب الأسود في شوارعها، قمْطرة تعبت بالسهر عليّ وأنا مريض، لذلك ترتاح في بيتها، صقرش وحده يأتي معي، والسرّ يبقى سرًّا، هذه وصيّتي.. أنا لم أَرَكم، وأنتم لم تروني، إلى اللّقاء!

قال الطبيب ياسر في نفسه: «كأنّها وصيّة الوداع!»وقالت قمْطَرَة: «لماذا يريدني أن أستريح ولست تعبة؟ يا ربّي كم هو حسّاس بأشياء الآخرين، حسّاس وشجاع وعنيد، غير أنّ الأمور، بالنسبة إليّ، تختلف، فأنا لست حبيبته، أنا حارسته، ولن أدعه بغير حراسة.. آه لو كنت فتاة صغيرة بعد!»، وقال صقرش: «فَعَلَ حسنًا عندما اصطفاني لمرافقته، إنّه رجل، ويفهم جيّدًا معادن الرجال، ولكن لماذا استبعد قمْطَرَة، مع حاجته إليها؟ هناك سرّ ما، سينكشف في هذه الزيارة.. تُرى قُمْطَرَة تحبّ الأرقش؟ تحبّه وتكرهني؟ لا! إنّها لا تحبّه، تُكبر رجولته فقط، ومَن لا يكبر الرجولة؟ لكنّه، هو، غير معنيّ بهذا، رجولته تلقائيّة، عفويّة، حتّى أنه ينكرها إذا ذُكرت، يصرّ على أنّه واحد من الصيّادين، وكلّ صيّاد شجاع، أو يَحسن به أن يترك مهمّة صيّد الذئب الأسود لسواه.. عيبه الوحيد أنّه لا يلاحظ تعلّقي بقمْطرة،

وإلاّ ما فرّق بيننا. . وفضيلته الكبرى أنّه يختار الصحّ: التصويب على القلاع!»

الأرقش، ولو من باب التخمين، كان يستشعر بعض ما دار في رؤوس أصحابه، وهو يتقلّد بندقيّته، ويقول لهم: «إلى اللّقاء!» اللقاء أين؟ وكيف؟ وفي أيّة غابة!؟ نظرته ردّت على أسئلة النظرات من حوله، قالت: «هنا، في هذه الغابة، غابتنا، بيتنا، ومنه نبدأ الترتيب!» إنّما لم تقل العيون، التي تدري بما تنطوي عليه الصدور، متى سيكون ذلك، لهذا سأله الطبيب ياسر:

ـ هل تطول غيبتك يا الأرقش؟

أجاب الأرقش بحسم:

ـ وهل أنا ذاهب للعب؟

ـ لم أقصد هذا، فالذي يبتلعه التنّين مثل يونس، من الطبيعي ألاّ يعرف متى يلفظه على الشاطئ. . أنت ذاهب إلى التنّين، ولن يكون رحيمًا معك كما كان مع يونس، تنّين القلاع من نوع آخر، وهو مفترس بضراوة، لذلك أسأل لأطمئن!

ـ اطمئن إذن، فعندما أعود سيعرف رسولي طريقه إليك.

قالت قمْطَرة:

ـ وأعرفه أنا أيضًا!

تجهّم الأرقش وقال:

ـ أنتِ لن تكوني معي.

أجابت، ببرودة دم أفعى في الشتاء:

ـ بلى. . سأكون!

ـ هل هذا لأنّ صقرش سيكون معي؟

ـ أنت أقدر على المعرفة.

ـ في هذه الحال يبقى صقرش معك، ههنا.

ـ بل نكون، صقرش وأنا، معك. . هذه كلمتي!

ـ وكلمتي أنا؟

ـ مسموعة جيّدًا، ومطاعة إذا أردت الإِيضاح والتوكيد، إنّما. .

قالتها ولم تكمل. .

سأل الأرقش:

ـ تخافين عليّ؟

أجابت:

ـ ليس من القلاع وحدها.

قال صقرش:

ـ دور القلاع لم يأت بعد.

قال الأرقش:

ـ هذا صحيح. . دور القلاع عند تصفية الحسابات، ولسنا، الآن، في هذا الوارد. .

قالت قمْطَرَة:

ـ نحن في وارد آخر، ولهذا سأكون معك.

ـ وارد المرأة؟

ـ شيء من هذا، وغيره أيضًا.. دعنا نسرْ، بعد أن توكّلنا.

ساروا، صقرش من أمام، الأرقش في الوسط، وبعده قمْطَرَة.. ثلاثة في طريق غابيّ، بين الأشجار والأدغال، ناقوس دير يدعو إلى الصلاة، مهابة سكينة في الغابة، زقزقة عصافير على الأغصان، ابتهالات ممؤسقة مجهولة المصدر، وصمت!

ثلاثة في طريق، صمت في طريق، أطويل هذا الطريق؟ ربما نعم! ربما لا! ويبقى السؤال اشتياقًا، فمَن يُجب على السؤال؟ لا أحد! كلّ أحد، ليكن صمت.. وكان الصمت. في الغابة يحلو الصمت. تتكلّم هي، ماذا تقول الغابة للسائرين في الغابة؟ ربّما لا شيء، ربّما أشياء، إلاّ أنّ السائرين فيها يصغون، يمضون إلى أمام ويصغون، يتوهون ويصغون، يصبح الإصغاء ناموسًا، يصبح مغامرة. أنت في الغابة؟ إذن أنت على موعد مع المغامرة، وما الحياة بغير مغامرة؟ تفاهة، عندئذ، تكون. الضياع، أحيانًا، لقاء، هل ضعت يومًا؟ أن تضيع لأنّك ببساطة ضعت، فإنّ فرحًا ما سيملأ قلبك وأنت تهتدي إلى الطريق، والثلاثة: صقرش، الأرقش، قمْطَرَة، ضاعوا، تاهوا عن الطريق، ودون أن يسحب الأرقش قلبه، ويرفعه مشعلاً ليبدّد الظلمة، تكفّلت الشمس بدور المشعل، فاهتدى الثلاثة إلى الطريق، وقال صقرش:

ـ الذنب ذنبي، لأنّني كنت في المقدّمة، ولم أكن أحسب أنّ هذه الغابة كثيفة إلى هذا الحدّ!

سأل الأرقش وقد جلس الثلاثة ليستريحوا:

ـ هل رأيت، يا صقرش، الغابات الكثيفة؟ وأين؟

فكّر صقرش، استعرض الغابات الاثنتين والعشرين التي مرّ بها، وتحدّث مع الصيّادين التي فيها، وما يقومون به من جهد لاصطياد الذئب الأسود، الذئب الذي يؤمن كلّهم أنّه موجود، ويقسم كلّهم على أنّهم لم يقعوا له على أثر، حتى باتوا على شيء من اعتقاد، أنّه حقيقة ووهم معًا، مردّدين مقولة بشير الحكيم، الذي يعرفونه ويحبّونه، ويقدّرون فيه رجولته وحكمته، لكن الغابات التي اخترق صقرش قلبها وجوانبها، في ارتياد تنقيبيّ عن الذئب الملعون، لم تكن كثيفة إلى الحدّ الذي يسأل عنه الأرقش، فالفرقة بين الأشجار هي الفرقة نفسها بين البشر، وهل الغابة، في تشكّلها، إلاّ البشر في تشكّلهم؟ الأرقش، في سؤاله المبطّن، يبتغي جوابًا غير مبطّن، والجواب محيِّر، فماذا وراءه؟

قال صقرش:

ـ لا! لم أر الغابات الكثيفة، لكنّني أسمع عنها، يقال إنّها في أفريقيا، وربّما كان الذئب الأسود موجودًا هناك.

صاحت قمْطَرَة:

ـ بل موجود هنا، في الغابة التي كنّا فيها، وفي الغابة التي صرنا إليها! الأرقش يعرف ذلك، لكنّه يسأل ليمتحن ذكاءك يا أبله!

الأرقش لزم الصمت. في الغابات الكثيفة وغير الكثيفة

الذئب الأسود يرتع على هواه، «كلّنا في الهمّ شرق» وكلّنا، في هذا الشرق، منهوب الرزق، مهاض الكرامة، مخنوق الصوت، يرى، يسمع، يتأمّل، يتألّم، ثمّ يبلع لسانه حتى لا يقطع.. وعلى الطرقات تنتصب إعلانات طويلة عريضة، بارزة، فيها صورة مقصّ مفتوح الشدقين الرهيفين، وما تبقّى في الإعلان فراغ، فلماذا الإعلان؟ ولماذا المقص؟ ولأيّ سلعة يسوّق؟ ولماذا يتكرّر عشرات المرّات؟ وهل هو تحذير اتخّذ من الإعلان شكلاً؟ إنّه مفرد، مجرّد مقصّ مفتوح ومفرد، إلاّ أنّ الذي يراه يتحسّس لسانه، يخاف عليه من القطع، يرتعش، يرتعد، يشيح بوجهه كيلا يراه، يغمض عينيه كي يتفادى رؤيته، إلاّ أنّ الإعلان يتكرّر، على مدى عشرات الآلاف من الكيلومترات يتردّد، والمسافر الخائف يزايله الخوف مع طول المسافة، مع انتفاء المعاناة، لأنّه يتذكّر أنّه بلا لسان، وأنّ لسانه قد قطع من زمان، وأنّه حيّ ميت، وأنّ أمثاله من الأحياء الأموات على الدروب يسيرون، فيترحّم، إذا كان مثقّفًا، على بدوي الجبل، الذي في زمن ما، في مكان ما، وصف بشكل رائع ومؤثّر، هؤلاء الأحياء الأَموات، الزاحفين على بطونهم الخاوية، فوق أديم من شوك، من مسامير، على كلّ الطرقات التي شهدت هزيمة حزيران!

طال الصمت، طال الكلام بلا كلام، طال الجلوس، اهتزّت «عقد القصب»، تعالى في سكينة الغابة صوت فيروز «يا شجرة الأيّام عرّاها الهوا، أنا مثلك، وحيدة على مفرق طريق!» علّقت قمْطَرَة:

ـ الصوت صوت فيروز، لكنّ الشعر ليس بمستقيم، هناك خلل!

قال صقرش:

ـ نعم! فيه خلل، والحقّ على الذاكرة.. ماذا نفعل إذا كنّا قد شخنا، وشاخت الذاكرة معنا؟

برطمت قَمْطَرة:

ـ أنت، يا صقرش، وحدك الذي شخت.. ما رأيك يا الأرقش؟

ابتسم الأرقش وقال:

ـ صقرش وحده الذي شاخ! وهذا واضح من الشيب في رأسه وشاربيه، أمّا أنتِ، يا قَمْطَرة، فإنّ شعرك بلون اللّيل!

قال صقرش:

ـ وسيظلّ بلون اللّيل، مادامت هناك صبغة شعر!

ـ فشرت.. هذه خلقة ربّي!

ـ ربّنا لا علاقة له بالصبغة.. أنت امرأة وتعرفين، شعر النساء كلّ يوم بلون، إذا أردنه أشقر كان أشقر، وإذا أردنه أصفر كان أصفر، والضحايا نحن الرجال، نرى فنصدّق.. أليس كذلك يا الأرقش؟

قال الأرقش بلامبالاة:

ـ تمامًا!

صاحت قمْطَرَة:

ـ ما هذا، تمامًا؟

ردّ الأرقش:

ـ المقصّ.

ـ سافروا على الطرقات تعرفوا.

ـ هل هذه ألغاز؟

ـ هذا ريلاكس relaxe!

تلاقت عيون أربع، فيها قلق ظاهر: الأرقش يهذي، بعد أن عاودته الحمّى، فماذا نفعل والطريق طويل؟ الطبيب ياسر غير موجود، والدواء يكاد ينفد، وليس من صيدليّة في الغابة.. مصيبة!

ابتسم الأرقش، سمح لقمْطَرة أن تضع راحتها على جبينه، ناولته الدواء فشربه، أرادت أن تنتزع بندقيّته فامتنع عليها، طلبت منه أن يتمدّد، أن يستلقي على العشب، في ظلّ الصنوبرة الوارف، فقال لها:

ـ أنا هكذا على ما يرام.

ـ ولكنّك تهذي!

ـ صفائي الذهني لم يكن يومًا بأفضل ممّا هو عليه الآن.

أضاف:

ـ بعد قليل نواصل السير إلى حيث يجب أن نكون!

ـ وأنت على هذه الحال؟

«زوّدينا بحسن وجهك مادام، فحسن الوجوه حال تحولُ»

ضحك صقرش وقال:

ـ حسن وجهها؟ عن أيّ حسن تتكلّم؟

دقّت قمْطَرة على صدرها، وقالت:

ـ عن حسن وجهي!

قال الأرقش وهو يستوي في جلسته:

ـ «كلّ من واقف عَ سلاحو».

قال صقرش:

ـ اللّعنة عليّ إذا كنت أفهم شيئًا!

وقالت قمْطَرَة:

ـ وعليّ مثلها إذا كنت أفهم أكثر ممّا تفهم يا صقرش.. إنّه يهذي، الأرقش يهذي، والحمّى داخليّة هذه المرّة، العون منك يا الله!

قال الأرقش:

ـ لا تخافا عليّ، إنّني في تمام الصحّة، وقد استعدت عافيتي بسبب من هذه النسمات الرهوة، المنعشة.. في هذه الغابة الظليلة.

أضاف مبتسمًا:

ـ ما رأيكما بالزواج؟

ـ من رئيفة؟

ـ هذه من نصيب دغمش، وقد تركتها له حتى لا يقتلني كما قال.

ـ من فدوى؟

ـ هذه تزوّجت عارف الداري زواجًا عابرًا.. زواج المتعة، أرَجُ هذه الأيّام.

ـ ممّن تتزوّج إذن؟

ـ أنا لا أتحدّث عن زواجي، بل عن زواجكما.. عندما نصل إلى الحكيم بشير، سنعقد قرانكما في حفل بهيج، وبهذا وحده نتخلّص من النقار بينكما، ويترك كلّ منكما السلاح الواقف عليه.

ـ كنت تعني إذن..

قاطعها الأرقش:

ـ نعم، يا قمْطرة.. كنت أعني!

ـ وأنت؟

ـ كبرنا وكبر همّ الذئب معنا!

قال صقرش:

ـ أنت، يا الأرقش، تعرف ما يقوله الحكيم بشير.. الذئب الأسود، يا صديقي، حقيقة ووهم!

أجاب الأرقش:

ـ كلّ الأشياء، في هذه الحياة، حقائق وأوهام!

ـ هذه فلسفة.

تنهّد الأرقش وقال:

ـ آه من الفلسفة! كلّ ما نجهله نقول عنه فلسفة، وبنوع من الاحتقار، فلماذا؟ لماذا صارت كلمة فلسفة مشجبًا نعلّق عليه سراويلنا وأحذيتنا؟ ليس هناك حقيقة دون قَدْرٍ، ولو بسيط، من الوهم، وليس من وهم ليس فيه ولو قَدْرٍ بسيط من الحقيقة.. ما لا نعرفه اليوم، سيتكفّل العلم بتعريفنا إيّاه

غدًا. . هذا هو الطريق إلى المعرفة، أو الأصحّ إلى بعض المعرفة. . عبّاس بن فرناس جرّب الطيران قبل اختراع الطائرة، وحنّا كوزي، الذي كان مصابًا بالوسواس القهري، فكّر بالمدجنة قبل أن تكون المداجن، كما فكّر بالآلة الحاسبة قبل أن تخترع هذه الآلة. . هذا ما يسمّونه اختلاط الحقيقة بالوهم، والعكس صحيح أيضًا.

قالت قَمْطَرَة، بكلّ ما في قلبها من حدب وإشفاق على الأرقش:

ـ حسبتك، في الوهلة الأولى، تهذي، خفتُ، ارتعدتُ من الخوف، فليس سهلاً، لو عاودتك الحمّى، أن تُعالج، وأن يتوافر لك الدواء اللازم ونحن في هذه الغابة، وقد أضعنا الطريق بسبب غباء هذا الغبي صقرش.

قال صقرش:

ـ اتّقي الله يا قَمْطَرَة، تأدّبي وإلاّ. .

قاطعته صائحة:

ـ وإلاّ ماذا؟ تضربني؟ تطلق النار عليّ؟ أرِني شجاعتك إن كنت رجلاً.

قال صقرش:

ـ أنا رجل الرجال!

ـ فشرت. . كلّ كلامك تفشير. . قل هذا الكلام عندما لا يكون الأرقش موجودًا، فإذا كان موجودًا يكون هو رجل الرجال، ويكون عليك أن تخجل من ادّعاء الرجولة!

قال صقرش:

ـ هل سمعتَ يا الأرقش؟ هذه الشمطاء تجرّدني حتى من رجولتي، فكيف أتزوّجها؟

قال الأرقش:

ـ أشهد، يا صقرش، إنّك رجل، رغم غبائك في الجغرافيا، وأشهد أنّ قمْطَرَة ليست عجوزًا، وإنّما هي فرس شموس، تحتاج إلى الترويض، وأنت، بعد الزواج، مَن يروّضها. . وهذا النقار بينكما دليل على الحبّ، وقد استمتعت به جدًّا، وتمنّيت أن يكون هناك، بيني وبين أيّ امرأة أحبّها، مثل هذا النقار، لكنّني، كما قلت، لست معنيًّا برئيفة، وفدوى تزوّجها نافع الداري زواج متعة، وأنا، لاسيّما بعد المرض، أحسّ أنّني كبرت، وكبر همّ الذئب الأسود معي، إلاّ أنّ هذا الذئب له سلالة كبيرة، تتوالد وتتكاثر في القلاع، وقد نذرت نفسي لمقاومة هذه القلاع، بصرف النظر عمّا إذا كنت سأنجح أم لا . . إنّها حصينة، قلاع الأسياد هذه، لكنّني مصمّم على محاربتها، على هدمها، أو «أموت فأعذرا» أموت على يقين بأنّ الشعب سيكون سيّدها، من دون حساب للزمن، فالذي يتصدّى لإزالة الظلم، حتى ولو جزئيًّا، لا يحسب حساب الزمن، مَن يحسب حساب الزمن يتعب، والزمن طويل، لا يقاس بعمر الإنسان، لذلك على الإنسان ألاّ يكون أنانيًّا، راغبًا في أن تتحقّق العدالة في حياته، لأنّها، على هذا الأساس، لن تتحقّق، وعندئذ تكون خيبة الأمل، يكون السقوط، هل تفهم؟

قالت قمْطَرة:

ـ أنا أفهم يا الأرقش، أمّا صقرش فهو جحش، خنزير،

وقد قال السيّد المسيح «لا تطرحوا درركم أمام الخنازير». . فلماذا تطرح دررك أمامه؟ إنّني مؤمنة، مسْلِمة، وكلّما واجهت مصيبة، أتذكّر الآية الكريمة: ﴿واصبر على ما أصابك، إنّ ذلك من عزم الأمور﴾ صدق الله العظيم. . لقد خدمت، وأنا في عزّ صباي، في أحد الأديرة. . لم أصبح راهبة، لا رهبنة في الإسلام، لكنّني هناك، في الدير، تعلّمت الكثير من الأشياء. . ثمّ مع السلامة. . خادمة كنت، ولم أجد الخدمة عيبًا، وبعد ذلك تابعتُ، ثابرتُ على المطالعة، على التعلّم، حتّى حصلت على الكفاءة. . وأنت، يا الأرقش، بعد هذا كلّه، تريد تزويجي من هذا الجحش صقرش!؟

ضحك الأرقش، وقال صقرش:

ـ أنا لست جحشًا يا حمارة، والدليل أنّني فهمتُ أكثر ممّا فهمتِ، وطزّ في الكفاءة التي معك! إنّني، يا غبيّة، قرأت بعض الكتب أيضًا، ثمّ ماذا؟ الأرقش لم يتكلّم، هذه المرّة، بالفلسفة، تكلّم مثلي ومثلك، قال: «وليس للإنسان إلاّ ما سعى» وأنا أسعى، أطارد، مثل الآخرين، الذئب الأسود، وقبل هذا كنت أداوم على شيخي في الجامع، ومنه تعلّمت أنّ الله سيمنّ على المستضعفين، وماذا أنا؟ مستضعف، وسيمنّ الله عليّ، وهذه زبدة كلام الأرقش.

قال الأرقش:

ـ نعم! هذه زبدة كلامي، وهذا النقار بينكما سيزول بعد الزواج، لاسيّما بعد أن تَلِدي صقرش صغيرًا.

نبرت قمْطَرَة:

ـ أنا لن أتزوّج هذا الجحش، ولن ألدَ جحشًا آخر!

رفع صقرش بندقيّته في وجهها وقال:

ـ اسحبي كلامك فورًا وإلاّ قتلتك!

أمسك الأرقش ببندقيّة صقرش، وقال:

ـ هل أنت مجنون؟ قلت لك إنّ قمْطَرَة فرس شموس، وبدلاً من أن تقتلها اركبها، ولكن بعد الزواج، عندئذ ينزاح كلّ منكما عن سلاحه.. هيّا نتابع السير!

وقف الثلاثة، قالت قمْطَرة برنّة غضب:

ـ اسمع يا الأرقش! كلمة «اركبها» هذه غير لائقة، فاعتذر عنها، وبذلك تسحب تعبيرًا أحسبه زلّة لسان، لأنّني عرفتك كيّسًا، مهذّبًا، تزن كلماتك بدقّة، بعيدًا عن كلّ عيب، في اللّسان واليد، وفي معاملة الذين معك.. أنا قمْطَرَة ولست أيّ امرأة، فاعتذر فورًا.

صعق الأرقش، ندم على ما قال، تسمّر في مكانه، أطرق خجلاً، مدركًا أنّ زلّة لسانه، ولو على سبيل المزاح، ما كان يجب أن تكون، وأنّ قمْطَرَة، التي سهرت عليه وهو مريض، مخلصة له في نقاهته، مرافقة له في طريقه، وهي، بعد كلّ شيء، امرأة، وبصرف النظر عن الأنوثة فيها تبقى امرأة، وأنّ المرأة حسّاسة بدرجة تفوق الرّجل، كائنًا من كان، في رهافتها ونبلها، وأنّه كذكر انكشف أمام أنثى، ولن يفيده اعتذاره، مهما يكن صادقًا، صادرًا عن ذاته الجريحة، وأنّ قمْطَرَة ستقبل اعتذاره، لكنّها لن تنسى أبدًا كلمته النابية بحقّها، وأنّه كالبحّار الصادق، الذي يحاول عبثًا أن يمحو

لحظة كان فيها جبانًا، من ذاكرته.. ماذا يقول الآن؟ كيف يتصرّف؟ وبأيّ شكل يستعيد صورة البطل الذي كانه في نظرها؟ اللّعنة على البطولة، هذه التي ألصقت به دون أن يدّعيها، ودون أن يعرف كيف يتخلّص منها، إنّه إنسان، مجرّد إنسان، لكنّه ذكر، في مجتمع ذكوريّ، مثله مثل صقرش ودغمش ونافع الداري، وغيرهم أيضًا، إلاّ أنّه، في المآل، لم يحسن القول ولم تحسن الحال، كما قال المتنبّي، وخسر، في الحالتين، سمعته التي يحرص عليها!

قالت قمْطَرة التي آلمها، هي المخلصة للأرقش، أن يتعذّب الأرقش في صمته والإطراق:

ـ لا عليك يا الأرقش، إنّني أعفيك من الاعتذار، لا تعتذر ولا تهتمّ!

قال الأرقش في نفسه: «إنّه الإشفاق، وهذه بليّة أخرى.. قمْطرة أشفقت عليّ، وليتها لم تشفق، كان ذلك أرحم!» وضع بارودته في كتفه، بغير أن تصدر عنه كلمة؛ إنّه يعرف الطريق، وحتى لو أضاع الطريق، فإنّ ذلك ليس مشكلة، ولعلّه في الضياع يكسب، يشفع له غباؤه، يعرّيه من هالة البطولة، يعيده مخلوقًا كسائر المخلوقات.

مشى الأرقش من أمام، تبعه صقرش، صاحت قمْطرة:

ـ أنا لا أمشي وراء رجل!

غضب صقرش:

ـ وأنا لا أمشي وراء امرأة!

الذكوريّة مرّة أخرى، صقرش ذكر، يرى من حقّه أن

يتقدّم المرأة، والمرأة أنثى، عليها أن تسير وراء الرجل، إلاّ أنّ قمْطرة صيّادة وصقرش صيّاد، وفي الغابة يتساويان، يسيران جنبًا إلى جنب.. وهكذا سارا جنبًا إلى جنب، بينما الأرقش يسمع نقارهما ويبتسم في سرّه.

- ١٢ -

كان الحكيم بشير يعرف ما يريده الأرقش، ويوافق على هذا الذي يريده، إلاّ أنّ وقته لم يحن بعد. والأرقش المؤمن بقولة «للظلم يوم وللمظلوم يومان» لم يكن متعجّلاً لإنصاف هذا المظلوم، فالزمن يسيل، يجري كما النهر إلى البحر، وفي سيلان الزمن تختبئ الأحلام، وعليه، هو الأرقش، أن يخبّئ حلمه في هدم القلاع، في مطاوي الزمن الآتي. . لذلك قال للحكيم بشير:

ـ علينا أن ننسى تجربة العدالة الاجتماعيّة الفاشلة، والتي صارت وراءنا، وأن نتطلع إلى العدالة الاجتماعيّة التي هي أمامنا.

قال الحكيم بشير:

ـ هذا هو الصواب. . أنت، يا الأرقش، أكثر حكمة منّي، لكنّك لا تدّعي الحكمة، وهذه فضيلتك. . إنّني مثلك، ضدّ الحكمة المبتذلة، وأعجب لأنّ الحكمة صارت مبتذلة إلى هذا الحدّ!

قال الأرقش:

ـ ومع ذلك لابدّ من وجود حكيم بيننا، وهذا أمر متفق عليه. . أنت هو الحكيم الذي اختاره القدر، والقدر أحيانًا

لا يعانَد، فكنْ معه لا ضدّه، وتحمّل كما نتحمّل جميعًا.. كن، في هذه الغابة، القاضي العادل، الذي لا تأخذه في الحقّ فيلة قائل بالباطل.. الحجّاج قال: «أرى رؤوسًا أينعت وحان قطافها». هذا، من حيث المبدأ، صحيح، لكنّنا، أنت وأنا، لن نكون الحجّاج إلاّ عند الضرورة القصوى، عندما يخون أحدهم قضيّتنا، فيكون بيننا صيّادًا للذئب الأسود، وهو، في الوقت نفسه، عين علينا للذئب الأسود.. أنت، يا حكيم، لست أبا موسى الأشعري، وإيّاك أن تكونه.. أنت طيّب، والطيبة تحتاج إلى حماية، فبماذا تحمي طيبتك؟ بالرأفة؟ هذه لها وقت، والحزم له وقت آخر!

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ أنا، يا الأرقش، لستُ أبا موسى الأشعري، لكنّك، أنت أيضًا، لست عمرو بن العاص!

ـ أنا معاوية! هل سمعت أنّ معاوية كان عاشقًا؟ كانت لديه نساء، لكنّه لم يكن مجنون ليلى، وهنا يكمن الفارق.. معاوية بنى دولة، ونحن نعمل لبناء العدالة الاجتماعيّة، وفي زمن آخر، أشد صعوبة ومكرًا، إذن علينا أن نكون معاوية هذا الزمان، لا نقطع شعرة مع أحد، ولا نسمح لأحد أن يقطع الشعرة معنا.. هذا ما يسمّونه الدهاء، وفي الدهاء كان عمرو بن العاص تلميذًا نجيبًا لمعاوية، وقد امتحنه يومًا، فسأله: «ما مبلغ دهائك يا عمرو؟» أجابه: «ما دخلت مدخلاً، يا أمير المؤمنين، إلاّ وأحسنت الخروج منه» ردّ معاوية: «ما هكذا يكون الدهاء يا عمرو.. الدهاء ألاّ

تدخل مدخلاً تدفع ثمن الخروج منه!»

قال الحكيم بشير:

ـ إلى أين تريد الوصول يا الأرقش؟

أجاب الأرقش هادئًا، حازمًا:

ـ إلى بركة الماء!

ـ والرغبة الجنسيّة؟

ـ ألا تكون بالإكراه.

فكّر الحكيم بشير، وقال:

ـ سمعتَ بقصّتي مع رئيفة؟

ـ وسمعها الصيّادون كلّهم!

ـ اشتهيت أن أضمّها بين ذراعي.. ألا تشتهي أنت أن تضمّ امرأة بين ذراعيك؟

ـ لا أكذبك.. أشتهي، ولكن بعد أن أتيقّن أنها، هي أيضًا، تشتهي ذلك، وليس قبله.. إنّني أردّد، هذه الأيّام، العبارة التالية: «كبرنا وكبر همّ الذئب معنا». ألم يكبر همّ الذئب معك أيضًا؟ بلى! لكنّك مثلي، تمشي على خطا عمر ابن أبي ربيعة!

ـ كفى تقريعًا!

ـ معاذ الله يا حكيم أن أقرّعك وأنا مريدك!

ـ لكنّك لم تسقط مثلي في حوض النبع، مدفوعًا بكفّ امرأة وهي تضحك!

ـ من قال ذلك؟ كلّنا بشر، والبشر جميعًا يرتكبون

الحماقات، وما الحياة بغير حماقات؟ تكون عندئذ جافّة، بليدة، مملّة، تكون خشبة يابسة لا غصنًا أخضر. . أنا، يا حكيم، مع الغصن الأخضر وليس مع الخشبة، إنّني أحيانًا مع الحماقة ولست ضدّها، شريطة ألاّ تكون الحماقة ديدننا، ألاّ ننام ونستيقظ معها. . وإذا قلت لك إنّك، مع الحماقة، لست من هذا الصنف، فإنّني لا أجاملك أبدًا. . العمر شراع مسافر تقول فيروز، ومن يركب الشراع يجمل به ألاّ يتمتّع بزرقة البحر فقط، بل أن يتذوّقها أيضًا، أن يحتويها، إذا استطاع، بكفّه، أن تتندّى بها راحته. . وأنت، في شراع العمر المسافر، لم تخرج عن هذا. رئيفة جميلة، والله جميل يحبّ الجمال، فما الضير إذا أحببت في رئيفة جمالها، ورغبت أن تحتوي هذا الجمال بخصرها الضامر؟

قال الحكيم بشير:

ـ إذن أين المشكلة؟

ـ المشكلة أنّك تسرّعت، ناسيًا أنّ الانتصار لا يكون مع التسرّع، أمّا ما تفرّع عن هذه المشكلة، فإنّه مشكلة أخرى: الندم الذي اعتراك، والذي لا تستطيع أن تنساه، أنت الذي يصرّ على أن ينساه. . عندما نصرُّ على النوم يجافي النوم، وفي هذه الحال دعه يأتِ، عندما، تلقائيًّا، يأتي. . هل سمعت بإنسان لا ينام؟ أو أنّه مات من قلّة النوم!؟ يقولون إنّ السمك لا ينام، لا تصدّق هذا، السمك ينام أيضًا. .

كان الأرقش والحكيم بشير يجلسان على صخرة النبع، وكان صقرش وقمْطرة قد توغّلا بعيدًا في الغابة، بعد أن تزوّجا شرعًا على يد مأذون من الصيّادين، وكان الجو صيفيًّا

معتدلاً، والنبع، من تحت الصخرة، يتدفّق بماء بكر صاف، عذب، قام بدورته، ما بين تبخّر وانهمار، حيث لا زيادة ولا نقصان، في توازن الطبيعة الذي لا يعرف الخلل، وحيث الملتقى المعتاد، يكون هنا دائمًا، على النبع الأكبر، الأغزر، بين ينابيع هذه الغابة، وحيث رأى دغمش رئيفة عارية، تبترد من الحرّ، فجنّ بها، وقرّر أن يقتل الأرقش حبيبها.. وحيث سقط الحكيم بشير، فكانت سقطته مثار ندم شديد، يداريه مداراة، لكنّه لا ينساه أبدًا، برغم كلّ ما قاله الأرقش له.

جاءت رئيفة تركض لاهثة من فرط شوق لرؤية الأرقش، الذي علمت أنّه هنا.. كانت، وهي تسرع للقائه، تفكّر كيف سيكون هذا اللقاء، تقبّله؟ تحتضنه؟ تضع رأسها على صدره وتبكي؟ تشتكي ممّا بها إليه؟ تعاتبه؟ ما نفع العتاب؟ تقول له: يا هاجرني؟ تلومه لأنّه هجرها، فيزداد تشوّقًا عليها؟ تسكت؟ «الأفضل، قالت في نفسها، أن أسكت، أن أرى ردّة فعله، بعد هذا الغياب الطويل»، لكنّها لم تسكت عندما رأته، ولم تتكلّم أيضًا، تجمّدت وهو يمدّ يدًا باردة لمصافحتها، ابتلعت أساها وهي تصرخ، ما إن رأته من بعيد:

ـ الأرقش!

كانت تتوقّع أن يصرخ بدوره:

ـ رئيفة!

لكنّه لم يفعل. نهض، واللامبالاة تتبدّى على محيّاه، وقال لها:

ـ كيف أنت يا رئيفة؟

أجابته:

ـ بخير!

جلس، جلست، خيَّم صمت، تمطّى الصمت، تثاءب، كانت إلى جواره، كان إلى جوارها، ما نفع التجاور إذا كان مصقعًا؟ كيف تنقدح الشرارة دون فولاذ وحجر من صوان؟ كل شيء عادي، كل شيء مألوف، والحبّ، حين يكون.. لا يكون عاديًا، لا يكون مألوفًا، ينبذ العاديّة، يقتلها، يخترق المألوف، يمزّقه، ينبذ الحكمة، يلعنها، يدعها تعوي، تجعجع، يخرج من إهابها، يخزّق هذا الإهاب، «آه لو خزّق إهابي، لو مدّ يده، وبأظافره، قطّع منْهدةَ صدري، تفرّج على صدري، على الرمّانتين في صدري، آه لو ضربني، لو أبكاني، لو دفعني إلى بركة النبع، لو أغرقني فيها، لو انتقم، في رجولته، من أنوثتي، لو أخذ بثأر الحكيم بشير منّي، آه لو يأتي دغمش، هذا الذي جنّ لأجلي، كنت سأسلّمه نفسي، أغريه بأن يغتصبني، هنا أمامه، وبغير حياء!»

دغمش لم يأت، الأرقش لم يخرج عن صمته، الحكيم بشير تلذّذ، بغير كلام، بالإهانة التي لحقت برئيفة.. كان ذكرًا، ودون حكمة، راح يلعق ذكورته، يمضغها، يتذوّقها، يتذوّقها بكثير من الأناة، مستشعرًا، بوعي كامل، استرداد كرامته، اندمال جرحه، قدرته على أن ينسى، أن يمحو من ذاكرته ما كان، وما ندم عليه، حتى كاد الندم يفترسه.

حوّاء! يا حوّاء.. هذا هو آدم الذي أكل التفاحة من

يدك، كان، يا حوّاء، بليدًا، خاملاً، منطفئًا، وأنت التي أشعلتِ النار في راحتِه.. ويا بنت لوط، كان لوط، والدك، غافلاً، فأيقظتِه من غفلته، احترقت سدوم وعمورة، لا أسف على سدوم وعمورة، لتحترق سدوم وعمورة، ففي احتراقهما انبعاثٌ، تتابعٌ للنسل، إلاّ أنّ «مغناك ملتهب ونفسك جائعة» فكيف السبيل إلى إشباع نفسك الجائعة؟ وما هي الوسيلة الأنجع لإطفاء اللهب في مغناك الذي يحنّ إلى الخنى؟

قال الحكيم بشير كاسرًا جليد الصمت:

ـ اتّقِ، يا الأرقش، شرّ من أحسنت إليه!

قال الأرقش:

ـ هذه، يا حكيم، حكمة معروفة.. أنا لا أبالي بدغمش الذي يزعم أنّه سيقتلني، إنّه جبان أكثر ممّا تظنّ!

ـ لكنّه كان قنّاصًا للبشر.

ـ كان مأجورًا، والمأجورُ عبدًا يبقى!

قالت رئيفة:

ـ المأجور، المستزلم، يكون غدّارًا.. خذ بنصيحة الحكيم، فالذي أحسنت إليه، عليك أن تأمن شرّه لئلاّ يعضّ اليد التي امتدّت إليه بالخير.

قال الحكيم بشير:

ـ هذا عين الصواب، ولي من تجربتي خير برهان، فقد كانت هناك امرأة على المزبلة، فأشفقت عليها ورفعتها عن المزبلة، لكنّها سرعان ما عضّت يدي التي امتدّت لإنقاذها!

سألت رئيفة:

ـ تقصدني يا حكيم؟

ـ أقصد امرأة سمراء البشرة، جلست، بعد أن رفعتُها عن المزبلة، على كرسي، فتملّكها إغراء الكرسي، ومن أجلها استزْلمتْ..

قالت رئيفة:

ـ إنّها قصّة مشوّقة، هلاّ قصصت على الأرقش، كيف رغبت في احتوائي بين ذراعيك، وكيف رفضتُ ذلك، ولمّا تجاهلتَ تحذيري، وصمّمت على احتوائي، دفعتك في صدرك، فسقطت في بركة ماء هذا النبع!

قال الأرقش:

ـ عرفت هذه القصّة، ولا حاجة إلى تكرارها.

ـ لكنّ الحكيم بشير يلمّح إليها.

قال الحكيم بشير:

ـ لا! أنا لا ألمّح إليها، فالتي رفعتها عن المزبلة، وأعدتها إلى المجتمع الذي كان رافضًا لها، امرأة غيرك يا رئيفة. أنت لم تجلسي على كرسي السلطة، ولم يَغُرّكِ كرسيّ السلطة، وأنت أكرم من أن تبذلي ماء وجهك من أجل العودة للجلوس عليه.. إنّها قصّة أخرى، لامرأة أخرى، مددت لها يدي فعضّتها؛ وسأروي، في المذكّرات التي أكتبها، كيف جرى ذلك، وبكلّ تفصيل.. إنّما حديثي، الآن، عن امرأة صيّادة، حبشيّة اللون، والكرسي هو هذه الصخرة التي نجلس عليها!

قال الأرقش مازحًا:

ـ هذا إذا لم يأكلك الذئب، قبل أن تكتب هذه المذكّرات!

قال الحكيم:

ـ إذن أنت لا تعرف دهائي.. في الكتابة يوضع المُلَخّصُ أوّلاً، والتفصيل ثانيًا. والملخّص، وهو يفي بالغرض، كتب وانتهى الأمر، وهو محفوظ في مكان أمين، بعيدًا عن هذه الغابة، إنّه في بلد لا يتكلّم أهله العربيّة، وقد أستعين به في كتابة مذكّراتي، وربّما أتلفته دون أن أكتب هذه المذكّرات، كلّ شيء يتوقّف على المستقبل، غير أنّ الاحتياط واجب.. وهذه الحبشيّة لي عندها ثأر، منذ رأيتها في إحدى الغابات!

سألت رئيفة:

ـ هل هذه حكاية واقعيّة، أم نسج خيال؟

ردّ الحكيم:

ـ هناك فرق بين الحكاية والمذكّرات.. المذكّرات تكون واقعيّة مئة بالمئة، وهي واقعيّة للعبرة لا للتشهير. إنّني لست مبتدئًا في الكتابة، فقد عملت في مكتب محاماة، وتعلّمت إلى حدّ الإتقان كيف تكتب المذكرات، وكيف تكون المرافعات أمام المحاكم، ولم أستخدم هذا الذي تعلّمته لإثارة أيّما فضيحة، إنّني ضدّ إثارة الفضائح، وأكره من يلجأ إليها، إلاّ أن تكون دفاعًا عن النفس، ففي الدفاع عن النفس، تُستخدم كلّ الوسائل، إذا كان هذا الدفاع صادقًا ومشروعًا.. لكن لا! لا فائدة من تذكّر ما هو سيّء، لن أكتب حرفًا واحدًا.

بكت رئيفة، قالت من بين دموعها:

ـ أنا لا أستحقّ، يا حكيم، كلّ هذه القسوة، إذا ما كان الأمر يعنيني.

لم يجب الحكيم، ترك الأمر ملتبسًا، وفجأة هتف:

ـ ها هو دغمش أخيرًا!

اقترب دغمش، ودون أن يلقي التحيّة، تفرّس في الوجوه وقال:

ـ هذا هو الأرقش يا رئيفة.. أنت له أم لي؟

قالت رئيفة دون تردّد:

ـ له!

وقال الأرقش:

ـ أنتِ لنفسك أوّلاً وأخيرًا!

ـ ترفضني؟

ـ أنا لم أقل هذا.

ـ تقبلني؟

ـ لم أقل هذا أيضًا.

ـ وإذا كنت أحبّك؟

ـ حبّ الروح ليس له نهاية، كما يزعم بعضهم، غير أنّ المبتدأ يحتاج إلى خبر!

قال الحكيم بشير:

ـ لا أذكر أين قرأت هذه العبارة: «الحبّ لا يتغذّى إن لم يكن شهوانيًّا».

ـ هذا صحيح إذا كان هناك حبّ، لا نصف حبّ أو ربع حبّ.. أنت، يا حكيم، كنت تعمّم في حكايتك عن التي عضّت يدك.. أم أنا على خطأ؟

ـ أنت على خطأ! حكيت حكاية وانتهى الموضوع.. افهموها على النحو الذي تشاؤون.

دندن هدهد بجناحيه على غصن شجرة مقابلة وصاء:

وذو القلب المصاب وإن تعزّى مشوقٌ حين يلقى العاشقين

صاء هدهد آخر، على ذات الشجرة:

الخليّون أومأوا بيديهم وبطرف اللواحظ العشّاق

قال دغمش:

ـ أنا هو ذو القلب المصاب، لكنّني أومئ ببندقيّتي لا بطرف لواحظي.. أقول هذا ليسمع الأرقش:

ردّ الأرقش بغير اكتراث:

ـ سمعت!

ـ إذن! ماذا جئت تفعل؟

ـ الأرقش لا يقدّم لأحد تقريرًا عمّا يريد أن يفعل.

قال الحكيم بشير:

ـ هذه هي الرجولة كما أفهمها، إلاّ أنّ الرجولة تقتضي احترام الرجولة المقابلة.. وأنت، يا الأرقش، من يحترمها على النحو المطلوب، وقد تحدّثت، حين كنّا على انفراد، عن الطبيعة وتوازنها، وعن تذوّق الجمال، وأخذت عليّ تسرّعي، وسأفترض أنّ هذا كلّه صحيح، فقد تسرّعت ربّما،

وهذا ليس من الحكمة، إلاّ أنّه ليس من الحكمة أيضًا أن نتشنّج، أن نتجمّد، أن نضغط على مشاعرنا إلى درجة تقترب من الإعدام، أن ننكر عواطفنا حتى الامّحاء، فالعاطفة لا تُمحى، وهي تعرف كيف تنتقم لنفسها، حين تستيقظ من هجوعها، حين تتمرّد على الضغط الذي مارسناه عليها، والقاعدة لها استثناء، إنّما حذار أن نسرف على أنفسنا في التعاطي مع الاستثناء، أو أن ننسى أنّ لنفسنا علينا حقًّا، يحسن بنا أن نراعيه، فلا نتصلّب إلى درجة الانتصاف، ولا نكون مرنين إلى درجة انعدام المبادئ، فإذا جئنا إلى الوسطيّة، كان علينا ألاّ نقبلها كليًّا، أو نرفضها كليًّا، وإذا قلت لي «كن باردًا أو حارًّا، ولا تكن فاترًا فتتقيك نفسي» أقول لك إنّني معك في هذا، ومعك في قولك إنّ الحبّ لا يكون نصف حبّ أو ربع حبّ، غير أنّ الحياة في تنوّع معطياتها، وتعدّد ممارساتها، أبعدُ ما تكون عن القولبة، عن التنميط، عن الخطّ المستقيم النافي للتعرّج، عن السلوك الجافّ، الخالي من التسليات، النابذ للمسرّات. . وقد كنت مصيبًا، يا الأرقش، في قولك لي «الحماقات، أحيانًا، لابُدّ منها» لأنّها من طبيعة عيشنا كبشر، وأنا أضيف: «الإعجاب بالجمال هو من طبيعة عيشنا أيضًا، ومن غير المقبول، أو الممكن، أن نتجاهله، ثم نبكي عليه بعد فوات أوانه».

في هذه اللحظة صاء هدهد:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعلّ على الجمال له عتابا

أردف هدهد آخر:

ويُسأل في الحوادث ذو صواب فهل ترك الجمال له صوابا؟

وهتف ثالث:

وكنت إذا سألت القلب يومًا تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

كانت رئيفة تصغي إلى الهداهد وتفكّر: «هل للأرقش قلب؟ وإذا كان فلماذا هو مصمت؟ ألا يرى جمالي؟ أمن الممكن أن يكون هذا الجمال فاقد الأنوثة، أم أنّ الأرقش فاقد الرجولة؟ أحبّ، وصُدم في حبّه، فتاب عن الحبّ؟ عَلِمَ، وهو مريض، أنّ فدوى خانته مع نافع الداري، فجاء لينتقم لنفسه منّي؟ مَن منّا، فدوى أم أنا، أكثر جمالاً وأوفر أنوثة وأشدّ إخلاصًا؟ إنّه لم يأت على ذكر فدوى، أو نافع الداري، تجاهلهما، نسيهما، أم محاهما من ذاكرته، مرّة وإلى الأبد؟ هل هناك امرأة أخرى، غيري وغير فدوى تيّمته؟ إنّه غامض، ومن صمته يرشح غموضه، وربّما كان غموضه متعمّدًا، وربّما كان سلاحًا من بعض أسلحته، وربّما كان عفويًا، لا يفكّر بالمرأة مادام يفكّر بالذئب الأسود، إلاّ أنّ الذئب الأسود لم يظهر حتى الآن، مع أنّه موجود، وقد وصل به الأمر أنّه راح يتجوّل في شوارع المدن، وفي شوارع العواصم ذاتها، دون أن يتمكّن أيُّما صيّاد من رؤيته، ناهيك بالإطلاق عليه، وقد يستمرّ هذا زمنًا، عمرًا بكامله، والأرقش يقول: ما عمر الإنسان بالنسبة لعمر الأرض؟ ذرّة لا ترى بالعين المجرّدة، وليس من المهمّ أن يُقتل هذا الذئب في حياتنا، بأيدينا، هذا قصر نظر في أبجديّة الكفاح. بعدنا سيأتي أولادنا، أحفادنا، ذرارينا، ومطاردة الذئب الأسود ستستمرّ، جيلاً بعد جيل، بعد جيل،

وما همّ؟ لتستمرّ، وهذا، في ذاته، طول نفس حميد، إنّما، كما يقول الحكيم بشير، لا بأس علينا أن نتسلّى، مادام الطريق طويلاً، وقد فهم دغمش حكمة التسلّي، بأفضل ممّا فهمها الأرقش، وفهمها الحكيم نفسه فحاول، والمحاولة، مهما تكن خائبة، تفضل عن اللامحاولة، وهذا كلّه يثبت أنّ الأرقش بهيم، وكي يخرج من بهيميّته، عليّ أن أستثير الغيرة فيه!

سأل الحكيم بشير، رغبة في تبديد الصمت:

ـ بماذا تفكّرين يا رئيفة؟

ـ بالذي يبالغ في الاعتماد على ذكائه.

ـ تقصدينني؟

ردّت رئيفة بجدِّيَّة:

ـ أنت، يا حكيم، أذكى من أن تبالغ في الاعتماد على ذكائك.

قال دغمش:

ـ أنا خارج اللّعبة، لأنّني لا أتعاطى الذكاء أصلاً.. إذا أردتُ شيئًا طلبته رأسًا، بغير حذلقة أو تزلّف.. إنّني، أمامكم جميعًا، أعلن رغبتي في حبّ رئيفة..

قاطعه الحكيم ضاحكًا:

ـ شريطة أن تحبّك هي أيضًا!

ـ ولماذا لا تحبّني؟ بندقيّتي قادرة على إزالة العقبة من طريق هذا الحبّ.

ـ فشرت!

ـ أنت تمون، يا حكيم، على رقبتي، لكن لو قال هذه الكلمة غيرك لأدّبته.

قال الحكيم ساخرًا:

ـ اشرح لنا من فضلك الطريقة التي ستؤدّبه بها.

ـ هذه لا تحتاج إلى شرح.

قالت رئيفة:

ـ أنت رائع يا دغمش!

قال الحكيم:

ـ في قنص البشر.

غضب دغمش وقال:

ـ أنا تبت يا حكيم، وهذا ما قلته لك مئة مرّة حتى الآن، لكنّك لا تصدّقني.

ـ ولن أصدّقك أبدًا.

سألت رئيفة:

ـ لماذا؟

ـ لأنّ وجود دغمش في هذه الغابة ليس لقنص الذئب، بل الذئبة.

ـ وإذا كانت الذئبة راضية؟

ـ الرضى هنا مغشوش، وكي أثبت ذلك، وكي تكوني مؤمنة بأنّ دغمش رائع كما تقولين، فإنّ التجربة خير برهان. . المأذون جاهز، ونحن الشهود، ما رأيك؟

ردّت بحنق:

ـ رأيي أنّني سأعطي نفسي لدغمش بغير زواج.

ـ تقصدين زواج المتعة؟

ـ قلت دون زواج من أيّ نوع.

ـ اذهبي أنت ودغمش إلى قلب الغابة إذن.

ـ هذا أمر يخصّنا وحدنا.

فرك دغمش كفّيه سرورًا وقال:

ـ نعم! يخصّنا وحدنا.. تعالي يا رئيفة.

نهضت رئيفة، أمسكت بيد دغمش، ألقت نظرة على الأرقش، وجدته مطرقًا يفكّر، وربّما لا يفكّر، أنّه مسكون بلامبالاة قاتلة، كان شبم القلب ـ «واحرّ قلباه ممّن قلبه شبمُ!» الانتقام لن يكون انتقامًا.. حتى لو أسلمت نفسها لدغمش، فإنّ الحرارة لن تدبّ في الحجر، حجر هذا الأرقش. فدوى، قبلها، خانته، فلم يأبه لخيانتها، وجدها عاديّة، طبيعيّة تمامًا، مادام هناك حبّ، مادام هناك توافق، مادام هناك زواج متعة، يقبل به الطرفان، في ظرف التواجد هنا، في هذه الغابة. أمّا هي، رئيفة، فإنّ وضعها يختلف، لأنّها لا تحبّ دغمش، ولأنّ قولتها: «أنت رائع يا دغمش» لم تحرّك في الأرقش ساكنًا، سمعها جيّدًا، قال: «سمعتُ» وكأنّه لم يسمع، بقي الحجر حجرًا، ومغامرتها مع دغمش، في زواج متعة عابر، لن يكون حظّها من النجاح بأفضل من مغامرة فدوى، ومع ذلك قرّرت أن تقوم بها، وقامت بها بقرف كلّيّ. وحين عادت إلى النبع، كان الحكيم بشير والأرقش قد غادراه، لا تدري إلى أيّ جهة من الغابة.

إحباط كلّي، انتقام فاشل، تحمل ما لا يُحتمل، تسليم جسد إلى وحش، شعور بالتقزّز، تمزّق داخليّ، مدية حادّة نصلها في القلب، وما بقي هو ابتلاع الأسى، مضغه علقمًا، الكتمان «جحدته وكتمت السهم في كبدي» إلاّ أنّ الجرح، في ثورة الغضب، كان جرحًا لا يطاق، له ألم وألم، كيف يحتمل الألم؟ أخطأ من قال: «جرح الأحبّة عندي غيرُ ذي ألم» لمن تشكو؟ وهل نفعت يومًا شكاة؟ لعلّه، الأرقش، في نداوته والرجولةَ، مشغول بما هو أهمّ من الحبّ، «لعلّ له عذرًا وأنت تلوم» حماقة! الحكيم بشير نفسه ليس ضدّ الحماقة، من حين إلى حين، قال: «علينا ألاّ نخاف، من بعض الحماقات.. نحن بشر!» نسي، أو تناسى، على الأقلّ، حماقة رئيفة معه «هذا الحكيم العزيز، الناذر نفسه لمطاردة الذئب الأسود، المرجع لكلّ صيّاد أو صيّادة في هذه الغابات، بشر، رجل، وقد رغب أن يعبّر عن إعجابه بجمالي كرجل، أن يحتويني بين ذراعيه، وربّما أن يقبّلني في خدّي، وماذا في ذلك؟ أن نعجب بالشيء يعني أن نستلطفه، أن نحبّه، وفي المآل أن نتزوّجه، والحكيم استلطفني، ولعلّه أحبّني، وفي الذهاب إلى آخر الشوط، قد يكون راغبًا في الزواج منّي، فلماذا دفعته في صدره، وأسقطته في بركة الماء؟ وماذا كان ردّ فعله؟ الصمت! داري جرح كرامته بالصمت، هذا منتهى الشهامة، هذه هي الكياسة، هذه قمّة الحكمة، وما فعلته، في اغتراري بجمالي، كان ذروة الوقاحة.. نحن نحبّ، ويحبّ الآخر الأخرى، وتحبّ الأخرى غيره، وأنا أحبّ الأرقش، إلاّ أنّ الأرقش يحبّ غيري ربّما، والتي يحّبها قد تحبّ

غيره، وهذا الانتقام التافه كان يجب ألاّ يكون، غير أنّه كان، والماء المسفوه على الرمل، يمتصّه الرمل، ولا فائدة من محاولة لمّه، فالمحاولة هنا عبثيّة، والحكيم، لو فاتحته بما يشقيني، لابتسم، مدركًا عبثيّة شقائي، الذي لا رجوة منه، بعد أن وقع ما وقع.. لكن الذي وقع كان عمدًا، كان انتقامًا، وعليّ أن أتابع، أن أنتقم، وانتقامي رهيب، لأنّه ببساطة انتقام امرأة!»

نادت دغمش إليها، أجلسته إلى جانبها، أبدت له من المودّة ما لا يتوقّع، سألته:

ـ هل كنت مسرورًا معي؟

أجابها:

ـ غاية السرور..

لعق شفتيه بلسانه وأضاف:

ـ السرور كلمة لا تعبّر عمّا شعرت به من لذّة.. أنا، باختصار، ازددت الآن جنونًا.. جنوني السابق لا يقاس بجنوني اللاحق.. لا أصدّق أنّكِ كنت لي، أحسب أنّ ذلك كان في المنام.. ما رأيك أن نعيد الكرّة!

ابتسمت رئيفة بإغراء امرأة تتملّق رجلاً.

ـ أنت تخيفني عندما تهتاج، أو بكلمة أدقّ عندما تغتلم، لو أعدنا الكرّة الآن لأكلتني بأسنانك، لذلك أنا خائفة، راغبة في أن ألتذّ معك، وخائفة منك.

قال دغمش:

ـ لا تخافي سأعاملك بلطف.. إذا توجّعتِ، وكلّ امرأة

تتوجّع حين تنام معي، لا تصرخي صرخاتك الملعونة.. الأنين وحده يكفي.. هذا وحده يجعلني ثورًا يضاجع نعجة.

ـ وإذا كنت ألتذّ مع الرّجل الثور أكثر؟

ـ سأكون ثورًا.

ـ وأنا لن أكون نعجة.. سأجعل أوصالك تنحل، هل عرفت امرأة جعلت أوصالك تنحل؟ لا؟ أنا هي هذه المرأة! أنت غبيّ يا دغموشي، لا تعرف المرأة الحقيقيّة مثلي!

ـ عرفت، وأنا قنّاص، نساء كثيرات..

ـ لكنّك لم تعرف امرأة بجمالي، وامرأة شبقة مثلي.. أنا خائفة عليك منّي!

تفرّس فيها دغمش، وقال:

ـ كفى! لم أعد أحتمل.. كلمة أخرى وأصبح أنا الذئب الأسود.

ـ وعندئذ يقتلك الأرقش.

صرخ دغمش:

ـ يقتلني!؟ أنتِ، إذن، لا تعرفين دغمش القنّاص..

قالت رئيفة وهي ترفع ذراعيها ليرى إبطيها:

ـ أعرفك يا دغمش، أعرفك جيّدًا، ولا أستطيع أن أعرف اللّذّة مع غيرك، ما رأيك أن تتزوّجني زواجًا شرعيًّا دائمًا.

ـ هذا هو ما أتحرّق شوقًا إليه.

ـ أنتَ، يا دغمش، تبدو كأهبل أحيانًا.. تتحرّق شوقًا للزواج بي، ناسيًا أنّ الأرقش يترصّدني.. ألا تخاف الأرقش.

غضب دغمش، شعر بطعنة في خاصرته، قال والشرر يتطاير من عينيه:

ـ اسمعي يا رئيفة! أنا لا أخاف إلاّ الله.. قتلت، عندما كنت قنّاصًا، رجالاً كثيرين.. رصاصتي لا تخيب، لأنّني امتهنت إطلاقها، حتى صرت بارعًا في تصويبها إلى حيث أريد، وفي النقطة التي أريد.. سلي الحكيم بشير عنّي، يخبرك من أكون.. ثم لماذا أخاف الأرقش؟ ولماذا تخافينه أنت؟ ومن هو الأرقش هذا؟ تزوّجيني مادمت راغبة في الزواج، وبعد ذلك لا تبالي!

وقفت رئيفة، صوّبت نظرات لبوة إلى عينيه الحمراوين، أمسكته من كتفيه وهزّته بقوّة، فحّت كأفعى وقالت:

ـ أتزوّجك، يا دغمش، على طلب! هل تفهم ما أقول؟

ردّ دغمش بنبرة فيها بحّة الانفعال:

ـ اطلبي!

ـ اقتل الأرقش.

ـ ماذا؟

ـ اقتل الأرقش.

أجاب من فوره:

ـ سأفعل!

وسادت السكينة الغابة كلّها.

- ١٣ -

كان الحكيم بشير، العارف بكلّ ما يجري في الغابات، على يقين أنّ الأرقش قد شفي تمامًا من الحمّى التي أصابته، وأنّ أيّام النقاهة التي مرّ بها لم تكن طويلة، ولا تحتاج إلى المزيد، وقد فرح الحكيم بشفاء الأرقش، كما فرح، قبله، الذين كانوا يحيطون به وهو مريض: من الطبيب ياسر، إلى ميلاد، إلى صقرش.. وكانت قمْطرة أشدّهم فرحًا، لأنّها الأكثر سهرًا عليه وعلى تمريضه، وإعطائه الدواء في مواعيده المحدّدة، ولأنّها، فوق ذلك، تتّقد مثله حماسة، وتشاركه الاعتقاد أنّ الإطلاق على القلاع، مفرّخة الذئاب السود، به يكون الانتصار أو لا يكون!

الأمر الوحيد الذي أقلق الحكيم بشير، كان صمت الأرقش، سهومه، غموضه، عدم اكتراثه برئيفة، ردّه على تحيّتها بفتور واقتضاب، الرغبة عن طرح أيّ سؤال، حتى فيما يتعلّق بفدوى، إعراضه عن دغمش، الذي يعرف الجميع أنّه يزمع قتله، إذا حال بينه وبين رئيفة.

وحتى عندما غادرا النبع، فإنّه لاذ بالصمت، تجلبب بالغموض، معطيًا نفسه، كليًّا، إلى ما يحيط به من روائع الغابة، التي يتوغّلان فيها، الحكيم بشير وهو، إلى لامكان،

دون هدف، في استمتاع مبهم، وفي حفاظ على السكينة، كأنّما يخشى أن يخدش خدّها، أن يجرّح روحها، أن يبدّد الهدوء السائد فيها، إذا هو نطق بأيّ كلمة، أو ندّت عنه أيّ نأمة.. فقد كانت الغابة، والأماكن العذراء فيها خصوصًا، مهوى قلب الأرقش، وكان الصمت، بالنسبة إليه، صلاة مموسقة؛ وابتهالات الأشجار نداءات إلى الخشوع، واكتشافات المجاهل، من أمامه ومن حواليه، تعطيه مسرّة، كالذي يعطيه نهر الأردن، لمن يتعمّد في مائه الطهور، بينما صوت من الغيب يتردّد في كلّ الأنحاء، «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت»؛ والأرقش يدرك جيّدًا، أنّ هذا الابن منذور للفداء، للخلاص من الخطيئة الأولى، ولإشهار السوط على الصيارفة، الذين حوّلوا المعبد من مكان للعبادة إلى مكان للتجارة، بينما الابن يحمل صليبه صاعدًا إلى الجلجلة كي يأتي البعث، من ثمّ، تتويجًا للشهادة في الموت، محقّقًا نبوءة الذي قال: «لولا ثورة سبارتاكوس ما كان الصلب، وما كانت القيامة بعده!».

«وداعًا عذارى الحبّ في خِيَمِ الهوى» وداعًا للتي كانت، وما كانت، وظلّت في المبتغى حلمًا يراود. وداعًا للعشق والعاشقين جميعًا. وداعًا للبدر الذي بان وما بان، وظلّ خفيًّا. وداعًا للذي لم يعش، من بعد الأحبّة، سلوة، «لكنّه للنائبات حمولُ». وداعًا للأنثى الذي يخون البؤس هيبتها «والبؤس أعمى، فتعيى ثم تنقلب، وصبرًا جميلاً للكأس الفارغة» «ففي كلّ عام ينضج العنب!».

كان الأرقش يتكلّم في ذاته، يودّع عذارى الهوى، يتأمّل

الحياة، راغبًا عن الكلام المنطوق، حفيًا بالكلام الصامت، مندمجًا، وهو يودّع، على غير يأس، أشياء هاجعة في النفس، تصْعدُ من الأعماق تتاليًا، تداعيًا، لكنّها في المحصّلة وداعات صدرٍ يكاد ينفجر من ضيق.. والحكيم بشير، في سكينة الغابة، أدرى بما توحي به سكينة الغابة، وفي استعلان المضمر، يهدس يما يعذّب الأرقش، الذي تشغله أبدًا مسألة القلاع وأسيادها، مستنتجًا أنّ هذا الانشغال فيه مَسْرَبٌ إلى التهلكة، يتخفّى وراء هواجس خطيرة، إذا ما كانت المغامرة غير محسوبة النتائج.

إنّ العدالة الاجتماعيّة لن تكون مادام الفساد كائنًا، والذئب الأسود، حتى الآن، وهم، لكنّه حقيقة أيضًا، وهذا ما يعرفه الصيّادون جميعًا، نقلاً عن الحكيم بشير أو غيره، والأرقش مصيب في توكيده أنّ هذا الذئب يولد ويتناسل في القلاع، ودون الإطلاق على القلاع تصبح مسألة اصطياده لعبة عبثيّة، إلاّ أنّ القضيّة، في توق الارقش إلى القضاء على القلاع، لعبة عبثيّة أخطر، إذا ما كان التسرّع دافعًا إليها، والحكيم بشير، في خبرته والتجارب، على يقين قديم جديد بأنّ الأرقش متسرّع فيما يطمح إليه، وأنّ الأوان قد آن لمفاتحته في خطأ تفكيره، وفي ردعه عن هذا الخطر إذا اقتضت الضرورة.

الأرقش شجاع، هذا لا يُشكّ به، والأرقش مصيب في ما يذهب إليه حول القلاع، وهذا أيضًا خارج دائرة الشكّ، وهو، كما نمي عنه، للنائبات حمولُ، وهذا جيّد. إلاّ أن أعصابه مشدودة أكثر ممّا يحتمل، وهنا السوء، هنا المقتل،

هنا إلقاء النفس إلى التهلكة، وكل هذا مرفوض، ولابُدّ من أن يُقال له بصراحة وحزم. . لابُدّ من تذكيره بأنّ الطريق إلى نجد طويل، ولا بأس من إزالة الغشاوة عن عينيه، حول طول الطريق وتطاوله، فالإحساس الشاعريّ جميل، إلاّ أنّ الإحساس الواقعي لا يقلّ جمالاً، والسؤال في الاشتياق لا ينبغي، كما قال المتنبّي، أن يكون تعليلاً بأيّ شكل!

الحكيم بشير لم يكن راضيًا عن موقف الأرقش من رئيفة، عن جفائه والاقتضاب في الكلام معها، ولم يكن راضيًا عن لامبالاته بما وقع بين فدوى ونافع الداري، فالمرأة هي المرأة، وقد تكون، في حياة الأرقش، امرأة غير رئيفة وفدوى، فإذا لم تكن، بدافع من انشغاله بمسألة القلاع وحدها، يكون قد جاوز الحدّ، نسي أنّ عليه، كي يحتمل طول الطريق إلى الهدف، أن يتسلّى، أن يتزوّج، بحبّ أو بدونه، أن ينجب كسائر الناس، أن يجد سبيلاً إلى سعادة ما، تجعل أيّامه أكثر هناءة، وبذلك وحده يتفادى الانقصاف، بسبب من أنّه لا يعرف التعامل مع المبادئ كما ينبغي. قال الحكيم بشير وقد توقّفا في بقعة خضراء من الغابة:

ـ صمتك الطويل، يا الأرقش، أثار فضولي، بماذا كنت تفكّر؟ بالملائكة أم بالشياطين؟

أجاب الأرقش:

ـ كنت أودّع ما صار ورائي، لأتفرّغ كلّيًّا لما هو أمامي.

فاجأه الحكيم بكلمة غير متوقّعة:

ـ الانتحار!

ـ وما العيب في الانتحار إذا كان في سبيل قضيّة عادلة وشريفة؟ لكن مهلاً يا حكيم! إنّني من الذين يرغبون في دقّة الكلمات.. آمل أن نضع بدل كلمة الانتحار المفاداة مثلاً.. لست مع الانتحار في كلّ وجوهه، إنّه، ومهما كان الدافع إليه، جنون يأس، ولست مجنونًا أو يائسًا.. ما هو ورائي الماضي، وما هو أمامي المستقبل، قراري الذي لا رجعة عنه أن أتفرّغ لهذا المستقبل، أن أتخفّف من القيود التي تعوق تقدّمي نحو الغاية التي نذرتُ لها نفسي، والمرأة قيد، والأطفال «مجبنة مبخلة» ورفض القيد لا يصحّ مع الجبن والبخل، لأنّهما، بالنسبة للرّجل، أشدّ القيود إعاقة، لذلك ودّعت أشياء كثيرة، ستعرفها يومًا ما، وإذا كنت، أنا، متسرّعًا في الاندفاع نحو هدفي، فإنّك، أنت، متعجّل لمعرفة ما يدور في رأسي.. وما يدور في رأسي، يا حكيم، ليس سرًّا أكتمه أو عيبًا أخفيه، إنّه القلاع، حيث منبت الذئب الأسود، وبغير القضاء على المنبت، يصبح عبثًا كلّ جهد للقضاء على النبت.. وعلى هذا فإنّني، في صمتي، ما كنت لأفكّر بالملائكة أو الشياطين، فتفكير كهذا عبثيّ، غزل على مغزل مكسور، مضْيعة للوقت، ولو سلكنا سبيلاً كهذا لوقعنا في حفرة أعدائنا، ونطق لساننا بلسانهم، وهذا هو الضلال. أمّا المرأة، وسواء التي أحبّتني أو خانتني، فإنّها موضع تقديري، موضع احترامي، لكنّني، بدل التفكير باحتواء خصر المرأة التي على البئر، والسقوط من بعد في حوض مائه، فإنّني أفكّر بالمرأة التي خان البؤس هيبتها، فأعيت، وسقطت في وهدة بيع الجسد، في سبيل اللّقمة.. وإذا قلت لي إنّ الدعارة أقدم مهنة في التاريخ،

أجبتك أنّ الظلم، حتى في قِدَمِ التاريخ، كان موجودًا، منذ انتهى عهد المشاعية الأولى، وامتدّ هذا الظلم مع عهد الرقّ، حيث سادت العبوديّة، إلى عهد الإقطاع وما تلاه من أنظمة فاسدة، كان فيها جسد المرأة تجارة من التجارة، ولايزال حتى يومنا هذا قائمًا!

ابتسم الحكيم، وقال:

ـ الشكر لله، يا أرقش، على أنّ عقدة لسانك قد انحلّت أخيرًا.. هذا كلّ ما كنت أرجوه، وقد تحقّق بعد صبر طويل.. أمّا محاضرتك الموّارة بالحماسة، فقد أفادتني في تذكّر ما كنت نسيته مع التقدّم في العمر.. منطقك سديد، وحججك دامغة، ولو فزت بالحقوق، وعملت في المحاماة، لنلت رزقًا أوفر، ودفعت عن المظلومين ظلمًا أفدح، إلاّ أنّ الرياح.. وأنت أدرى.. ما رأيك بسيكارة، ننفث مع دخانها بعض ما في صدورنا؟

وافق الأرقش، أشعلا سيكارتين، نفثا دخانهما باسترخاء، تأمّل الحكيم الدخان الأزرق المتصاعد دوائر حلزونيّة، قبل أن يتبدّد في الفضاء، أشعل سيكارة من سيكارة وهو يمشي بخطا بطيئة شبه موزونة، مع أنّها عفويّة تمامًا، متسائلاً في نفسه: «هل الشجاعة نقيض الحكمة، أم أنّ الحكمة على اتّساق مع الشجاعة؟ أبو القاسم الشابّي قال: «مَن يتهيّب صعود الجبال، يعش أبد الدهر بين الحفر» والمتنبّي قال: «الرأي قبل شجاعة الشجعان، هو في المقام الأوّل وهي في المقام الثاني» فأين الصواب وأين الخطأ في القولين؟ الأرقش، في شبابه والإقدام، ينطبق عليه ما قاله

الشابّي، وأنا، في هرمي وفتور العزم، ينطبق عليّ قول المتنبّي، وهنا تعارض إذن، هنا الشباب مقابل الشيخوخة، فلماذا عليّ، في شيخوختي، أن ألوي شكيمة الأرقش، في شبابه؟ إنّه، كما قال، ضدّ الانتحار، لكنّه يتصرّف، إذا ما تصرّف، بدفع من الرغبة في الانتحار، فإذا جاملته، إذا لم أردعه، أو حتّى إذا لم ألفته إلى العواقب، أكون أنا من يتحمّل مسؤوليّة هذه العواقب، فماذا عليّ أن أفعل؟ أذكّره بأنّ الانتفاضة على القلاع، إذا لم تتطابق مع بلوغ الأزمة ذروتها، مصيرها الفشل؟ فأين هي الأزمة الآن، وأين شرط بلوغها الذروة؟ إنّهما غير متوافرين، وعدم توافرهما يستوجب التريّث، لأنّ الصيّادين، في الغابات الاثنتين والعشرين، استنفرهم الذئب الأسود، لا القلاع التي تفرّخ الذئب الأسود، وهم يدركون، أو بعضهم على الأقلّ، أنّ أسياد هذه القلاع بنوا قلاعهم من مداميك رغيف الفقراء، وانتزاع هذه المداميك، لإسقاط قلاعها، يتطلّب القوّة الكفيلة بذلك، وهي غير متوافرة من جهة، والصيّادون غير مهيئين لها من جهة ثانية، وفي هذه الحال نعود إلى النقطة التي انطلقنا منها: التريّث والانتظار!

قال الأرقش، بعد أن أصغى إلى شرح الحكيم بشير بانتباه:

ـ هذا معناه واحد: تهيّب المصاعب، تهيّب صعود الجبال، والعيش بين الحفر!

ردّ الحكيم بالأسلوب الذي استخدمه الأرقش:

ـ الرأي قبل شجاعة الشجعان.

ـ هذا كلام شاعر.

ـ وأنت اتّكأت على كلام شاعر آخر.

قال الأرقش:

«أمس كان باكرًا، وغدًا يفوت الأوان، الآن!»

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ أعرف كلام لينين هذا، وأعرف الزمان والمكان اللذين كانا، عندما قال عبارته هذه، ودون الدخول في التفاصيل، فإنّ لجوءك إلى إيديولوجيّة التاريخ، وتعدادك بعض الأنظمة التي عرفتها البشريّة، لا يفيدان في شيء.. تريد أن تغامر بمفردك؟ غامر! إنّما تذكّر أنّ حماسة إنشاد: «ذهبتْ أعلامُنا خافقة» غير مجدية إذا كانت هذه الأعلام غير خافقة.. وأنت تعرف أنّها غير خافقة في الوقت الحاضر.

كان الأرقش على شيء من دهاء، وعلى معرفة جيّدة بالسياسة، وهو أبعد نظرًا من أن يغامر، بمفرده أو مع سواه، ضدّ القلاع وأسيادها الذين اغتنوا بطرق غير شرعيّة، إنّما يريد أن يبصّر الناس بالحقيقة، أن يجعلهم صانعي أحلام حتى لا يسقطوا في العدم، وكلّ حلم لابُدّ أن ينبني على هدف، والهدف الأساس، في رأيه، ذو مصدر، وإلاّ كان عديم الفائدة، وفي قضيّة الذئب الأسود، القلاع هي المصدر، لذلك يرغب بتعريف الصيّادين في الغابات والمدن بهذا الأمر، الذي دونه تفشل الإبرة في أن تخيط من نسيج العنكبوت، أيّما نوع من القماش.. لذلك قال للحكيم بشير:

ـ اطئمن! لن أغامر، في الوقت الحاضر، بمفردي أو مع

الآخرين ضدّ أيّ قلعة، في هذه الغابة أو غيرها.. ومثلك تمامًا أتعامل مع السياسة من منطلق فهم الاقتصاد، فكيف ترى إلى اقتصادنا؟

قال الحكيم:

ـ أراه سيّئًا، لكنّه لم يبلغ بعد درجة الاهتراء.

ـ أي لم تبلغ الأزمة الاجتماعيّة النقطة التي معها يمكن أن يتحرّك الناس نحو الهدف الذي أحدّده.

ـ هذا ما يجب أن تعرفه!

ـ ومَن قال إنّني أجهله؟ الفارق بيننا، يا حكيم، إنّك تتوقّف عند الشرّ، دون أن تحدّد مصدره، وفي هذا نقص شديد في التربية السياسيّة.. تقول للناس إنّ الذئب الأسود هو الخطر، وتسكت عن مصدر هذا الخطر.. لماذا؟

ـ لأنّنا لا نستطيع، حاليًّا، أن نكشف مصدر الخطر، وحتى لو استطعنا فإنّ علينا ألاّ نكشفه، لئلاّ نقع في المصيدة.

ـ مصيدة مَن؟

ـ أسياد القلاع طبعًا!

ـ وتحسب أنّهم لا يعرفون ماذا نعمل، ومَن نطارد؟ إنّ لديهم من الذكاء ما يكفي لمعرفة كلّ شيء عنّا.. إنّهم، يا حكيم، ورثة أجدادهم وآبائهم في الذكاء، ولديهم خبرة سلالة كاملة في الحنكة والدهاء، وكذلك في نصب المصائد.. فإذا سألت لماذا لا ينصبون هذه المصائد؟ أجبتك: لأنّ مطاردة الذئب الأسود لا تشكّل خطرًا

عليهم. . إنّهم، من كوّات قلاعهم، يرون بالمناظير تحرّكاتنا ويضحكون. . هل سمعت بالرجل الحليم الذي كان يُشتم فلا يردّ على شاتميه، حتى قال له أحدهم «إيّاك أشتم!» فردّ عليه: «وعنك أغضي»؟ إنّ هذا الرجل الحليم، لم تكن الشتائم تضرّه في شيء، أمّا لو امتدّت يد إلى أملاكه لقطع هذه اليد، وانقلب من رجل حليم إلى رجل لا يعرف الحلم. . هذه الحكاية تنطبق علينا تمامًا، فمطاردة الذئب الأسود لا تضرّهم في شيء، مادام الذئب الأسود عصيًّا على الاصطياد، ومادامت قلاعهم قادرة على تفريخ الكثير منه، وعلى افتراض أنّنا اصطدناه، بعد طول عناء، فهذا ما يسمّونه قطع ذنب الأفعى وترك رأسها سليمًا. .

قال الحكيم بشير:

ـ أنت، يا أرقش، تؤكّد ما قلته لك. . أصحاب القلاع حلماء أيضًا، وحكماء أيضًا وأيضًا، ويعرفون، إلى حدّ الإتقان، الفلسفة المادّيّة، ونحن نتكلّم على الجدليّة علميًّا، ولكنّهم، هم، يطبّقونها فعليًّا. . والتغامر حميد في ذاته، على أن يكون في وقته، أمّا خارج هذا الوقت، وعندما تكون الظروف غير مؤاتية والأزمة لم تبلغ ذروتها، فإنّ المغامرة هي التهلكة بعينها، لذلك نهيتك عن المغامرة، بمفردك أو مع سواك. أمّا إنشاد «ذهبت أعلامنا خافقة» فهو لغو، حماسة نار في هشيم، فأعلامنا، يا أرقش، لا تخفق مع أيّ ريح، وإذا كان القصد من إنشادها استنهاض الهمم، فإنّ هذا الاستنهاض يحتاج إلى رافعة اسمها الاقتصاد، واقتصادنا، إذا كنت لا تدري، لا يشكّل أيّة رافعة الآن. .

إنّه في وضع عسير، وقد سمعت سيّدة تتغنّى، في مقابلة أجريت معها تلفزيونيًا، بسياسة العرب الخارجيّة المزدهرة، لكن ماذا بشأن سياستنا الداخليّة، حين لا تكون هناك سياسة داخليّة سليمة؟ والسياسة، في الحالين، لا تُفهم إلاّ من خلال الاقتصاد، وأنت أعلم بهذا، فكيف، بالله عليك، نفهم ازدهار السياسة، خارجيّة كانت أم داخليّة، من خلال اقتصاد غير مزدهر؟ ولماذا نوتّر أعصابنا، كما تفعل أنت، إذ كان هذا التوتر ضارًّا راهنًا؟ أنت تستشهد بلينين، وهذا ميسور لمن أراد، إلاّ أنّ علينا ألاّ ننسى، أنّ لينين قال: «لا تشدّدٌ إلى درجة الانقصاف، ولا مرونة إلى درجة فقدان المبادئ.. اللعنة عليّ، لأنّني أكرّر نفسي! اعذرني يا أرقش، أرجوك اعذرني، فقد تكلّمت بنبرة النصوح، بينما، أنا نفسي أحتاج لمن ينصحني!

فتح الأرقش فمه ليقول شيئًا، إلاّ أنّه لم يقل أيّ شيء. وجد نفسه فجأة على قفاه، وسط دغل شائك، في اللحظة نفسها التي أزّت فيها رصاصات، ذات دويّ عكّر سكون الغابة، منداحًا في فضائها الواسع، والحكيم بشير يستلقي منبطحًا على الأرض، ووقع أقدام هاربة، في الاتجاه المقابل «ما هذا؟ ماذا جرى؟» تساءل الأرقش وهو يحاول النهوض، بينما الدم يسيل من الخدوش التي أحدثها شوك الدغل، في ساعديه ورقبته، والحكيم بشير يطلق الرصاص على الأدغال المحيطة، دون أن ينهض واقفًا، لسبب لايزال الأرقش يجهله.

بعد وقت قصير استعادت الغابة سكينتها، ساد هدوء

أخرس، تلاشى وقع الأقدام، ومعه الصدى الذي أحدثه إطلاق الرصاص، فكّر الأرقش أنّ بعض الصيّادين يطلقون على الذئب الأسود، وقد سرّه أنّهم عثروا عليه أخيرًا، لكن ماذا بشأن الحكيم بشير، الذي راح يطلق على الجهة التي تعالى منها وقع الأقدام؟ ولماذا أطلق الرصاص وهو منبطح على الأرض؟ ومن الذي دفعه إلى الدغل، بحركة كلمح البصر؟ وأيّ أذى في أن يكون الإطلاق على الفرائس؟ وأيّة فريّة ارتكبها الصيّادون، إذا ما كانوا يطاردون حمار الوحش مثلاً؟ إنّ هذا من حقّهم، وكان عليهم ألاّ يخافوا فيهربوا، وكان على الحكيم ألاّ يطلق عليهم، وهو المعروف بتشدّده، حتى مع الذين يصطادون الفرائس طمعًا بلحمها، وحجّته في ذلك أنّهم يبدّدون ذخيرتهم من الرّصاص، وهي مخصّصة لاصطياد الذئب الأسود فقط.

عندما انتصب الحكيم واقفًا، كان الأرقش يحاول مسح الدم النازف من الخدوش، وبحركة سريعة مزّق الحكيم منديله، وقال للأرقش:

- لنعد إلى النبع، بعد هذه الإسعافات الأوّليّة.

قال الأرقش:

- خدوشي ليست عميقة، وقد ربطناها بمزق المنديل، وهذا في رأيي يكفي.

ردّ الحكيم آمرًا:

- لنعد إلى النبع، وبأقصى سرعة ممكنة.. هذه الخدوش تحتاج إلى غسل، وإلى ضمّادات متوافرة هناك.. أنت، يا أرقش، يجب ألاّ تعرّض جسدك للشمس، وإلاّ تورّمت

الخدوش، وعندئذ تقع في ورطة.. اسمع ما أقول، واعمل بما أقول، دون اعتراض أو مماحكة.. هيّا!

كان الأرقش قد اعتاد أن يكون الآمر وليس المأمور، أنّه، عند نفسه، فتى الغابات، إذا قال، كان على الآخرين أن يسمعوا، وإذا فعل تعلّم الغير من فعله، وفي التخاطر له الباع الطويل، وفي المجالس له الصدر دون أيّ من الحاضرين، وكان في النداوة صاحب اليد البيضاء، وفي الوغى مَن يتلقّى السيوف بصدره، «ويعيدها مِزَقًا على الصحصاح».. ويحبّ من عنترة قوله «هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك». وفي معاينة الموت يجعل الموت يتراجع، وهو يحدّق فيه بعيون أفعى، باردة النظرات، ثمّ لا توسّطٌ عنده ولا فتور، ومن هذا المنطلق تجرّأ على القلاع وأسيادها، وكان أوّل من قال إنّها مصدر الشرّ، وإنّ الشرّ باق ما بقيت هي، فما بال هذا الذي يسمّونه بشير الحكيم، يأمره فيأتمر، ويطلب منه فيذعن، ويقول له: «اسمع ما أقول، واعمل بما أقول، دون اعتراض أو مماحكةٍ!».

في الطريق إلى النبع توقّف منتفضًا، وقال للحكيم بشير:

ـ هل سمعت بالذي شقّ صدره، وجعل من قلبه مشعلاً ينير الطريق لمن معه؟

ردّ الحكيم بنبرة صارمة:

ـ أنت، يا أرقش، لن تشقّ صدرك، ولن تجعل من قلبك مشعلاً، لأنّنا لسنا في غابة مظلمة، ولأنّ هذه الأسطورة تبقى أسطورة نافلة في مثل وضعنا.

نزع الأرقش مزق المنديل الذي تعصب جراحه، وقال:

ـ لا حاجة لي بها، كما لا حاجة إلى الضمادات.. إنّني معتاد على رؤية الدم!

توقّف الحكيم وقال:

ـ للشجاعة وقت، وللرعونة وقت آخر.. ما فعلته رعونة لا شجاعة، دع عنك هذه الولدنات.. هيّا إلى النبع وبسرعة.

استاء الأرقش، أخذته رعدة كمن أصيب بالبرداء، وقال بغضب:

ـ لست أنا من يتولدن يا حكيم، هل تسمع؟ ولو كان غيرك مَن قال هذه الكلمة لكان لي معه كلام آخر.

قال الحكيم مجافيًا:

ـ عن أيّ كلام تتحدّث؟ الولدنة، يا أرقش، لا يُردّ عليها بولدنة أكثر حماقة.. تقول إنّك معتاد على رؤية الدم؟ هذا لغو ما كنت أتوقّعه، لأنّه لا يليق بك.. دم الخدوش ليس بالدم الذي يخيف، إنّه دم من النوع الذي يعرفه أيّ زبون، عند أيّ حلاّق، يُداوى بالشبّة فيتوقّف نزيفه. أنت، ببساطة، تريد أن تقول لي: «أنا لا أخاف!» والشجاعة لا تكون بعدم الخوف، إنّما بالصمود له.. هل تفهم ما أقول؟

ردّ الأرقش بحنق:

ـ لا! لا أفهم، ولا أريد أن أفهم، لأنّنا نتكلّم لغتين مختلفتين.

سأل الحكيم بشير:

ـ وكيف السبيل إلى تكلّم لغة واحدة متّفقة؟

ـ أن تقلع عن إعطائي دروسًا في الحكمة! أن تعتذر عمّا قلته حول ولْدنتي.. إنّني الأرقش، وأنت لا تعرف من هو الأرقش، وكلامك عن الحلاّق وزبونه غير لائق ومرفوض تمامًا.. وحين أقول إنّني معتاد على رؤية الدم، فإنّ قولي لا ينبغي أن يُستخفّ به، فقد جُرحت وأنا أطالب بالعدالة الاجتماعيّة، جروحًا غائرة وغادرة، من قبل أزلام السادة الذين تؤذيهم مجرّد فكرة العدالة الاجتماعيّة، فماذا كانت ردّة فعلي؟ الاستمرار بما أطالب به، وأروّج له، في المدن والأرياف على السواء، حتى صار لفكرة العدالة الاجتماعيّة أنصار مكافحون، عنيدون، لا يخشون هؤلاء الأزلام ولا يبالون بغدرهم، ولا يخافون سكاكينهم التي تقطر منها دماء هؤلاء المكافحين، وأنا واحد منهم!

قال الحكيم بشير:

ـ وأنا؟ أين كنت أنا؟ في مدن أخرى، وأرياف أخرى، وفي مواجهة أزلام السادة الذين تتحدّث عنهم، ومع أنّي كُوفحت وسُجنت وسال دمي غزيرًا، فإنّني لم أتبجّح، لم أقل: «إنّني معتاد على رؤية الدم!» مثلك!

أضاف الحكيم:

ـ أنت شاب يا أرقش، وقد خبرت طويلاً حماسة الشباب وباركتها، غير أنّ مباركتي اقترنت بنقد الحماسة التي ليس لها حامل من واقع، أو ليس لها ركيزة على أرض الواقع، دون أن أقول، مرّة واحدة: «في العجلة الندامة» مع أنّها صحيحة، ومع أنّها نتاج تجربة شعبيّة عمرها آلاف السنين، بل قلت، وأكرّر، إنّ نار الهشيم لا تُعطي جذوة

متّقدة، تحتفظ بنارها حتى وهي مترمّدة، وعلى نار كفاحنا، في سبيل العدالة الأثيرة على قلوبنا جميعًا، أن تكون جذوة لا لَهَبَ هشيم، يشتعل بسرعة، وبمثلها ينطفئ.. وكي أكون منصفًا، أعترف بأنّك الأسبق في اكتشاف خطر الذئب الأسود، والأسبق في الدعوة إلى مطاردته وقتله، وليس سيّئًا أن تنبّه إلى أنّ الذئاب السود مصدرها القلاع، إنّما السيّء ألاّ ترى منعة هذه القلاع، أو تستخفّ بها، أو تدرك أنّ مسألة مهاجمتها، في وقتنا الراهن ووضعنا الراهن، غير ممكنة، وأنّ ترداد مقولة لينين: «أمس كان باكرًا، وغدًا يفوت الأوان، الآن» ينمّ عن فكر غير ناضج، وخبرة تنقصها التجربة، وعمق لا جذور له ضاربة في الأرض، وأنّ نشر هذا الفكر، وجعله هدفًا محدّدًا، مباشرًا، ملهْوجًا، لا مردود له سوى خرابنا!

قال الأرقش:

- من كلّ كلامك يا حكيم، يستنتج المرء الدعوة إلى تثبيط الهمم، وفي هذا خطر على معنويات الصيّادين، الذين ملّوا فكرة اصطياد الذئب الأسود، استنقعوا في مياه آسنة وهم ينتظرون ظهوره.. إنّهم يتندّرون بما تقوله عن أنّ هذا الذئب وهم وحقيقة في آن.. لا يا حكيم، الماء والنار لا يأتلفان في راحة واحدة، مهما تكن رحابة اليد التي لها هذه الراحة.. الشمعة المشتعلة لا توضع تحت مكيال، وأنت لا تفعل سوى وضعها تحت ألف مكيال، وتريد أن تقنع الناس بأنّ ما تفعله هو الصواب!

ردّ الحكيم بشير:

ـ لا بأس بالتندّر حول ما أقول، لكنّني مصرّ على ما أقول، الذئب الأسود وهم وحقيقة، ومحاولات الصيّادين لقتله ليست مجّانية، تعرف لماذا؟ كي يعوا أنّ هناك عدوًّا لهم، يأكل حقّهم، وأنّ عليهم، لاسترداد هذا الحقّ، أن يكافحوا، وما يفعلونه في الغابات تمرين على هذا الكفاح، فإذا قلت لهم إنّ الذئب الأسود وهمٌ، توقّفوا عن التمرين، وإذا قلت لهم إنّه حقيقة، تفهّموا تدريجيًّا ما هو المقصود بالحقيقة، وتوصّلوا إلى ما توصّلت إليه نفسه، دون تبشير أو مواعظ، وهذا ما يُقال له دلالة الحدث، الملتقطة من ممارسة الحدث، دون قَسْرٍ أو إكراهٍ، ودون. . . انبطح أرضًا يا أرقش، وبسرعة، وبالسرعة نفسها أزّت رصاصات، فوق جسدي الرجلين الملتصقين بالأرض، دون أن تصيبهما، فلمّا توقّف إطلاق النار، نهض الحكيم مبتسمًا، نافضًا القشّ عن ثيابه وهو يقول:

ـ هذه، يا أرقش، تحيّة عطرة من القلعة إلى النبع!

ـ ١٤ ـ

لم يكن على النبع أحد، اختفت مريم، تبخّر دغمش، لم يعد صقرش وقمْطرة بعد، إلاّ أنّ لعلعة الرصاص كانت تسمع من بعيد، فترتّب على الحكيم بشير أن يكون يقظًا، محتاطًا، يدخّن مفكّرًا، ومثله يفعل الأرقش، دون أن يقولا زيادة عمّا قالا في تجوالهما عبر الغابة، ودون أن يعترض أحدهما على ما يفعله الآخر، كأنّما توصّلا بعد اختلاف إلى اتفاق، وأصبحت لهما لغة مشتركة، نسيجها الخطر، وعطرها تحيّة القلعة، وطبابتها غسل الخدوش، وتضميد الذي لايزال نازفًا منها، ثمّ التدخين ومتابعة التفكير، كلّ منهما بما قال، وما سمع، وما ناقش، خلال جدلهما الطويل، وتوقّف هذا الجدل، دون أن ينتهي إلى شيء محدّد، لأنّ «السيف أصدق إنباء من الكتب» والرصاص «في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب» والراحة في فيء الصنوبرة الضخمة، الوارفة، جلوسًا على صخرة النبع، والإصغاء إلى كلّ نأمة، حَذَرَ الغدرِ، لم يدع شكًّا لدى أيّ منهما أنّ مسألة قتل الذئب الأسود، أشدّ تعقيدًا من كلّ تصوّر سابق!

قال الأرقش للحكيم بشير:

ـ أما قلت لك إنّ القضيّة، في الشأن الذي نطلبه، تتجاوز الذئب الأسود ولعنته؟

قال الحكيم:

ـ بلى! قلت هذا يا أرقش، وأجبت، من طرفي، على ما قلت، سواء بالنسبة للذئاب أو القلاع، وآمل أن تكون فهمتني على النحو المطلوب: التسرُّعُ لا يفيد!

ـ والتريّث إلى ما لانهاية مضرّ.

ـ لكنّه، في مثل وضعنا، هو الأجدى.

ـ وهذا الرصاص؟

ـ سنتبيّن أمره، دونما عجلة.. مع معرفتي، مثلك، أنّ الرياح على غير ما تشتهي السفن.

أضاف الحكيم بشير:

ـ هل تعرف مَن منّا كان المطلوب؟

ـ أنا!

ـ نعم أنت!

ـ هل هذا ردّ عليّ من القلاع؟

ـ ليس من القلاع وحدها!

ـ هناك آخرون يريدون قتلي؟ هذا محال، فأنا على علاقة طيّبة مع الجميع..

ـ لا! ليس مع الجميع. أنت متميّز بشجاعتك، قولاً وفعلاً، وتجاهر بذلك، إلى درجة إثارة الآخرين ضدّك.. التميّز مثل عدم التميّز، كلاهما له ثمن، وأنت الآن تدفع

الثمن.. لكن أن يصل دفع الثمن إلى القتل، فهذا ما يجب أن نحذره، وأن نردّ عليه، إذا شئنا أن نردّ عليه، بطريقتنا، لا بطريقة الذين أطلقوا علينا الرصاص مرّتين.. أمّا أنّك على علاقة طيّبة مع الجميع كما تقول، فإنّ هذا ما ينبغي أن نعيد النظر فيه، أنا وأنت، وكذلك الصيّادون الذين استنفروا أنفسهم بصدق، لمطاردة الذئب الأسود، والذين قد يتعرَّضون لما تعرّضنا له اليوم.. اسمع هذه الحكاية: كان كونفوشيوس يجلس إلى تلاميذه، فقال له أحدهم: «فلان عظيم يا معلّم!» سأل كونفوشيوس تلميذه «وما سرّ عظمته؟» قال التلميذ: «الجميع يحبّونه» قال كونفوشيوس «منافق!» وكان هذا الذي يحبّه الجميع منافقًا فعلاً، وإلاّ كيف أحبّه الأشرار؟ إنّني، يا أرقش، أجد الصحّ فيما قالته فيروز في إحدى المسرحيّات: «هناك ناس نحبّهم ويحبّوننا، وهناك ناس نكرههم ويكرهوننا!» هذا منطق سليم، وفيه عبرة.

قال الأرقش:

ـ صدقت يا حكيم.. لكن ماذا بشأن اللطف؟ الجميع كانوا لطفاء معي، وما كنت أحسب أنّ لطفهم خداع، حتى وقع لنا اليوم ما وقع، فهل أكفر باللطف، لأنّ هذا أو ذاك من اللطفاء أراد قتلي؟

قال الحكيم:

ـ لكلّ قاعدة استثناء يا أرقش، ومع أنّني أخشى أكثر ما أخشى اللطفاء، فإنّه من الخطأ وضعهم كلّهم في قبّعة واحدة، ومن الخطأ الأكبر أن نرفع لهم جميعًا قبّعتنا، وننحني باحترام لهم.. التعميم، هنا، غير جائز، لنحذر

الذين يتلاطفون، ويتظرّفون معنا، بشكل زائد. وفي حدود رأيي، فإنّ المنافقين، والجبناء، والبخلاء، والنمّامين والكذّابين، هم الأكثر لطفًا، ولو تسرّعنا في تصديق كلّ ما نسمع، لوجدنا المرائين في كلّ مكان.. قالت العرب: «سوء الظنّ من حسن الفطن»، وفي هذا مغالاة، تشلّ تواصلنا مع الناس، لا سوء ظنّ كامل ولا حسن ظنّ كامل، لأنّ علينا، أمام كلّ مشكلة، أن نبحث عن حلّ لها بين هؤلاء الناس، أن نتغلغل بينهم على نطاق أوسع فأوسع، أن نتعلّم منهم، فالتعلّم من الناس أرسخ من التعلّم من الكتب، دون أن نبخس قيمة الكتب في نشر المعرفة، فالمعرفة كما تعلم وحدها التي توقظ الوعي، ودون وعي بحقّ الشعب في العدالة، لا ينهض الشعب معنا في طلب هذه العدالة.. كفى كلامًا على كلّ هذا، لأنّ إطلاق الرصاص، بين فترة وأخرى، لايزال يُسمع، وهذا يدلّ على أنّ هناك مطاردة، فمن يطارد مَنْ يا ترى؟ ولماذا لم يعد الصقرش وقمْطرة من «شهر العسل» الذي مدّته، في مثل ظروفنا، يوم واحد؟

قال الأرقش:

- سمعك رهيف يا حكيم.. فعلاً هناك إطلاق نار متقطّع، وهذا ما يقلقني جدًّا، فإلام نبقى جالسين على هذه الصخرة، مستمتعين برؤية صورتينا في صفاء ماء النبع؟

قال الحكيم:

- إلى أن تعود رئيفة، أو يعود دغمش، أو نعرف ماذا جرى لصقرش وقمْطرة!

إلاّ أنّ رئيفة لم تعد، وطالت غيبة دغمش، وكان

الرصاص الذي يطلق متقطّعًا بفعل مطاردة، بين كل هؤلاء، إضافة إلى صيّاد كان متخفّيًا ثم ظهر فجأة، اسمه الشادوف، انضمّ إلى دغمش، في محاولة لقتل الأرقش، لسببين مختلفين: أحدهما لأنّ دغمش حرّضته رئيفة، والثاني لأنّ الشادوف كان عميلاً للقلاع، اندسّ بين الصيّادين، متنكّرًا في ثيابهم، ومهمّته أن يقتل الأرقش، الذي بدأ أسياد القلاع يتضايقون من دعوته إلى مهاجمة قلاعهم.

تزوّجت قمْطرة زواجًا شرعيًّا، وذهبت مع صقرش لقضاء يوم عسل، كما ظنّ الحكيم بشير، إلاّ أنّها لم تتزوّج فعليًّا، فقد ملأت بندقيّتها بمشط من الرصاص، وقالت لصقرش:

ـ المرأة تفهم خبث المرأة أكثر من الرّجل، هناك امرأة وهنا خبث، فلنؤجّل الدخلة إلى وقت آخر.

قال صقرش:

ـ أنتِ مخبّلة يا قمْطرة، عن أيّ امرأة وأيّ خبث تتكلّمين؟ علينا أن نمضي إلى عمق الغابة، وهناك نبني عشّ غرامنا.. الأرقش بخير، وقد طاف الغابات الاثنتين والعشرين، وترك فيها، لشجاعته، صدى لايزال يرنّ. عنترة قال: «ولو أرسلت رمحي مع جبان/لكان بهيبتي يلقى السباعا».. الأرقش ذهب بنفسه مع الحكيم بشير، ورمحه في يده، فممّن تخافين عليه؟

ـ من المرأة، وتحديدًا من رئيفة!

ـ رئيفة تحبّ الأرقش.

ـ ولأنّها تحبّه ستقتله، كيلا يكون لغيرها.

ـ كفاكِ تخريفًا، مَن يحبّ لا يقتل الذي يحبّه..

ـ المرأة، في حبّها الخائب للرجل، تقتل الرجل.. الأرقش لا يستجيب لحبّ رئيفة، ورئيفة في خيبة حبّها ستقتل مَن تحبُّ، أي الأرقش. لكنّني، أنا سأكون لها بالمرصاد.. هل فهمتَ؟

ـ فهمتُ، لكنّني أستبعد أن تخون الأنثى ذكرها الذي تحبّه.

ـ أنت أبله إذن.. اذهب حيث شئت، ودعني أذهب حيث أشاء، وهذه كلمتي الأخيرة..

قال صقرش:

ـ إخلاصي للأرقش، لا يقلّ عن إخلاصك له، سأكون معك يا قمْطرة، ولكن ليس على أساس التهيّؤات.. تجربتي، في هذه الأمور، أكبر من تجربتك بكثير.. رئيفة التي تحبّ الأرقش، محال أن تفكّر بقتله يا عبيطة.. هل تقتل المرأة مَن تحبّ.

ـ المرأة هي التي، وحدها، تقتل من تحبّ، عندما تيأس من حبّه لها، وهي وحدها التي تقتل زوجها، إذا كان هذا الزوج عقبة في طريق خيانتها له، سواء بسبب المال أو الزواج ممّن تحبّ، وتخونه معه، يكفي هذا الشرح أم أزيد عليه؟

ـ أنا غير مهتمّ في الحالين.. وجودي في هذه الغابة لاصطياد الذئب الأسود، وليس لسماع ثرثرات النساء.. أنت ثرثارة، وأنا أتحمّل ثرثرتك، إنّما حذار من الغيرة.. لماذا تغارين من رئيفة؟ وماذا بينك وبين الأرقش؟

ـ وماذا تظنّ؟ وبماذا تشكّ؟ إنّني، يا بهيم، أشرف من

أن يقال مثل هذا الكلام لها، أمسك لسانك وإلاّ قطعته..

ـ وإذا لم أمسك لساني؟

ـ أقتلك!

ـ امرأة تقتل رجلاً؟

صاحت قمْطرة:

ـ نعم! المرأة تقتل رجلاً، خصوصًا إذا كانت المرأة شجاعة مثلي، والرجل خرعًا مثلك.. انظر! هل ترى مَن هناك؟

التفت صقرش إلى حيث أشارت قمْطرة، وقال:

ـ هناك رجل وامرأة، لكن ما الغرابة في وجود رجل وامرأة في غابة؟

ـ الغرابة في أنّ المرأة هي رئيفة، والرجل هو دغمش..

ـ وماذا في ذلك؟

شدّت قمْطرة شعرها، أصرّت بأسنانها، نهضت واقفة، سارت بخطًى وئيدة في أثر رئيفة ودغمش، تاركة الحرّيّة لصقرش أن يتبعها، أو يذهب إلى الشيطان، إلاّ أنّ صقرش تبعها، كان يحبّها ويغار عليها في آن، وكان بليد الذهن إلى درجة الغباء، ولم يكن ثمّة وقت لتعنيفه على غبائه، فقد اختفت رئيفة فجأة، وظهر رجل لا تعرفه فجأة أيضًا، وبعد أن تبادلا كلامًا خافتًا، تقدّما بين الأدغال، وكلّ منهما يمسك بندقيّته، في وضع الاستعداد للإطلاق، دون أن تعرف قمْطرة، إلاّ حدسًا، أنّهما سيطلقان على الأرقش والحكيم بشير.

قالت قمْطرة لصقرش وقد استبدّ بها الغضب:

ـ أنا التي تقول وأنت الذي يسمع!

ـ كيف هذا؟

ـ لا كيف ولا بلّوط! إنّني مثلك، أسمع طلقات الرصاص، ولا أدري على مَن تُطلق، وكلّي ثقة بحكمة الحكيم بشير وبشجاعة الأرقش، وأنّهما قادران حتى على مجابهة الغدر لو كان، لكنّهما يجهلان، أغلب الظنّ، أنّ هناك جريمة ستقع، وأنّ التي دبّرتها رئيفة، والذي سينفّذها دغمش، وقد رأيتهما بهاتين العينين يتآمران، ثمّ انضمّ إلى دغمش ذلك الذي لا أعرف اسمه حتى الآن، لكنّه أحد الخونة بغير شكّ، ومعك يا صقرش، أو بدونك، سأطارد هذين المخلوقين حتى النهاية، نهايتي أو نهايتهما، وما عليك إلاّ حماية ظهري، أو تغطيتي عند اللزوم... أمّا شهر العسل، أو يوم العسل، فيمكن تأجيله، ولن تقوم القيامة أبدًا. وخطّتي هي التالية: الاقتصاد في إطلاق الرصاص، رغم أنّ ذخيرتي منه لا بأس بها، وخلال المطاردة، التي لا يتوقّعانها طبعًا، علينا أن نسدّد بإحكام، على جسدي الخائنين مباشرة، ويكفي أن نقتل، أو حتى نجرح، أحدهما، لنحقّق انتصارًا مقبولاً، وهذا الانتصار ممكن لأنّ المبادرة بيدنا، وما هي المبادرة؟ أن تعرف عدوّك، بينما هذا العدوّ لا يعرفك، فالحرب خدعة، والمبادرة خدعة، وقد لازمت الأرقش طويلاً وتعلّمت منه كثيرًا، لا في مجال الحوار والنقاش، بل في المجال العملي الواقعي، الذي تعرف معه الظرف المحدّد، وتتصرّف معه بشكل محدّد.

قال صقرش:

ـ ما كنت أحسب أنّك على كلّ هذا الدهاء.

ـ وعلى كلّ هذه الشجاعة.. تسلّل الآن، إلى الطرف الآخر، وأطلق طلقة واحدة، ثم تخفّى بحيث ترى ولا تُرى، وانتظر ردّة الفعل.

ـ وما الغاية من ذلك؟

ـ أن تتعدّد مصادر النار، فيحسبان أنّ الذين يطاردونهما كثرة.

كان نجاح هذه المحاولة محدودًا، فالردّ على إطلاق النار بالمثل، لم يشكّل أيّ إرباك، ويبدو أنّ ذخيرة دغمش وزميله لم تكن بالقليلة كما توقّعت قمْطرة، والمطاردة إذا تطاولت أكثر ستعود بالضرر، والصيّادون المنتظر بروزهم للمساعدة في القضاء على دغمش ومَن معه كان سرابًا، لذلك فكّرت قمْطرة بإرسال صقرش إلى النبع للاطمئنان على الأرقش والحكيم بشير، وتحذيرهما من الخطر، وبقائها هي في الغابة، تترصّد الرجلين، إلاّ أنّها سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة، لأنّها في غابة غريبة عليها وعلى صقرش، وليس من ضمان في الاهتداء إلى النبع بسرعة، وأنّ صقرش إذا ضلّ الطريق، فربّما وقع بين يدي دغمش، وكان مصيره الموت المؤكّد، وفي هذه الحال تبقى بمفردها دون نصير أو غطاء، وفي هذا مجازفة غير محسوبة النتائج، وخطرة جدًّا!

كان إطلاق النار لايزال يُسمع متقطّعًا، وهذا يعني أنّ المطاردة مستمرّة، ونقطة الضعف أنّ دغمش يعرف مسالك هذه الغابة جيّدًا، بينما قمْطرة تعرف مسالك الغابة الأولى

التي كانت فيها، لذلك اختبأت وراء دغل كثيف، وندهت صقرش إليها قائلة:

ـ الوضع غدا أكثر تعقيدًا يا صقرش، لن نستطيع النيل من دغمش، وهو في غابته.. علينا أن ندعه مؤقّتًا.

قال صقرش:

ـ وهكذا ينجو بجلده!

ـ لا! لن ندعه ينجو بجلده.. دغمش سيعود إلى النبع من تلقاء نفسه، لأنّه يتبع رئيفة حيث تكون، ورئيفة ستعود إلى النبع أيضًا، ظنًّا منها أنّ أحدًا لا يدري بتآمرها لقتل الأرقش.

ـ وإذا كان الأرقش قد قتل؟

ـ ننتقم له من رئيفة ودغمش معًا.

ـ كيف؟

ـ اللعنة على كيف هذه.. للانتقام أساليب عديدة، وسنجد الأسلوب المناسب في وقته.

ـ نكفّ عن مطاردته إذن؟

ـ نتربّص له.. نراقبه من بعيد، فتحين الفرصة التي يبتعد فيها عن الرجل الذي معه، ونطلق على الرجل لا على دغمش!

ـ وما الفائدة؟

قالت قمْطرة:

ـ أنت أحمق! هذا الرجل ظاهرة في الخيانة، وسنعرف من قتلِه، من جرحِه، على الأقلّ، من هو، ولمن هو؟ ولمن

يمثّل هذا الدور الخائن؟ وهل صار الذين يطاردون الذئب الأسود، مخترقين من قبل الخونة؟ إنّني لا أفهم لماذا يريد دغمش أن يقتل الأرقش، وأنّ رئيفة هي التي دفعته، لأنّ الأرقش أعرض عنها، وبعد أن يقتل دغمش الأرقش، ستتولّى هي قتل دغمش، لسبب بسيط هو أنّها تكره دغمش هذا، وهكذا ندخل في دوّامة القتل، وننسى قضيّتنا مع الذئب الأسود.. والأرقش، وحده، من يستطيع بشجاعة قلب أن يقضي على هذه الظاهرة قبل تفشّيها.

ـ والحكيم بشير؟

ـ ما له الحكيم بشير؟

ـ إنّه مستهدف بالقتل أيضًا!

ـ ليس الآن.. دوره لم يأت بعد.. الحكمة لا تضرّ القلاع في الوقت الحاضر، الذي يضرّها هو مَن يكشف سرّها، مَن يقول إنّها المصدر، وأنّ قتل الذئب الأسود، حتّى لو قتل، يفرّخ من هذا المصدر قبيلة من الذئاب السود الخطرين، وصاحب هذا الكلام هو الأرقش، وكاشف هذه الحقيقة هو نفسه، لذلك يطلبون رأسه، والرجل الذي مع دغمش أرسلته القلاع ليأتيها برأسه، في تجربة أولى، تتلوها تجارب أخرى، يُقتل فيها الحكيم، وأنت وأنا، وكلّ من يتجرّأ على الأخذ بمقولة الأرقش حول هذه القلاع.

قال صقرش:

ـ ما تقولينه، يا قمْطرة، رهيب جدًّا.

ردّت قمْطرة:

ـ الحقيقة، وحدها، هي الرهيبة جدًّا، والأرقش، بفكره الثاقب، مَن دلّ عليها، مَن اكتشفها، من جهر بها دون خوف أو تردّد.. لذلك أرسلوا هذا الخائن لقتله، أو لتسليمه لهم، مقابل ثلاثين من الفضّة!

ـ أنا لا أعرف حكاية الثلاثين من الفضّة هذه.

ـ وهذا ليس وقت رواية حكايتها.. اذهب، متسلّلاً، واكمن وراء هذا الدغل المقابل.. إيّاك أن تطلق على دغمش، أطلق على الرجل الذي معه، وبتسديد محكم، وسأفعل، من ناحيتي، ما تفعله أنت من ناحيتك، وبالتسديد نفسه والإحكام نفسه.

لكن حساب السوق، لم ينطبق على حساب الصندوق، اختفى دغمش والرجل الذي معه، فقالت قمْطرة:

ـ اللّعنة على الحظّ!

قال صقرش:

ـ تعرفين المثل الذي يقول: «تجي تصيده يصيدك»؟

ـ أعرفه، وأعرف فوقه ثعلبة دغمش هذا.. كان، ابن الكلب، قنّاص بشر، في رقبته مئات القتلى، رصاصته لا تخيب، حاسّة الشمّ عنده قويّة جدًّا، وهو لا يتورّع عن شيء.. اختفاؤه يقلقني!

ـ من أيّ جهة؟

ـ من عدّة جهات يا صقرش، يا زوجي العزيز والبهلول، نعم! من عدّة جهات، وأنت مع الأسف لا تخمّن واحدة منها ولو تخمينًا.. هيّا لنجلس ظهرًا إلى ظهر، وكلّ منّا

يشرّع بندقيّته ويستعدّ للإطلاق فورًا، عند أوّل خطر يلوح.. أمّا الجهات التي أفكّر فيها فإنّها اختفاء دغمش..

قاطعها صقرش:

ـ ليذهب إلى جهنّم، اختفاؤه يعني الخلاص منه.. هذه، يا قبّرتي، فالصو، جهة فالصو، فماذا عندك بعد؟ هاتي الجهة الثانية!

فكّرتْ قمْطرة مليًّا، خطر لها أن تقتل صقرش وتستريح، وهكذا تبقى عذراء رغم تقدّمها في السن، فتنذر نفسها للأرقش وللقضيّة، وهذا أفضل من أن ينام فوقها هذا البغل، بكلِّ ثقله وبلاهته.. تذكّرت المثل الذي يقول: «رضينا بغراب البين، وغراب البين لم يرض بنا!» رضيت بصقرش لأنّ الأرقش أراد ذلك، وهي لا تخالف للأرقش قولاً، أو تعصى له أمرًا.. وها هو صقرش يتكشّف عن دغمش آخر، حيوان لذّة، وفطائسيّ لا يعفّ عن كريهة، فماذا تفعل به؟ قالت بصوت عالٍ:

ـ ماذا أفعل بك يا صقرش؟

قال صقرش:

ـ وماذا تفعل الزوجة بالزوج؟ تنام تحته ليركبها.

ـ هذا هو مفهومك للزواج؟

ـ هذا هو المفهوم الوحيد عند الخليقة كلّها.

ـ وأنت من الخليقة، كما تحسب نفسك؟

ـ نعم! أنا من الخليقة دون زيادة أو نقصان.. وإلاّ كيف تكون الخليقة؟ الزوج، من عهد آدم، يركب زوجته حوّاء،

لأنّ أحدهما ـ الذكر، خلق ليركب الأخرى ـ أي الأنثى، التي تطبخ وتنفخ وتنجب الأولاد!

بصعوبة كتمت قمْطرة ضحكتها.. المسألة هي كما قال صقرش، ودون فلسفة: الرجل خلق ليركب المرأة! صقرش هو الرجل، وهي، قمْطرة، المرأة، ولم يبق إلاّ الركب والطبخ والنفخ والإنجاب.. وبارك الله بالشرق، كما قال لها الأرقش يومًا ممازحًا!

سألت وهي تغالب ضحكتها لاتزال:

ـ المسألة هي هكذا، إذن، يا صقرش؟

ـ هكذا وبكلّ بساطة يا قمْطرة، يا حمامتي الحبشيّة!

ـ أنا لست حمامتك يا لئيم، ولوني الأسمر الغامق لا يجعلني حبشيّة كما تقول. أنت، يا صقرش، حيوان لا أكثر، والأرقش الذي زوّجني منك أخطأ خطيئة العمر.. هل تفهم؟ أنا غجريّة و«رأيت غجرًا سعداء»

ـ لا! لا أفهم! نحن زوج وزوجة، فما الذي حشر الأرقش بيننا، أنتِ! نعم أنتِ، وأنا، صدّقيني، أشم رائحة.. رائحة ستجعلني أقتل الأرقش، إذا لم يقتله دغمش، الذي، كما يبدو، شمّ رائحة مماثلة بين الأرقش ورئيفة، فأقسم أن يقتله.. أين كنّا في الحديث؟ هيّا.. ما هي الجهة الأولى؟

قالت قمْطرة في نفسها: «صدق ظنّي، صقرش هذا ليس إلاّ دغمش، كلاهما ضبع أجرب، دغمش أقسم أن يقتل الأرقش من أجل رئيفة، وصقرش يتوعّد أن يقتله من أجلي..

وأنا؟ من أنا؟ أنا مريدة الأرقش، تلميذته، رفيقته في مطاردة الذئب الأسود، ومعه في أنّ القلاع هي مصدر هذا الذئب، الموجود وغير الموجود، كما يقول الصيّادون.. لا بأس! الأيّام بيننا يا صقرش، يا من تجد أنّ المرأة خلقت ليركبها الرجل.. أنت لن تركبني أبدًا. هذا قولي، وقولي فعل. وإذا تماديت في الكلام على ما بيني وبين الأرقش، وعدت إلى التهديد بقتله، فسأقتلك قبل أن تقتله!».

قال صقرش:

ـ بماذا تفكّرين يا قمْطرة!

ـ في هذا الرصاص المتقطّع الذي نسمعه، بينما أنت تفكر بالشيطان الذي يسكنك، اسمعني جيّدًا: قمْطرة تضع الموت بين عينيها، وبعده لا تسأل عن شيء، نحن، أنت وأنا، في خطر، والجهة الأولى التي تسأل عنها هي أن يكون دغمش قد قتل الأرقش، والجهة الثانية أن يكون الأرقش تخلّص من دغمش، والجهة الثالثة أن يكون الحكيم بخير، لم يلحقه أذى، والجهة الرابعة أن تكون هذه القحبة رئيفة قد عادت إلى النبع، دون أن تدري بأنّنا على علم بما صنعت، والجهة الخامسة أن نكون، أنت وأنا، قد قنصنا الرجل الذي مع دغمش حيًّا أو ميتًا، والأفضل أن يكون حيًّا، والجهة السادسة أن نصفّي كلّ الحسابات دفعة واحدة، ومع الجميع.

قال صقرش:

ـ هل هذا إنذار؟

ردّت قمْطرة بقسوة:

ـ إنذار!؟ لا! الذي ينذر لا ينفّذ إنذاره، والذي يتوعّد الآخرين بالقتل لا يقتل، ومَن يقول إنّني سأثور لا يثور أبدًا، ومَن يتكلّم كثيرًا يفعل قليلاً، ومَن يسلك مسلك دغمش، لابُدّ أن يكون دغمش نفسه.. ولعلمك أقول: دغمش هذا انتهى!

قال صقرش:

ـ رهيبة أنت يا قمْطرة، لكن أنا، صقرش، رهيب بقدر أكبر!

ـ أنت خراء.

صوّب صقرش بندقيّته إليها وقال:

ـ اسحبي هذه الكلمة، اعتذري عنها وإلاّ قتلتك كما تُقتل الكلبة..

دفعت البندقيّة عنها، فانطلقت رصاصة في الهواء، بينما فوهة بندقيّتها لامست خاصرته، ولم يبق، كي يُقتل صقرش، إلاّ أن تضغط على الزناد، إلاّ أنّها لم تضغط، اكتفت بأن تصيح به في صوت غضوب:

ـ ارم هذه البندقيّة أرضًا، ارمها فورًا وارفع يديك، وإلاّ قتلتك يا حيوان!

رمى صقرش بندقيّته، رفع يديه، تحوّل من التهديد إلى المسكنة، انطوى على نيّة الغدر، كان غدّارًا لئيمًا، وكانت قمْطرة تعرف أنّه غدّار لئيم، لذلك سحبت مشط الرصاص من بندقيّته، ألقت بها بعيدًا، وقالت:

ـ الآن أغرب عن وجهي، خذ بندقيّتك الحطبة وارجع

إلى النبع، لكنّك لن ترجع، ستنضمّ إلى دغمش، وفي هذه الحال سيكون مصيرك مصيره، إلاّ في حال واحدة، إذا أمسكت لسانك عن إفشاء سرّ وجودي هنا، وسرّ معرفتي بخيانة دغمش، وسرّ تآمر رئيفة معه، أو مسست شعرة من رأس الأرقش.. أنت، يا كلب، صدقْتَ بشيء واحد، هو قولك عنّي إنّني رهيبة.. نعم! أنا رهيبة، وادّعاؤك أنّك رهيب، أنت الآخر، فشر في فشر..

ناح صقرش، أو تظاهر بالنواح، راجيًا من قمْطرة أن تعيد مشط الرصاص إلى بندقيّته، وأن تدعه إلى جانبها، لأنّه، من دون سلاح، لا يستطيع العودة، ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا ما تعرّض لخطر ما، وفوق ذلك فإنّه غريب في هذه الغابة، وسيعلم الأرقش لمجرّد العودة دونها، أنّه خانه، وأنّ الأرقش الذي لا يرحم لن يرحمه أبدًا.. قال متوسّلاً:

ـ أنت، يا قمْطرة، تعرفين أنّني من رجال الأرقش.

صاحت به:

ـ كنت من رجاله، لذلك اصطحبك معه، أولاك ثقته فخنت الثقة، فماذا بقي منك؟ أو ماذا تبقّى لديك؟ الغدر، أنت غدّار يا ابن الكلب، لكنّني سأجعلك تدفع ثمن غدرك قبل أن تغدر.

قال صقرش:

ـ لكنّني زوجك يا قمْطرة، وأنت لاتزالين على ذمّتي، هل نسيت هذا؟

ـ قمْطرة لا تنسى، ولكن عن أيّ ذمّة تتحدّث. أنت لا ذمّة لك!

أراد صقرش أن يقول شيئًا، وحين وضعت إصبعها على فمها محذّرة، أدرك أنّها رأت، من فجوة الدغل، إنسانًا ما، وأنّ الفرصة التي تنتظرها قد واتت، لكنّها بعد كلّ شيء امرأة، فماذا تفعل امرأة؟ تقتل؟ وأنا؟ ماذا أنا؟ ولماذا جرّدتني من سلاحي؟ وهل في إمكانها أن تسدّد مثلي!؟ وكان جوابها طلقة، تبعتها طلقة، وصرخ رجل من الألم وهو يتخبّط، بينما هرب رجل آخر، فراحت تطلق عليه دون أن تصيبه، وقالت آسفة:

ـ لقد أفلت دغمش هذه المرّة!

ـ ١٥ ـ

قال الأرقش للحكيم بشير:

مقولة «المستبدّ العادل» عورة مستورة بورقة دلْبٍ، فحيث يكون الاستبداد لا يكون العدل، ومن الغريب أنّ بعض الناس لايزال يردّد هذه النغمة التعيسة جدًّا، في هذا الزمن الصعب جدًّا!

قال الحكيم بشير:

ـ الناس، يا أرقش، يبتغون عزاء ما، بسبب هذا الجزر في حياتنا. . الخرافات تروّج مع الجزر، تتناسل وتتكاثر، ولا تتلاشى إلاّ مع المدّ، والمدّ لن يأتي غدًا أو بعده، إنّه يحتاج إلى عقود كثيرة من السنين، فإذا جاهرت بهذا الرأي، أداروا لك ظهورهم، إذا لم يشتموك ويلعنوك. . هنا أنانيّة مفرطة، وهذه ناتجة عن كوننا لانزال خارج التاريخ، وعن هذا قرأت كتابًا مترجمًا لفوزي منصور، عنوانه «العرب خارج التاريخ» لأنّهم لم يفطنوا، أو عجزوا، في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ، عن إنشاء «رأسماليّة زراعيّة» ينطلقون منها إلى ما بعدها، إلى رأسماليّة صناعيّة، وبذلك يقطعون مع المركز الرأسمالي العالمي، ودون هذا القطع يظلّون تابعين. . إنّنا، حتى في هذا الزمن، لانزال نضحك على

أنفسنا، معتقدين أنّ جلاء القوّات الأجنبيّة هو كلّ الاستقلال، غافلين عن أنّ الاستقلال الاقتصادي هو الاستقلال الحقيقيّ، ومادمنا لم نستقلّ اقتصاديًّا، فإنّنا لم نستقلّ سياسيًّا، فإذا سألتني: «هل يمكن لأسياد القلاع هؤلاء أن يحقّقوا استقلالاً اقتصاديًّا؟» أجبتك بكلمة واحدة: «لا!»

قال الأرقش:

ـ هناك، في هذا المجال، مقولة لأحد المفكّرين، تلخّصها عبارة واحدة: «عرفت ما كنت أعرفه، مرّة أخرى!».. أنت، يا حكيم، أنقذتني اليوم من موت محقّق، دبّره أسياد القلاع، ونفّذه أزلامهم.. هذه الغابة خارجة من حرب أهليّة، وكَذِبٌ كل ما يُقال عن انتهاء هذه الحرب، كلّ ما في الأمر أنّ جذوتها تحت رماد، ونحن نستشعر حرارتها في هذه الغابة، ومن هذه الحرارة الرصاص الذي أطلق عليّ، وها نحن نجلس على صخرة النبع، بعد أن ضمّدت بعض الخدوش البسيطة، لا بأس! ستشفى هذه الخدوش، فهي ليست خطيرة، إنّما الخطير، في رأيي، هي غفلتنا عن هؤلاء الأزلام!

قال الحكيم:

ـ دود الخلّ، يا أرقش، منه وفيه، كما يقول المثل.. ما كنت أتصوّر أنّ بين الصيّادين خونة وأنذالاً، والذي جرى اليوم، يؤكّد أنّ هناك خونة وأنذالاً بينهم.. العدالة الاجتماعيّة مطلب عزيز، ومتعذّر بقدر ما هو عزيز «إنّه في سفر هيهات منه يرجع!».

ـ وهيهات أن نتوقّع رجوعه قبل عقود كثيرة، الفرديّة صعبة التحوّل إلى جماعيّة، والصيّاد، بيننا فرد، وهذا الفرد يفكّر على النحو التالي: «اصطياد الذئب الأسود يحتاج إلى زمن، أي أنّه لن يتحقّق في حياته، ومادام الأمر كذلك، فإنّ تحقّقه بعد موته لن يفيده في شيء، ومن هنا يتسرّب إليه اليأس، واليأس كثيرًا ما أدّى إلى شرور، منها الكفّ عن مطاردة الذئب الأسود، ومنها عدم الاكتراث، ومنها إلقاء السلاح والعودة إلى البيت، ومنها الخيانة.. وهذا ما علينا أن نتوقّعه، وأن نمنع تفشّيه كبقعة الزيت، وأن نضرب كلّ خائن بغير رحمة، سواء خان عن وعي أو غير وعي، مادامت نتيجة الخيانة واحدة!

ـ وماذا عن الجانب الأخلاقي؟

ـ كلّ ما نعمله بصدق أخلاقي.

ـ والشكّ؟

ـ حين نشكّ بصدقنا، نكون قد شككنا بأخلاقنا، ومن له في هذه الدنيا قضيّة شريفة، لا يجوز، حتّى في الهمس بينه وبين نفسه، أن يدع لأحد أن يشكّ في صدقه، وتاليًا في أخلاقه.. إنّني لا أعمّم، فهناك، أحيانًا، مَن يتطلّب الرويّة، قبل الشكّ في صدقهم وأخلاقهم، وقبل أن يعاقبوا، من قبلنا أو قبل غيرنا، عقابًا شديدًا، وعلى النحو الذي يجب.

قال الحكيم بشير:

ـ لشدّ ما أنت صارم يا أرقش!

ضحك الأرقش وقال:

ـ ولشدّ ما أنت رحيم يا حكيم.. ومع الأنثى خصوصًا!

تجهّم الحكيم وقال:

ـ إلى أين تريد أن تصل يا أرقش؟

ردّ الأرقش:

ـ ليس إلى حوض النبع، الذي لابُدّ أن نقع فيه، مادام ذلك مقدورًا علينا.. ألا تذكر مَن قال: «كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمول؟» لنحذف آلة حدباء، ونضع مكانها حوض النبع، نصبح على انسجام، وكذلك صدق، مع أنفسنا.. الأخرى، يا حكيم، لابُدّ لها من آخر، والعكس صحيح أيضًا.. هل ترى كيف تتحوّل الصرامة إلى نقيضها؟ إنّ ذلك يحدث من حين إلى حين، ولكن ليس في كلّ وقت.. صارم أنا؟ نعم. صارم! وسأذهب الآن، مادام ليس هناك نزيف في الخدوش، وحتى لو كان سأذهب، فالعدالة الاجتماعيّة ليست مادّة للتغنّي، بل مادّة للكفاح، والكفاح يتطلّب ثمنه، وعلينا أن ندفع وبسخاء، مادام الذين في الغابة التي جئت منها يقبضون وبسخاء أيضًا، فجريدة «الخفّاش» التي تأتيني ولا أقرأها، جريدة تصدر بمال السلطان، وبلسان السلطان تنطق، والرقابة الذاتيّة أقسى من الرقابة السلطويّة، ولا عبرة أو اعتبار لهذا المنطق الذي يقول، إنّ فلانًا أو فلانًا، من الذين يمارسون الرقابة الذاتيّة في هذه الجريدة، قد سبق لهم وسجنوا، أو صمدوا في السجن! فالعبرة، يا حكيم، في الصمود بعد السجن، ولا أبالغ فأزعم أنّ الجميع، بعد السجن، لم يصمدوا، أو صمد القليل النادر منهم، الذين

ليس لهم علاقة بهذه الجريدة، أمّا الذين فيها، في قيادتها، فإنّهم تبدّلوا، وهذا طبيعي، فالسجن بني أساسًا لغرض معيّن: التأديب. والتأديب في علم التربية، تربية جديدة، قوامها التخلّي عن المنطق الذي كان، واعتناق المنطق الذي سيكون، الذي تسنّه السلطة، وتدفع ثمنه أيضًا!

قال الحكيم:

ـ الشيء ذاته، في هذه الغابة أيضًا، مع فارق واحد، هو أنّ الصحف هنا، من التي عناها الشاعر بقوله، «وصحافة صفر الضمير كأنّها/سِلَعٌ تُباع وتُشترى وتُعارُ»، ولا أعمّم.. فهناك صحف غير صفراء، وأقلام غير سلطويّة، وجهر بالقول على غير ما في غابتكم، إلاّ أنّ تحليلاتك للسجن وما بعده، وللغرض الذي أنشئت السجون لأجله، وكيف يخون المنطق نفسه، في حالتيْ ما قبل وما بعد، فإنّها صائبة، رائعة.

كان الأرقش في استواء الرجولة، فارع القامة، حنطيّ اللون، معروق الخدّين، مضموم الكفّين، ضامر الخصر، حادّ النظرات، خرّيج كلّيّة الاقتصاد، يردّد دائمًا «لكي نفهم السياسة، علينا أن نفهم الاقتصاد».. وتأسيسًا على هذا يعتقد أنّ المصالح تفسّر كلّ شيء، ودونها كلّ تفسير خاطئ، فأسياد القلاع لهم مصلحتهم، والذين يقاومون القلاع وأسيادها لهم مصلحتهم أيضًا، وكلّ من المصلحتين يختلف، فالذي ينهب الناس، غير الذي يكافح لاسترداد ما نُهب منه، والظالم يختلف عن المظلوم أيضًا، وهذا الأخير يسعى لردع الظلم، لردّه عن نفسه وعن الناس، لكنّه أعزل، ويقاوم وهو

أعزل، وهذا أنقى وأشرف أنواع المقاومة، أمّا الظالم فإنّه يملك السلاح، والأزلام الذين به يحمونه، وقد قيل لستالين: «البابا ضدّنا» فأجابهم: «كم دبّابة عنده؟» كان ستالين يفهم لغة القوّة ودورها في مقاومة الظالمين والمعتدين جميعًا!

قال الحكيم:

ـ شتيمة ستالين صارت موضة، وأكثر الذين يرغبون أن يقبلهم الطرف الآخر، المعادي، حامل بيرق الحداثة وما بعدها، يشتم ستالين كجواز سفر، كورقة «دعه يمرّ»، أمّا أنا وأنت يا أرقش، فليس لنا غاية في أن نكون على الموضة، أو رغبة في تقديم أوراق اعتماد إلى أحد، ولسنا ضدّ الجديد، أو مع القديم الذي نفاه الزمن، إلاّ أنّنا نقاوم، ومن شرف المقاومة ألاّ نشتم الذين كانوا أبطالها، ولعبوا أدوارًا في مقاومة الغزاة عبر التاريخ، ومن كلّ الأمم.. لماذا، يا أرقش، لا تؤجّل التوغّل في هذه الغابة إلى وقت آخر، أكون فيه معك؟

ردّ الأرقش:

ـ لأنّني لا أريدك أن تكون معي، أو تحميني، كما فعلت قبل ظهر اليوم..

ـ هذا عناد!

ـ من حقّ الذي يريد الاكتشاف أن يتقحّم، وأن يعاند لأجله، فالذي يكتشف، تبقى الأماكن المجهولة، التي اكتشفها بنفسه، أشدّ رسوخًا في ذهنه، وأبعث على الغبطة في روحه.. هناك إطلاق رصاص، وأتشوّق لمعرفة الصيّادين الذين يطلقون الرصاص على طرائدهم، وربّما

فعلت مثلهم، فاصطدت طريدة دسمة.. إلى اللقاء قريبًا!

ـ إلى اللقاء، ولكن إذا تأخّرت سألحق بك.

ـ كي تحميني مرّة أخرى؟ لا! «دعني أبادر منيّتي بما ملكت يدي!»

ـ أنت، يا أرقش، تبادر كلّ شيء بما ملكت يدك، لكنّك، في المواقف الصعبة، قد تحتاج إلى يد مع يدك.

قال الأرقش:

ـ هذا صحيح، لو كنت ذاهبًا للقتال، لكنّنا، أنت وأنا، لم نصل إلى هذه المرحلة.. إنّنا في مرحلة الحوار، وقد قلنا أو عرضنا أمورًا كثيرة، وهي كلّها قابلة للنقاش مع حقّ الاختلاف، واحترام الرأي والرأي الآخر، انطلاقًا من نقطة الذين يحتاجون إلى أوراق اعتماد، لتقديمها إلى الطرف الذي يرغبون أن يقبل أوراقَ اعتمادهم، إلى البابا والسؤال عن ستالين، وعن الدبابات التي لديه، إلى ستالين نفسه، ومعه أمثاله من الذين قاوموا الغزاة وانتصروا عليهم.

سأل الحكيم:

ـ ولماذا كلّ هذا الشرح؟

ـ كي نكون ديموقراطيين فعلاً لا قولاً.. الحقيقة نسبيّة، وقد مضى زمن الاعتقاد بأنّ الحقيقة مطلقة، وأنت وأنا، مع الحقيقة النسبيّة، أو هذا ما ينبغي أن يكون، إنّنا نملك نصف الحقيقة فقط، والنصف الآخر، الذي قد يكون هو الأصحّ، يملكه الغير، ولهذا الغير كلّ التجلّة والاحترام.. هكذا أفهم القضايا، وهكذا أطرحها، وقد قال تشيكوف:

«علينا أن نطرح القضايا طرحًا صحيحًا» شرط أن تكون لدينا قضايا نطرحها. ونحن لدينا قضيّة الآن، هي القضاء على الذئب الأسود، وعلينا أن نذهب للبحث عنه، لا أن ننتظر، عند هذا النبع، أن يأتي إلينا.. مرّة أخرى إلى اللقاء، ودون قلق عليّ.

ذهب الأرقش.. بقي الحكيم بشير جالسًا على صخرة النبع، فكّر، على نحو هادئ، بكلّ ما سمع، قلّب الأمور على كلّ وجوهها، قال في نفسه: «الأرقش خَرْدَقَ حكمتي، جعلها كالغربال، تكلّم على فكرات جديدة عليّ، علّمني الكثير ممّا كنت أجهل، قال: «علينا أن نكون ديموقراطيين حقيقيين، أن نؤمن أنّنا نملك نصف الحقيقة فقط، ونحترم من يملك نصفها الآخر، إذا ما كان هذا النصف هو الصحيح.. كنت أمامه كتلميذ، وهذا ليس سيّئًا، لكن ماذا بشأن حماستي وحماسته لستالين؟ هذا ارتكب، كما يقال، جرائم كثيرة، إلاّ أنّه بنى دولة، أنشأ صناعة ثقيلة، قال جيكوف في مذكّراته: «لو لم يكن التصنيع الثقيل في الثلاثينات لما انتصرنا على هتلر في الأربعينات» وقال إنّ العجوز كان يتدخّل، وهو يدخّن غليونه، في بعض الشؤون العسكريّة، وكان تدخّله، في أحيان كثيرة، في محلّه. وعندما حاصرت الجيوش الألمانيّة لينينغراد وموسكو ودمّرت ستالينغراد، نطق بهذه المقولة: «لقد أرادوها حرب إبادة، فلتكن كما أرادوها». ولمّا اندحر الهتلريّون في ستالينغراد، وأسر الجيش الأحمر الماريشال الألماني فون باولوس، أرسل إليه هتلر قائلاً: «ابنك، يا ستالين، في قبضتي،

والمقايضة واضحة: «أطلق فان باولوس، فأطلق ابنك، وإلاّ ذبحته!» وكان جواب ستالين حاسمًا: «لا أقايض فون باولوس بابني، اعدم ابني بالطريقة التي تشاء!» وقد أعدم هتلر ابن ستالين فعلاً، وظلّ فون باولوس في أسر الجيش الأحمر، كمجرم حرب.. فلماذا يريدون، الآن، إلقاء ستالين على مزبلة التاريخ؟ الأرقش له قلب ستالين وقسوته، إنّه، ببساطة، يرغب أن يكون ستالين هذه الغابة، دون أن يحسب حساب الزمن.. لقد تبدّل الزمن، وكي ينجح الأرقش، عليه أن يتبدّل أيضًا، أن يدع المغامرة جانبًا، أن يترك الطيش، ألاّ يلقي بنفسه إلى التهلكة، ألاّ يضع هدم القلاع كهدف راهن، وعليّ، أنا الحكيم بشير، أن أتدخّل، أن أحول بين الأرقش والموت المجّاني».

لكنّ الأرقش كان، في هذا الوقت، يسند ظهره إلى جذع سنديانة، ويصغي بانتباه إلى ما تقوله قمْطرة، والشادوف الجريح، المصاب في كتفه الأيمن، مكبّلاً، مرميًّا غير بعيد عن قدمي الأرقش، الذي هاله أن تكون الخيانة، متفشّية على هذا الشكل، بين بعض الصيّادين!

عادت رئيفة إلى النبع، وبعدها بقليل عاد دغمش أيضًا، وراحا يستمعان إلى ما يقوله الحكيم بشير، عن كلّ ما جرى اليوم، وكانا يأسفان، يستنكران، يردّدان كلمة «فظيع!» فيجيب الحكيم: «لا بأس! لا بأس.. لا تأسفا، لأنّنا، الأرقش وأنا، خرجنا من فخّ الخيانة سالمين، سوى خدوش بسيطة أصابت الأرقش، وهو الآن، بخير».

سألت رئيفة:

ـ وأين هو الآن؟

قال الحكيم بشير:

ـ يصطاد الطرائد.

قال دغمش:

ـ سأذهب وراءه!

صاحت قمْطرة:

ـ لا! لا تذهب وراءه.. إنّه قادم ومعه طريدة محرزة.

التفت الجميع نحو الصوت، دهشوا لرؤية قمْطرة تقف وراء الصخرة، عجبوا من وجودها حيث تقف، والبندقيّة في يدها، فقال دغمش:

ـ مَن أنتِ؟ ولماذا تسلّلتِ على هذا الشكل المريب؟ كنت تتنصّتين علينا؟

ردّت قمْطرة:

ـ ليس من عادتي أن أتنصّت، وكذلك أن أتسلّل.. من أنت؟ وكيف لم نتعارف قبل الآن؟ على كلّ حصل خير.. أنا قمْطرة، صيّادة زميلة، من الغابة الأولى، وأنت مَن تكون من الزملاء في هذه الغابة؟ ومَن هي هذه المرأة التي إلى جانبك؟ كنت أنتظر أن ترحّبوا بي، لا أن تتّهموني بالتسلّل والتنصّت.. مرحبًا جميعًا، نحن، هنا، عائلة واحدة.. دعوني أصافحكم كما يليق، وآمل أن تردّوا التحيّة بمثلها، وأن تواصلوا الحديث، إلاّ إذا كان هناك ما يمنع مواصلته بحضوري، وعندئذ أبتعد، كما تقضي الأصول، أليس كذلك يا حكيم؟

قال الحكيم وأدرك ما في هذا الكلام من تلغيز:

ـ مرحبًا بك يا قمْطرة بيننا، وليس من قول خبيء أو سرّ مادمنا أسرة واحدة، هذا هو دغمش، وهذه هي رئيفة، وأنا الحكيم بشير.. متى وصلت إلينا؟ وهل جئت وحدك أم مع أحد؟ تفضّلي اجلسي..

ظلّت قمْطرة واقفة، بندقيّتها في يديها وهي تتفرّس الوجوه، والحكيم بشير يتساءل: «ماذا هناك؟» ويتابع حركات الجميع من طرف غير ملحوظ، مستغربًا الوجوم الذي ران على الوجوه، ونظرات القلق في عيون دغمش ورئيفة، راغبًا في كسر جوّ الصمت الثقيل، غير المعتاد، متوقّعًا حدثًا ما، دون أن يعرف ما هو، جاهدًا في كتم أنّه يعرف قمْطرة، وأنّه حضر عقد قرانها على صقرش، وأنّهما ذهبا إلى أعماق الغابة لقضاء ما يسمّونه «شهر العسل» أي الدخلة، بعيدًا عن العيون، وفي عشّ غرام مقام من الأغصان والأعشاب.

قال دغمش بنبرة تتخلّلها بحّة:

ـ لماذا لا تجلس ضيفتنا العزيزة، وزميلتنا الشجاعة في مطاردة الذئب الأسود؟

أجابت قمْطرة:

ـ لأنّني تعبت من الجلوس، منذ الصباح وأنا أترصّد الذئب الأسود مثلكم، دون أن يظهر هذا اللعين.. إلى متى مطاردة الوهم هذا يا حكيم؟ بلغني عن لسانك أنّ الذئب الأسود وهم وحقيقة، فهل صحيح ما بلغني؟

قال الحكيم بشير:

ـ صحيح يا قمْطرة، والشرح طويل.. بعض الصيّادين ملّ الانتظار، فعاد من حيث أتى، وبعضهم، مثل دغمش، يأمل باصطياد ذئب أبيض..

سألت قمْطرة:

ـ ذئب أم ذئبة؟

قال دغمش:

ـ الاثنان معًا!

ـ وماذا تنتظر؟

ـ أن يرقّ قلب الذئبة قليلاً.

ضحك الحكيم وقال:

ـ هذا لن يحدث «حتى في المنام»

ـ عندئذ أقنصها.

قالت رئيفة:

ـ إذا استطعت!

قالت قمْطرة:

ـ كيف لا يستطيع وهو مجنون ليلى؟

قالت رئيفة:

ـ وهل نال مجنون ليلى ظِفْر ليلى؟

قال الحكيم:

بلى! ناله، وأتى إليها وجلس معها، حسبما يقول طه حسين.

قالت رئيفة:

ـ أنا لا شأن لي بكلام طه حسين أو سواه.. دغمش ليس قيس بن الملوّح، وأنا لست ليلى العامريّة.. أنا رئيفة وكفى! لماذا لا تجلس زميلتنا قمْطرة؟ هل تنتظر أحدًا؟

ـ كنت أنتظر، والذي كنت أنتظره وصل.. ومعه صقرش، وطريدة ثمينة جدًّا، هي الشادوف، هل سمعتم بالشادوف؟ الأرقش سيقوم بتعريف بعضنا إلى بعض، باستثناء الحكيم بشير، فهو معروف منّا جميعًا، وحكمه يسري علينا جميعًا.. ما هذا الجريح الذي تدفعه أمامك يا الأرقش؟

ـ إنّه الشادوف، زلمة القلاع، وقد أرسلوه ليقتلني، وأطلق النار عليّ فعلاً، لكنّه لم يصبني لسوء حظّه، وتكفّلت قمْطرة به، رصاصتها سبقت رصاصتي إليه، وها هو جريح في كتفه الأيمن، جئت به إليكم لأسألكم رأيكم فيه، ماذا تقول يا دغمش؟ وماذا تقولين يا رئيفة، وما ترى بشأنه يا حكيم؟

لم ينبس أحد بكلمة.. تفرّس الأرقش في الوجوه من حوله وقال لقمْطرة:

ـ أنت التي اصطدت هذه الطريدة، وأنت التي استجوبتِه، وأنت التي اعترف لك بالبنادق الحديثة التي جلبها معه.. وهي هنا، في هذا الشوال، ونحن أحقّ بها من أمثاله.. وزّعي البنادق الجديدة على الجميع، دون تمييز وبعدل، وبغير ضجيج، وخذي البنادق القديمة، الصدئة، لتبقى تذكارًا لدينا.

كان الحكيم أوّل من أعطى بارودته لقمْطرة، وأخذ

بارودة جديدة، تبعه صقرش، ثمّ رئيفة، ثمّ قمْطرة، ثمّ الأرقش.. وقال دغمش:

ـ أنا سأحتفظ ببندقيّتي التي لا أجيد التصويب بغيرها.

قال الأرقش:

ـ أنت، يا دغمش، قنّاص قديم، تجيد التصويب بأيّ بندقيّة، فلماذا ترفض؟ وهل أسأنا يومًا إليك؟ أنت زميلنا الذي ذاع صيته، وأنا أحتفظ لك بهديّة ثمينة.. خذ البندقيّة الجديدة ومعها رئيفة.

صاحت رئيفة:

ـ لا!

قال الأرقش:

ـ بلى!

قال دغمش:

ـ أنا لا أريد رئيفة ولا البندقيّة الجديدة!

خطا الأرقش نحوه، أمسك به من عنقه، ضغط عليه وقال:

ـ خذ البندقيّة الجديدة، ودون رئيفة هذه المرّة.. أنت يا دغمش لا تعرف من هو الأرقش.. سآخذ بندقيّتك بالقوّة، هاتها.. هاتها وإلاّ متّ خنقًا بين يدي الحديديتين.. ما قولك؟

ـ أنا عبدك المطيع!

ـ لا! أنت لست عبدي، أنت قاتل، قنّاص بشر، وبعد

أن أخذت بندقيّتك آمرك أن تجلس، وأن تضع يديك على رأسك، كما يفعل الأسرى.. أنت، يا دغمش، أسير الأرقش الآن، والقول الفصل في قضيّتك من اختصاص الحكيم بشير.

قال الحكيم بشير:

ـ كلّ إدانة تحتاج إلى أدلّة وإلى شهود، وفوق ذلك إلى رجل ضليع في القانون!

قالت قمْطرة:

ـ القانون فوق الجميع، ولكن أين هي دولة القانون التي تضع القانون فوق الجميع؟

قالت رئيفة:

ـ حاضرة وغائبة في وقت واحد.

قال دغمش:

ـ هذا هراء، مجرّد القول أين القانون، يعني أنّه ليس هناك قانون، وأنّ الأقوى هو الذي يطبّق قانونه على الأضعف، وحالي، الآن، شاهد على ما أقول.. الأرقش تصرّف وفق قانون الغاب، وقانون الغاب يتيح للوحش الأقوى أن يأكل الوحش الأضعف، الأرقش هذا ليس إلاّ وحشًا أقوى، وأنا لست إلاّ الوحش الضعيف، لذلك ينوي أن يأكلني أمامكم، لكنّكم جميعًا تعرفون القول المأثور: «أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض» فإذا لم تبادروا إلى وقف الأرقش عند حدّه، سيأكلكم واحدًا واحدًا بعدي، ولا أستثني الحكيم بشير نفسه من هذا المصير!

قالت رئيفة:

ـ نعم! على نفسها ستجني براقش.

ردّت قمْطرة:

ـ أنا براقش، وأنا التي على نفسها ستجني، إذا لم تجنِ عليكم قبل غياب شمس هذا النهار.. سأقتلكم وفق المثل القائل: «بشّر القاتل بالقتل!».

أجابت رئيفة:

ـ «وبيت الزاني ولو بعد حين خراب» كما يقول مثل آخر.

ـ ومَن هو الزاني؟

ـ الذي كنت معه في الغابة يا أفعى!

ـ الذي كنت معه يأنف الزنى، حتى معك يا ست الحسن.

قال دغمش:

ـ وقضاة العور، قضاة عور!

وقال صقرش:

ـ والعدل في الأرض يبكي الجنّ لو سمعوا به، ويستضحك الأموات لو نظروا!

قالت قمْطرة:

ـ ملّقيه إذن بحسنك المأجور يا رئيفة!

قال الأرقش بهدوء وحسم:

ـ يكفي ما قلتم، ويكفي ما سمعنا.. ما عقاب الخائن؟

سكت الجميع، بمن فيهم الحكيم بشير.. رازهم الأرقش واحدًا واحدًا وقال:

ـ الإعدام طبعًا! الخائن هو الشادوف، والذي ينفّذ حكم الإعدام بالخائن هو دغمش.. هيّا يا دغمش.. نفّذ الحكم، وبكلّ مهارتك في التصويب.

نبر دغمش:

ـ ولماذا أنا؟

صاح الأرقش غضوبًا:

ـ نفّذ الحكمَ، وإلاّ نفّذت الحكم فيك بدلاً عنه.. قف منتصبًا يا شادوف، أطلق الرصاص عليه يا دغمش، أمّا رصاصة الرحمة فأنا مَن سيطلقها.

نهض دغمش خوفًا من الأرقش، وبيد مدرّبة ومجرّبة، رفع بندقيّته وأطلق رصاصة على الشادوف، لكنّ الرصاصة كانت خلّبيّة، فقهقه الأرقش وقال:

ـ لماذا لم يسقط الشادوف؟

قال دغمش:

ـ لأنّ الرصاصة خلّبيّة كما يبدو!

قال الأرقش:

ـ نعم! الرصاصة خلّبيّة، أمّا البنادق الأخرى، الجديدة، فإنّها خالية من الرصاص تمامًا.. الآن يباشر الحكيم بشير التحقيق معكم، وبنفس طويل جدًّا!

أضاف الأرقش:

ـ الأفضل لكلّ منكم أن يقول الحقيقة، هل سمعتم؟ الحقيقة ولا شيء غيرها، وقد أعذر مَن أنذر.. والسلام.

الجزء الثاني عنوانه: «الأرقش والغجريّة!»

عنوان المؤلف:

ص.ب. ٣٠٣٩٣ ـ دمشق / سورية

P.O.Box 30393 - 5115322 تلفون